فارس يواكيم

ظلال الأرز في وادي النيل

لبنانيون في مصر



الفارابي

فارس يواكيم

ظلال الأرز في وادي النيل

لبنانيون في مصر

دار الفارابي

الكتاب: ظلال الأرز في وادي النيل
المؤلف: فارس يواكيم
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: **دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان**
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2009
ISBN: 978-9953-71-409-7

إهداء،

أهدي هذا الكتاب إلى والدي
الياس يواكيم (1905 ـ 1975)
عاش ومات وفي قلبه حبّان كبيران لمصر ولبنان
لبنان، بلد الآباء وفيه ولد، في بلدة قيتولي (قضاء جزين). وشاء قدره أن يموت فيها، وأن يضم ترابها رفاته.
ومصر، الواحة التي لجأ اليها بعيد الحرب العالمية الأولى، والتي استضافته بترحاب، كمثل الذين سبقوه، ومنهم شخصيات هذا الكتاب.
كان في الاسكندرية يتحدث عن لبنان مع المصريين بلسان المحب.
وكان في بيروت يتحدث عن مصر مع اللبنانيين بلسان المحب أيضاً.

يقول البيت الأخير من قصيدة للشاعر اللبناني سعيد عقل في رثاء الشاعر المصري عزيز أباظة:

مِن زهر لبنان خُــذْ عرشاً ومِن قيم
لا زهــرُ لبنانَ منـّانٌ .. ولا الـقِـيَـمُ

وفي تكريم خليل مطران، شاعر القطرين، قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

لـبـنـان، مـجـدك فـي الـمـشـارق أوَّلُ
والأرض رابـــيـــةٌ وأنــت ســـنـــامُ
وبـنـوك ألـطـفُ مـن نـسـيـمك ظِـلّـهـم
وأشـــمُّ مـــن هـــضـبـاتـــك الأحـــلام

مقدمة

يتناول هذا الكتاب سيرة عدد من الشخصيات اللبنانية التي عاشت في مصر، وساهمت بشكل فاعل في الحياة الثقافية والإعلامية فيها، خصوصا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وطول القرن العشرين.

وبعض هؤلاء ولد في لبنان، وانتقل إلى مصر. وبعضهم ولد في مصر لأب لبناني. فهم لبنانيون بالإرث. وبعضهم حصل على الجنسية المصرية، وظل محتفظا بالجنسية اللبنانية، والقانون في البلدين يسمح بذلك.

وقد حصرت الكتاب في الشخصيات اللبنانية، علما بأنهم كانوا يصنفون في خانة "الشوام". ذلك أن المهاجرين الأوائل قصدوا وادي النيل في الفترة التي كانت فيها بلاد الشام جميعا خاضعة للحكم العثماني. وكان المصريون يرحبون بالقادمين من لبنان أو سوريا أو فلسطين من دون تمييز جغرافي، لم يكن قائما آنذاك. وظلت صفة "الشوام" تلازم جميع الوافدين من "برّ الشام".

كما حصرت الكتاب بأصحاب المساهمات في مجاليْ

الثقافة والإعلام، علما بأن العديد من اللبنانيين كان من أركان الصناعة والتجارة، أو من الأطباء والمحامين والمهندسين اللامعين. ذلك أن مجال الكتاب لا يسمح بالتوسع في هذا الاتجاه.

كما استبعدت الذين كانت لهم مساهمات ذات أثر، لكن أقامتهم في مصر كانت مؤقتة. وأولهم أحمد فارس الشدياق (أول محرر بالعربية في "الوقائع المصرية") ومنهم مثلا، الصحافي جبران تويني (أبو غسان) والأديب سليمان البستاني الذي ترجم الإلياذة ونشرها في مصر، والأدباء يوسف السودا، أمين تقي الدين، الياس ونقولا فياض، والمطربات صباح ونور الهدى ونجاح سلام، والأخيرة ما زالت مقيمة في القاهرة واكتسبت الجنسية المصرية وغنت لمصر واحدة من أجمل أغانيها (يا أحلى اسم في الوجود يا مصر).

ولن أتطرق بحديث مفصل لسيَر ثلاثة كان لهم شأنهم في الصحافة والأدب والتاريخ والقانون، وأقصد الأخوين أمين وعبد الرحمن الرافعي، وابن عمهما مصطفى صادق الرافعي، فهم من أبناء الجيل الرابع، تمصروا تماما، واقتصر ارتباطهم بلبنان على شجرة العائلة التي تذكر أن جدهم عبد القادر الرافعي هاجر من طرابلس (لبنان) إلى مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

كما لن أتناول سير بعض الشخصيات الأدبية الشهيرة مثل أندريه شديد التي ولدت في القاهرة عام 1920 واستقرت في باريس نهائيا منذ 1946، أو جورج شحادة المولود في الإسكندرية عام 1910 والمتوفى في باريس عام 1989 أو هكتور خلاط المولود في الإسكندرية عام 1888 والمتوفى في بيروت عام 1976، وقد ولدوا في عائلات لبنانية. لأنهم غادروا مصر قبل أن ينشروا إبداعهم. وبالتالي، فإن ارتباطهم بمصر اقتصر على مكان الولادة والنشأة الأولى، وهم لم يمارسوا دورا في الحياة الثقافية أو الإعلامية المصرية.

وسيرد في الكتاب حديث عن شخصيات ذات شهرة كبيرة، وقد كُتب عنها من قبل. لكني ما كنت قادرا على إغفالها، وقد حاولت أن أكثف الحديث عنها، وربما ملقيا ضوءا جديدا عليها. كما سيرد الحديث عن شخصيات أقل شهرة، ورأيت أنها تستحق نصيبا من الأضواء. ومِن هذه الشخصيات مَنْ لا يعرف البعض أنهم لبنانيون أو من أصول لبنانية.

على أني أحب أن أؤكد هنا على حضانة مصر لهذه الشخصيات. ولولاها، لما تمكن هؤلاء من أداء الأدوار التي قاموا بها، كل في مجاله. كانت مصر، الواحة الوحيدة في العالم العربي التي تتاح فيها الفرصة لأصحاب الفكر للتعبير

عن أنفسهم. وبالنتيجة، كان إبداع اللبنانيين مصريا يؤرخ في سجل الثقافة المصرية. ولئن كان في ملمح منه ذا جذور لبنانية، فهذا ما أضفى عليه الخصوصية أو الفرادة. ومن الطبيعي أن يترك اللبناني في إبداعه المصري بصمات من ثقافة حملها معه في هجرته. على أن هذه الجداول اللبنانية صبّت في النهر المصري.

في معرض إثباتي لبعض التواريخ، سوف أعتمد تسمية الشهور المتبعة في مصر أو في لبنان بحسب موقع الحدث. وللتسهيل على القاريء في بلاد الشام وفي مصر، أورد الجدول التالي:

يناير ـ كانون الثاني

فبراير ـ شباط

مارس ـ آذار

إبريل ـ نيسان

مايو ـ أيار

يونيه ـ حزيران

يوليو ـ تموز

أغسطس ـ آب

سبتمبر ـ أيلول

أكتوبر ـ تشرين الأول

نوفمبر ـ تشرين الثاني

ديسمبر ـ كانون الأول.

كما أنني في معرض سردي لأسماء الشخصيات، سأكتفي بمجرد ذكر الأسماء، من دون الألقاب (باشا، أو بك) وإن كنت سأنوّه بحصول صاحبها عليها. كما أنني لن أذكر لقب الشيخ إلا لمن يحمله بصفة رتبة دينية. وأسماء الأعلام، تبقى في النهاية، أكبر من الألقاب.

في بلاط الصحافة

الأهرام

ما زالت جريدة "الأهرام" تصدر يوميا في القاهرة. وهي واحدة من أقدم الصحف في العالم التي ما زالت مستمرة في الصدور. وقد لعبت على امتداد تاريخها دورا إعلاميا بارزا. وكانت، في مراحل مختلفة، حتى الأولى المبكرة منها، سبّاقة في تطوير المهنة. أنشأ هذه الجريدة أخوان جاءا إلى مصر من لبنان: سليم وبشارة تقلا.

صدر العدد الأول في 5 أغسطس 1875. جريدة أسبوعية من أربع صفحات. مكتبها في حيّ المنشية بمدينة الإسكندرية. وكتب الأخوان كلمة بعنوان "على هامش العدد الأول" جاء فيها: "بما أننا اخترنا تسمية جريدتنا هذه باسم أعظم أثر موجود في القطر المصري وفي سواه أيضاً، وهو الأهرام، رأينا من باب الإفادة أن ندرج في كل عدد تاريخ هذا الأثر نقلا عن أشهر المؤرخين".

وإلى ذلك الباب التاريخي، عنيت الجريدة في بداياتها بالأخبار العالمية والعربية. أما الأخبار المحلية فاقتصرت على باب الحوادث. أما المواضيع السائدة، فهي المتعلقة بالتجارة.

لكنها أحدثت نقلة نوعية بدءا من العدد الرابع عشر (4 نوفمبر 1876) إذ نشرت لأول مرة برقية من وكالة رويترز.

وكانت البرقية الثانية من وكالة هافاس في العدد رقم 25 (19 يونيه 1877). ومن بعد، أصبح نشر برقيات وكالات الأنباء العالمية تقليدا في الأهرام. كما كانت الجريدة سبّاقة في اعتماد نظام المراسلين. وكان المستشرق الفرنسي نيكولا رينو أول مراسل لها من مرسيليا عام 1877. وفي سنتها الأولى بدأت الأهرام تنشر مقالات بأقلام كتاب ضيوف. وأول هؤلاء الشيخ محمد عبده بتاريخ 2 سبتمبر 1876. وقدم تقلا المقالة بالكلمة التالية: "وردت إلينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة الأديب الشيخ محمد عبده، أحد المجاورين بالأزهر، وموضوعها في أن فن القلم والكتابة من اللوازم الضرورية التي ليس للعالم عنها مندوحة في تعيشهم الحقيقي".

ثم صدر العدد الأول من "صدى الأهرام" في 9 سبتمبر 1878. جريدة يومية، توسعت فيها الأخبار والبرقيات وأصبحت تعتمد في أخبارها المحلية على مراسلين في مختلف المدن المصرية. كما بدأت بنشر القصص التاريخية والمعرّبة. وذكر المؤسسان أن تأخر صدور الجريدة اليومية مرده إلى انتظار وصول مطبعة حديثة "تطبع في الساعة نحو ألف طلمبة من الورق طبعا متقنا للغاية". وحرص الأخوان تقلا على نشر ملخص لأهم الأخبار الواردة في "الصدى" في عدد "الأهرام" الأسبوعي.

وفي 17 مايو 1879 أصدر الأخوان جريدة "الوقت" يومية سياسية تجارية، كبديل من "صدى الأهرام"

و"الأهرام" الممنوعتين من الصدور بأمر من الحكومة. وهى استمرت حتى نهاية 1880. (كما نشرا جريدة "الأحوال" سياسية يومية بدءا من 7 يوليو 1882، لكنها توقفت بعد صدور بضعة أعداد فقط).

ثم صدرت "الأهرام" يومية بدءا من مطلع 1881. وتوقفت "الصدى" عن الصدور. وابتكر الأخوان تقلا تقليدا يقضي "بترك ألفاظ النعوت الشخصية عند ذكر الأشخاص، مكتفين بإثبات التحديد الرسمي المعيّن للرتب فقط، بالإشارة إلى صاحب المرتبة الثالثة مثلا بلفظ رفعتلو، والثانية عزتلو والأولى سعادتلو، ورتبة المشيرية دولتلو، دون إثبات ألفاظ أخرى وصفية كالوطني النزيه والهمام والوجيه وما شاكل ذلك. (...) وليس لرسائل المدح عندنا نصيب ولا للطعن المتعلقة بالشخصيات أو الوظيفة".

وفي نوفمبر 1889 انتقلت "الأهرام" إلى القاهرة وما زالت حتى يومنا هذا تصدر منها. وكانت بمرور السنين تحولت إلى مؤسسة إعلامية من طراز رفيع، واعتبرت الجريدة المرجع. وظلت ملكيتها لآل تقلا، إلى حين تأميم الصحافة في مصر عام 1960.

سليم تقلا

هو الرائد المؤسس. ولد في بلدة كفرشيما، القريبة من بيروت، عام 1849. تعلم في مدرسة القرية. وفي سن

العاشرة التحق بمدرسة عبيه[1]. ومنها انتقل إلى المدرسة الوطنية لصاحبها بطرس البستاني[2]. وبعدما أتم دروسه فيها، عمل مدرسا في المدرسة البطريركية[3] في بيروت، ثم أصبح مديرها. وفي 1874 سافر إلى مصر وفي رأسه مشروع إصدار جريدة. وتعرف على نخبة رجال السياسة والأدب، وسعى للحصول على امتياز إصدار "الأهرام". وفي "عرض الحال" الذي قدمه أعلن أن الغرض من إصدارها "نشر التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والزراعية والمحلية، وكذا من المقاصد طبع بعض كتب كمقامات الحريري وبعض ما يتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والأشيا التاريخية

---

(1) مدرسة عبية: أشأتها الإرسالية الأميركية البروتستانتية عام 1843 في بلدة عبيه بقضاء عاليه في جبل لبنان. وبفضل المنح الدراسية التي قدمتها إلى التلاميذ استمالت بعض العائلات المسيحية إلى المذهب البروتستانتي.

(2) أسس بطرس البستاني (1819 ـ 1883) "المدرسة الوطنية" في بيروت عام 1863. وكان ذا ثقافة موسوعية وضليعا في اللغة العربية، فاستحق لقب "المعلم" الذي أطلقه عليه معاصروه. من مؤلفاته: معجم "محيط المحيط" والأجزاء الستة الأولى من موسوعة أسماها "دائرة المعارف". وكان من رواد الصحافة العربية، و"نفير سوريا" التي أصدرها عام 1860 كانت ثاني صحيفة تصدر باللغة العربية.

(3) افتتحت "المدرسة البطريركية" في بيروت عام 1864. وهى تابعة لطائفة الروم الكاثوليك، ولها شقيقات في دمشق والقاهرة والإسكندرية. درّس فيها ناصيف اليازجي وولده ابراهيم والشيخ يوسف الأسير وخليل مطران وسواهم من أعلام اللغة العربية.

والحِكم والنوادر والأشعار والقصص الأدبية وما شاكل ذلك من الاشيا الجايز طبعها، بدون أن أتعرض للدخول مطلقا في الأمور البوليتيقية". ووفق في مسعاه، إذ منحه الخديوي إسماعيل الترخيص المطلوب، وكان سليم تقلا كتب قصيدة مدحه فيها.

وكان عصر إسماعيل عصر النهضة والانفتاح، فاستقطب العديد من رجال الأعمال والأدباء الأجانب والعرب. وعلى هذا الأساس قصد سليم تقلا مصر. إذ في تلك الفترة، كانت الأحوال السياسية هدأت في لبنان بعد مرور 14 سنة على حرب 1860[4] وقيام نظام المتصرفية[5].

استدعى سليم أخاه بشارة تقلا، الذي وفد إلى

---

(4) في 1860 نشبت في إمارة جبل لبنان حرب أهلية بين الدروز والموارنة وامتدت إلى البقاع أيضاً. وضعت أوزارها بعد تدخل الدول الكبرى.

(5) تألفت في بيروت لجنة دولية من ممثلي: بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا للنظر في إعادة تنظيم الوضع في إمارة جبل لبنان. وبعد عدة اجتماعات خلال ثمانية أشهر أقرّ نظام خاص (بروتوكول 1861) تمت المصادقة عليه في الاستانة عاصمة الامبراطورية العثمانية. أصبح "جبل لبنان" سنجقا عثمانيا يتمتع بالاستقلال الداخلي، تضمن كيانه الدول الست الموقعة على ذلك النظام. وبموجب النظام الأساسي المؤلف من 17 مادة أصبح على رأس الكيان متصرف مسيحي كاثوليكي، يعيّنه الباب العالي ويكون مسؤولا لدى الاستانة. اشتُرط أن يكون المتصرف عثمانيا من غير اللبنانيين. وأن توافق على تعيينه الدول الست. وظل هذا النظام قائما حتى انهيار الامبراطورية العثمانية.

الاسكندرية، ومعا أسسا "الأهرام". وذكر سليم تقلا: "أنشأت الأهرام وأنا عالم بما يحول دون نشرها من المصاعب. وكنت أقضي إليها الليل والنهار عاملا بدنا وعقلا. فكنت أحررها وأديرها وألاحظ عمالها وأكتب أسماء مشتركيها وأتولىّ معظم أعمالها مما يقوم به الآن عشرة من العمال".

وكان سليم تقلا من أوائل الصحافيين الذين قاموا برحلات إلى أوروبا ووافى جريدته بمقالات خاصة. كما أنه التقى بكبار الشخصيات العالمية، ومنها السلطان عبد الحميد عام 1889 في قصر يلدز باسطمبول. وكانت لغته لغة صحافة، خالية من الزخارف اللفظية والسجع مما كان دارجا في تلك الفترة. ونال لقب البك وعدة أوسمة، منها الوسام المجيدي العثماني، ووسام Légion d'honneur الفرنسي من رتبة فارس، ووسام "الافتخار" التونسي من رتبة كومندور، وسام المجمع العلمي الفرنسي من رتبة ضابط، وسواها من الأوسمة المصرية الرفيعة. وتوفي في مصيف بيت مري في لبنان عام 1892، ودفن في كفر شيما.

بشارة تقلا

مكمل المشوار بعد رحيل أخيه. ولد في كفرشيما في 22 آب 1852. ومثل أخيه تلقى علومه الأولى في مدرسة القرية،

ثم لدى المعلم بطرس البستاني، وفي المدرسة البطريركية، التي كلفته التدريس فيها، لكنه استقال حين أرسل أخوه سليم في طلبه، فأبحر إلى الاسكندرية عام 1875.

وقد روى بشارة إلى إبنه جبرائيل بعضا من مصاعب البدايات، وسجلها ابنه على لسانه: "كنت أطوف على الناس صباحا أتعرفهم وأعرض عليهم الجريدة. وقلّ من كان يرضى بالاشتراك فيها إلا نفراً من الذين نصبوا أنفسهم في منصب المحسنين إلينا. ثم أقصد أحد منتديات القهوة، فأول ما أطلبه جريدة أوروبية أطالعها وأعرّب أهم أخبارها ومقالاتها، إذ لم يكن بوسعنا الاشتراك في جرائد غربية توفيراً. فإذا فرغت من الترجمة أتيت الإدارة ونظرت في حسابها من دخل وخرج، واشتغلت بالتصحيح وكتابة بعض الحوادث، ثم جلست أعاون الفعلة على طيّ الأعداد وتهيئتها للتوزيع. وكنت أتناول غذائي في الغالب وأنا بين صفحة أطويها ولقمة أزدردها".

وهو عشق الصحافة، حتى أنه شرع عام 1877 في ترجمة برقيات وكالات الأنباء، يدفع بها تباعا إلى المطبعة ثم يرسلها إلى مشتركي "الأهرام". وكانت هذه خدمة صحافية فريدة في نوعها. وراج توزيع البرقيات على المشتركين خلال الحرب الروسية ـ العثمانية، فكان القراء يطلعون على آخر الأنباء أولاً بأول، فيما يشبه خدمة البريد الألكتروني المعاصر، عبر جريدة خاصة أصدرها فترة الحرب سمّاها

"حقيقة الأخبار". وقد تبرع بنصف ريع هذه الجريدة لصالح الجيش العثماني.

نشر بشارة تقلا أول مقال بتوقيعه وكان عن "سياسة ألمانيا" في عدد 20 نوفمبر 1879. وقام بأول رحلة صحافية عام 1880 إلى بلاد الشام، وكتب تقارير عن جبل لبنان ودمشق الفيحاء. وفي السنة التالية سافر إلى أوروبا. وتوالت فيما بعد مثل هذه الرحلات، وكان فيها يتابع مناقشة القضية المصرية في عواصم القرار: لندن وباريس واسطمبول. وإضافة إلى التقارير الصحافية التي كان يرسلها، نشر المقابلات التي أجراها مع كبار الشخصيات السياسية. وكان ذلك ابتكارا في الصحافة العربية، تعلمه من الصحافة الأوروبية.

وفي 1900 أصدر جريدة Pyramides باللغة الفرنسية.

نال بشارة تقلا عدة أوسمة عدة أوسمة، وتميز عن أخيه بأنه حمل لقب الباشا. توفي في 15 يونيه 1901. والغريب أنه تزوج في مرسيليا في مثل ذلك اليوم من عام 1889.

بيتسي كبّابة تقلا

زوجة بشارة تقلا. ابنة نعوم كبابة، من كبار تجار حلب. ولدت في بيروت عام 1869. ساعدت زوجها في إدارة "الأهرام" 12 سنة. وبعد وفاته أكملت مسيرة الإدارة، إذ كان ولدها جبرائيل في التاسعة من عمره. وهى صاحبة الفضل

في بناء دار الأهرام في القاهرة. وسهرت على تربية ابنها وأوفدته إلى باريس لمتابعة دراسته الجامعية. أشرفت على صدور "البيراميد" الفرنسية، حتى توقفها عام 1914. وأسندت رئاسة تحرير "الأهرام" إلى داود بركات. وكان أول صحافي يتولى هذه المهمة في الدار، وهو ليس من آل تقلا. وبعد تخرج ولدها سلمته الإدارة وإن ظلت تعاونه، حتى وفاتها في أغسطس 1924. ورثاها مصطفى صادق الرافعي بقصيدة، منها: "سيدة النسوة لكنها/ زادت بها الهمة أبطالها".

جبرائيل تقلا

بعد حصوله على شهادة البكالوريا في القاهرة، سافر إلى باريس حيث درس الحقوق وتخرج عام 1908 واستمر في فرنسا ودرس العلوم السياسية أيضاً. وعاد إلى مصر فتولّى إدارة "الأهرام" منذ عام 1912 وحتى وفاته بالقاهرة في 7 يوليو 1943.

كان جبرائيل تقلا صاحب رأي في تطوير الجريدة على صعيديْ التحرير والإدارة. نهض بالدار إلى مستوى المؤسسة وطورها مهنيا. لم يستسغ أن تبقى "الأهرام" جريدة يطغى عليها الأدب وتقل فيها الصحافة. ورأى أنها جريدة يومية وليست مجلة أدبية شهرية، والأخبار ينبغي أن تأخذ الحيّز

الأكبر. وهكذا ارتفع بالجريدة نوعيا ووطد ذلك باعتماد نظام المراسلين في مدن مصر وفي مختلف عواصم العالم. وكانت "الأهرام" أول جريدة عربية لها مراسلوها الخاصون. وقد كتب فكري أباظة على خطوة جبرائيل تقلا فلقبّه بـ "دولة وعصبة أمم" لديه من "السفراء" في مختلف أنحاء المعمور أكثر بكثير من الممالك والدول". بل واعتمد جبرائيل تقلا نظام الموفد الخاص أيضاً. و كان هو شخصيا موفد "الأهرام" إلى مؤتمر مونترو عام 1937 الذي تقرر فيه حصول مصر على استقلالها التام.

وكانت "الأهرام" بادرت عام 1908 بنشر أول صورة. وأصبحت في عهد جبرائيل تقلا أول جريدة عربية يومية تولي اهتماما كبيرا بنشر الصور. وهو أنشأ معملاً خاصا لتحميض الصور وطباعتها. وظلت الجريدة تكبر وتوزيعها اليومي يرتفع حتى أصبح من المستحيل تلبية الطلب بالطرق الطباعية القديمة. وفي هذا الصدد أيضاً كان جبرائيل تقلا أول من أدخل في المطبوعات العربية طريقة طباعة "اللينوتيب" التي تسمح بطباعة عشرات الآلاف من النسخ في بضع ساعات. وكانت "الأهرام" تصدر في ست عشرة صفحة، وهو حجم يضاهي أحجام الصحف الأوروبية الكبيرة. وأصدرت الجريدة الملاحق والأعداد الخاصة بدءا من 1930. وفي العام ذاته بادرت "الأهرام" إلى إشراك القراء في استفتاءات، منها حول "إدخال الشرطة النسائية في مصر"، ومنها استفتاء

طريف"من هو الرجل الذي تتمنى لو بُعث حيّاً، إذا قُدّر لك اختيار ذلك، ولماذا".

في عام 1936 نال جبرائيل تقلا رتبة الباشا. وفي عام 1939 انتخب بالتزكية عضوا في مجلس النواب وتكرر انتخابه بالتزكية أيضاً عام 1942. تزوج من رينه صباغ، وهى من أسرة بيروتية ثرية يملك أهلها "بنك صباغ". ورزقا ولدا وابنتين.

بشارة تقلا

ولد في القاهرة في 21 مايو 1928. ابن جبرائيل، وقد حمل اسم جده بشارة. لكنه لم يرث موهبته في الصحافة، بل أخذ عن أبيه فن الإدارة. لم يساهم في التحرير، لكنه بذل جهدا في إدخال الجريدة العصر الصناعي، فزودها بأحدث المطابع ونظّم الشؤون الإدارية واهتم بالتسويق وبقسم الإعلانات. في عهده أصدرت المؤسسة "الأهرام الاقتصادي" سنة 1951. وفي إدارته بدأ تمصير الأهرام، فتولّى الصحافي المصري أحمد الصاوي محمد رئاسة تحرير الجريدة عام 1948 إلى جانب اللبناني عزيز ميرزا. ولدى تأميم المؤسسة عام 1960، انتقل بشارة تقلا إلى بيروت وفيها شارك غسان تويني في تأسيس "التعاونية الصحافية" التي كانت تصدر "النهار" وتملك المطابع حتى أواخر ستينات القرن العشرين.

كما ساهم مع غسان تويني وسمير سوقي في شركة العلاقات العامة، ومع كميل شاهين في "المطبوعات المصورة". ثم هجر الصحافة إلى عالم الصناعة. وتوفي بالمستشفى الأمريكي في باريس في 31 يناير 1996. وكان متزوجا، لكنه لم ينجب. وبوفاته انتهت سلالة الرجال من آل تقلا، مؤسسي "الأهرام".

وباستثناء الأخوين المؤسسين، أسندت مهمة رئاسة التحرير إلى صحافيين من خارج الأسرة، فيما احتفظ آل تقلا بالإدارة حتى التأميم. وتولّى رئاسة التحرير أدباء وصحافيون أعلام. منهم الشاعر خليل مطران، وله فصل لاحق في هذا الكتاب. وسألقي الآن الأضواء على هؤلاء.

خليل زينية

ليس من الأسماء المشهورة. لكن لدى وفاته في بيروت في 10 آذار 1944، نشرت الأهرام في صفحتها الأولى تحت عنوان "وفاة صحافي كبير" كلمة جاء فيها: "تلقينا من مراسلنا في بيروت نعي المرحوم الأستاذ خليل زينية، من شيوخ الصحافة العربية. فقد بدأ حياته الصحافية منذ حوالي ستين سنة، وتولّى تحرير الأهرام ثم رئاسة تحريرها مدة من الزمن". وفي عام 1900 سافر إلى باريس وأقام بها سنتين، حيث عمل مراسلا للأهرام. وإلى ذلك، كان نشر في الجريدة

سلسلة مقالات حول "التربية والتعليم" طبعها في كتاب (1899).

وكان خليل زينية ولد في بيروت عام 1865. تتلمذ على الشيخ إبراهيم اليازجي في المدرسة البطريركية فأتقن اللغة العربية. سافر في شبابه إلى الاسكندرية، وبدأ عمله الصحافي في الأهرام. وفي مارس 1888 أصدر في الاسكندرية مجلة "الراوي" شهرية ثقافية اجتماعية، توقفت عن الصدور في خريف 1890. فيها دعا المثقفين إلى ممارسة دورهم الريادي في المجتمع، وأن يكونوا القدوة. وفيها عاب على الشرق طغيان الفوارق الطبقية في مجتمعه. والأهم، أنه بادر على صفحات "الراوي" بالدعوة إلى إنشاء متحف الاسكندرية. وحين عاد من باريس أصدر صحيفة "المصور" عام 1902 على غرار Le petit parisien التي تعتمد كثيرا على نشر الصور. بل إنه اتفق مع الجريدة الفرنسية على تزويده بالصور. وكانت "المصور" أول جريدة عربية من نوعها.

وحين صدر الدستور العثماني عام 1908[6] ونشطت

(6) في 1878 علّق السلطان العثماني عبد الحميد العمل بالدستور الذي كان وضعه مدحت باشا قبل سنتين، وبموجبه أعلنت اللامركزية الإدارية والحرية والمساواة. كما حلّ السلطان "مجلس المبعوثان". وبهذا الإجراء أصبح السلطان عبد الحميد منفردا بالصلاحيات المطلقة وعطّل عمل المؤسسات. واستمر حكمه الاستبدادي طويلا (23 سنة) إلى أن أطاحت به حركة "تركيا الفتاة".

جمعية "الاتحاد والترقي"[7] عاد إلى بيروت وأنشأ جريدة "الثبات". وفي 1912، انضم إلى الحركة التي قامت في بلاد الشام تطالب بالحكم اللامركزي للولايات العربية في الدولة العثمانية، وبالاستقلال الثقافي والاعتراف باللغة العربية في بلدانها، وكلغة رسمية في "مجلس المبعوثان"[8]. وفي السنة التالية سافر إلى باريس لحضور المؤتمر العربي الأول

---

(7) كان هدف "تركيا الفتاة" وحزب "الاتحاد والترقي" المنبثق عنها القضاء على حكم السلطان عبد الحميد، وقيام حكومة برلمانية تعيد العمل بدستور مدحت باشا. ونجحت في إرغام السلطان على القبول بذلك في 24 تموز/يوليو 1908. لكن عبد الحميد سعى إلى التخلص من "تركيا الفتاة" وأعلن انصاره ثورة مضادة في اسطمبول في 13 نيسان/إبريل 1909. غير أن الجيش المتمركز في مقدونيا بقيادة شوكت باشا زحف على العاصمة وحاصر قصر السلطان. وعقد المجلسان (النواب والأعيان) جلسة صادق الأعضاء فيهما على خلع السلطان عبد الحميد لصالح أخيه.. وفي 27 نيسان 1909 نُفي السلطان إلى تسالونيكي. وما لبثت "تركيا الفتاة" التي تخلت عن القومية العثمانية أن أحيت القومية التركية. وسعى حزب الاتحاد والترقي إلى تطبيق سياسة تتريك، فاصطدم بأنصاره العرب الذين وجدوا أنفسهم أصبحوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

(8) قد يبدو مصطلح "مجلس المبعوثان" متضمنا خطأ لغويا، على اعتبار أن الصواب يقضي بقول "مجلس المبعوثين". لكن هذا المصطلح عثماني ويعني مجلس النواب .

الذي عقد في العاصمة الفرنسية[9]. وفي مطلع 1914 أصدر مجلة "المرآة". ثم خشي من بطش جمال باشا فقصد مصر. وهناك علم بوجود اسمه في قائمة الذين أعدموا في بيروت 1916[10]. وفي القاهرة عاود بعد الحرب العالمية الأولى نشر "المرآة". لكنها لم تعمر، فأخذ ينشرها سنويا بعنوان

---

(9) تداعى مؤيدو الإصلاح العرب المناهضون للسياسة العثمانية والتتريك إلى لقاء في باريس، فعقد في العاصمة الفرنسية ما عُرف بـ "المؤتمر العربي الأول" عام 1913. حضره أقطاب سياسة من مختلف البلاد العربية. ومن مقرراته أن الإصلاحات ضرورية، مع تقديم ضمانة للعرب أن يتمتعوا بحقوقهم السياسية وأن يشتركوا فعليا في الإدارة المركزية. وأن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها. وأن اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني ورسمية في الولايات العربية. وأن تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية، إلا في الظروف الاستثنائية القصوى.

(10) خلال الحرب العالمية الأولى انتدب أحمد جمال (باشا) الذي كان وزيرا للحربية في الحكومة العثمانية إلى بلاد الشام حيث تولى قيادة الجيش الرابع. ولم يكن الباب العالي راضيا عن الحركات السياسية المنتمية إلى القومية العربية. بدأ مهمته برصد هؤلاء، ووضع قائمة بأسماء "المتهمين". وألّف الديوان العسكري العرفي الذي نطق بالأحكام المعدة سلفا: الإعدام. القافلة الأولى من 11 شهيدا أعدموا في ساحة البرج في بيروت (ساحة الشهداء) في 14 آب 1915. وضمت القافلة الثانية 14 شهيدا أعدموا في الساحة ذاتها في 6 أيار 1916. وفي اليوم نفسه اعدمت القافلة الثالثة وهى من 7 شهداء في ساحة المرجة في دمشق. وثمة شهداء آخرون أعدموا على انفراد خلال عامي 1915 و1916.

"تقويم المرآة" وكان الأول من نوعه في العالم العربي، يرصد أحداث السنة بلغة موجزة جميلة. وكان "التقويم" آخر منشوراته. بعدها أصبح كاتبا متفرغا ينشر مقالاته في الصحف، إلى أن استقر على الكتابة في جريدة "البصير" التي كان آل الشميـّل يصدرونها في الاسكندرية. وحملت مقالات خليل زينية في "البصير" عنوان " في كل واد أثر من ثعلبة". وفي 1938 تقاعد وعاد إلى بيروت، وأقام فيها حتى وفاته.

داود بـركـات

في 5 نوفمبر 1933 توفي داود بركات في القاهرة، وفي نعيه كتبت الأهرام: "كان رحمه الله من الدعائم القوية والعمد المتينة التي قامت عليها الصحافة المصرية. أدركها طفلة تحبو في أخريات القرن التاسع عشر، ثم سايرها في نهضتها ورقيها وبذل في سبيلها شبابه وشيخوخته، وعاش لها ومات في سبيلها".

ولد داود بركات في بلدة يحشوش في جبل لبنان عام 1867. تعلم في مدرسة المحبة في عَرَمون ثم انتقل إلى مدرسة الحكمة في بيروت[11]. وأتقن اللغتين العربية

(11) تعتبر "مدرسة الحكمة" من أعرق مدارس بيروت. أسسها المطران الماروني المؤرخ يوسف الدبس عام 1875. تخرج فيها عدد من الذين تولوا مقاليد الحكم في لبنان.

والفرنسية. ثم هاجر إلى مصر عام 1890، وأخذ يكتب في الصحف، والتحق بمصلحة المساحة في طنطا، ثم تركها ليشتغل بالتدريس بالمدرسة الأمريكية في زفتى. واحترف الصحافة عام 1894 في صحيفة "المحروسة" الأسبوعية، ثم اشتغل محرراً في جريدتيْ "النيل" و"القاهرة". وبعدها أنشأ جريدة "الأخبار" اليومية مع يوسف الخازن. ثم تركها بعد ثلاث سنوات، واشتغل بالتجارة.

لكنه ما لبث عام 1899 أن عاد إلى مهنة المتاعب وانضم إلى أسرة تحرير "الأهرام" وكان بها آنذاك خليل مطران وخليل زينية. وبعد وفاة بشارة تقلا 1901 تولى داود بركات منصب رئيس التحرير، وظل يمارس هذه المهمة 32 سنة حتى وفاته عام 1933. وحين تولى رئاسة التحرير كانت "الأهرام" تصدر في أربع صفحات، وحين وفاته كانت قد بلغت أربع عشرة صفحة.

وكان قد روى بعضا من ذكرياته للكاتب والصحافي طاهر الطناحي. قال داود بركات: "ما كنت أعددت نفسي للصحافة. ولا وجّهت فكري للعمل بها. لأنني شغفت في مقتبل حياتي بالعلوم الرياضية فأكببت على دراستها. لكني كنت أطلع على الكتب الأدبية أيضاً. وهويت قرض الشعر، وأخذت أكتب الفصول النثرية. فانصرفت عن الرياضيات لأنني وجدتها عملاً صامتاً، ووقفت عزمي على هذا النوع من النظم والنثر. ثم انحرفت عن نظم الشعر، بل وكرهته ومزقت كل ما

نظمته. وحدث في ذلك الحين أن حريقا شبّ في دار صديق عزيز عليّ وحاصرته النار ورأيته يستغيث، وأنا والناس حوله لا نملك نجدته حتى التهمته النار. فأثّر ذلك الحادث المروع في نفسي تأثيرا عظيما، وكتبت في رثاء الصديق العزيز كلمة نشرتها صحيفة "المحروسة". ثم طلب مني عزيز زَنْد، ناشر "المحروسة" أن أتولى تحرير الصحيفة".

وحين انتقل داود بركات للعمل في "الأهرام" لم تكن أكبر الصحف المصرية ولا أكثرها انتشاراً، وإن كانت من الصحف الرصينة التي تحظى بالاحترام. لكنه ثابر حتى جعلها في مقدمة الصحف لا من حيث جودة التحرير فحسب، بل من حيث الرواج أيضاً. وكانت مقالاته ذات وقعٍ وأثر، ومنها المقال الذي كتبه في ديسمبر 1914 في اليوم التالي لإعلان الحماية البريطانية على مصر وعنوانه "مصر تطلب صديقاً وتأبى أن يكون لها سيّد".

ولم يكن من الكتاب الذين يزعجهم ضجيج في أثناء عملهم. لذلك لم يكن مكتبه يخلو من الزوار. وكان يستقبل زائره ويرحب به ويطلب له قهوة ويحادثه ويصغي إلى حديثه ويفكر ويكتب في وقت واحد! وفي الأثناء لم يكن جرس التلفون يكفّ عن الرنين ولا كان السعاة ينقطعون عن الدخول ليحملوا إليه كتابا أو ليأخذوا منه مقالاً!

ولم يكن داود بركات صحافيا فحسب، بل كان مؤلفا أيضاً كتب عدة مؤلفات، منها: "السودان ومطامع السياسة

البريطانية في مصر" و "تعالوا إلى كلمة سواء" في سياسة مصر وعلاقتها بانكلترا و "الرد على مندوب التايمز" في القضية المصرية و "مجموعة مقالات عن إبراهيم باشا".

وكان من أبرز الذين سعوا لإنشاء نقابة الصحافة المصرية. ونال رتبة البكوية. وعاش عازباً لم يتزوج، وتميز بالوفاء في الصداقة، وقد أشار إلى ذلك خليل مطران في القصيدة التي رثى بها صديقه داود بركات، قال: "ويرعى ذوي القـُربى رعاية والـدٍ

فأبناؤه كـُثـُرٌ وما هو والد".

أنطون الجميّل

هو الأديب الذي وجد نفسه محترفا الصحافة. من مواليد بكفيا في جبل لبنان. قيل في عام 1887، لكن يبدو من مطالعة سيرة حياته أنه ولد قبل ذلك التاريخ. فهو درس في بيروت في مدرسة الحكمة، ثم في جامعة القديس يوسف اليسوعية، وعمل فيها بعد تخرجه مدرسا للأدب العربي، ثم محررا لجريدة "البشير" عام 1908. وفي السنة ذاتها أعلن الدستور العثماني وتهيأ المناخ لظهور مؤيدي الاستقلال عن السلطنة، فكتب أنطون الجميّل مسرحية بعنوان "أبطال الحرية". وكان استلهام التراث العربي وسيلة لمناهضة العثمانية، أتبعها بمسرحية بعنوان"السموأل، أو وفاء

العرب". وفي السنة التالية، سافر إلى القاهرة واشتغل محررا في "الأهرام".

وفي 1910 أصدر بالاشتراك مع أمين تقي الدين مجلة "الزهور". وكانت مجلة أدبية، كتب في افتتاحية عددها الأول: "يكاد كتّاب القطر الواحد يجهلون حتى أسماء كتاب القطر الثاني. لأنه لا صلة بينهم ولا رابطة تربطهم. فحملة الأقلام في مصر يكادون لا يعرفون شيئا عن زملائهم في الشام، وهؤلاء يعرفون دون القليل عن كتاب العراق. وقس على ذلك في سائر الأقطار العربية". وعاشت "الزهور" أربع سنوات، ونشر فيها كبار الأدباء مثل أحمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري. ومن بعد عمل أنطون الجميل موظفا في الدولة في دائرة الترجمة، نظرا لإجادته اللغتين العربية والفرنسية. لكنه ما لبث أن عاد إلى "الأهرام" وقال: "اشتغلت بالصحافة، ثم هربت منها، لكنها أبت إلاّ أن أعود إليها" .

وبعد وفاة داود بركات، تولّى أنطون الجميل رئاسة التحرير. وفي محاولته لتطوير الجريدة سعى إلى جعل الموضوعات المنشورة مختصرة قدر الإمكان، وقال: "نحن في زمن لا يتسع الوقت فيه لمطالعة المقالات المطولة والبحوث المتشعبة في الصحف اليومية". لكن تأثير الأديب فيه جعل لغة "الأهرام" أقرب إلى الإنشاء الرصين منه إلى اللغة الصحافية الحيوية.

ومع عمله الصحافي استمر أنطون الجميل مهتما بشؤون الأدب، وإن سرقت الصحافة معظم وقته، فلم يتمكن من نشر الكتب. وهو الذي وقف على نشر ديوان وليّ الدين يكن بعد وفاته، وكتب مقدمته. وكان الجميل خطيبا بليغا ومحاضرا مرموقا. وله محاضرة قيّمة عن التسامح ألقاها عام 1918 في جمعية الاتحاد اللبناني بالاسكندرية. وبالرغم من طغيان البلاغة على أسلوبها، فهى تقدمية من حيث مضمونها. وفيها "نحن كأفراد وكجمعية، تحق لنا مطالبة خصومنا بالاعتراف بإخلاصنا في مذهبنا السياسي. لكن يجب أن نعترف لهم بمثل ذلك، وما نحن بمنكرين. نريد لأنفسنا الحرية في بسط آرائنا، فلنُبِحْها لهم، وما قط بمانعين. فليتفضلوا لمجادلتنا بالتي هى أحسن، يتبين صحيح الرأي من مريضه".

انتخب أنطون الجميل عضوا في مجلس الشيوخ المصري. ونال رتبة الباشا. وظل رئيسا لتحرير "الأهرام"، وعازبا، حتى وفاته في 13 يناير 1948.

عزيز ميرزا

تسلم رئاسة التحرير خلفا لأنطون الجميل. لكن بالاشتراك مع أحمد الصاوي محمد. بدأ حياته المهنية الإعلامية في بلاط الملك فؤاد، مكلفا تلخيص ما كتبته الصحافة المصرية وتقديم التقرير للملك. ثم انضم إلى الأهرام محررا للشؤون الاقتصادية. وكان يوقع مقالاته

بالحرفين الأولين من اسمه ع.م. ظل في منصبه كرئيس للتحرير إلى عام 1955، إلى أن خلفه بشارة تقلا الصغير لفترة انتقالية قصيرة، فيما استمر أحمد الصاوي محمد في منصبه، يكتب مقاله الشهير "ما قلّ ودلّ".

وفي 1957 تولى محمد حسنين هيكل رئاسة التحرير منفردا، وقد رفع من شأن "الأهرام" وحولها إلى صحيفة على غرار الصحف العالمية. وحين تسلم منصبه، كانت "الأهرام" بدأت تشيخ، وسيطر الجمود على تحريرها في مقابل منافسة قوية من الصحف الأخرى. بالغت "الأهرام" في اعتماد الرصانة والحياد، وهما مبدآن إيجابيان تأسست عليهما سمعتها الجيدة عبر عقود، لكنها أضحت بلا رأي تقريبا، وبلا روح، فهبط توزيعها ودخلت مرحلة الأزمة المالية. وقد جدد محمد حسنين هيكل شبابها، وأعاد إليها بريقها.

برز عزيز ميرزا في الصحافة مجددا عام 1958 حين تولى رئاسة تحرير جريدة "وطني" الأسبوعية. ويذكر له مقال نشره في إبريل 1960. يومها أصدر وزير التربية كمال الدين حسين قرارا بإلغاء مادة الفلسفة في مناهج المرحلة الثانوية، فكتب عزيز ميرزا مقالا في الصفحة الأولى شدد فيه على أهمية الفكر الفلسفي. وتبع ذلك مقالات للدكاترة زكي نجيب محمود وعثمان أمين ويوسف مراد فألغى الرئيس عبد الناصر قرار الوزير.

توفي عزيز ميرزا في القاهرة في 22 ديسمبر 1969.

نـجـيـب كـنـعـان

من الجنود المجهولين لدى القراء، لكنه معروف جيدا في مكاتب "الأهرام". فهو سكرتير التحرير من 1948 وحتى تقاعده عام 1968. وهو من الرعيل الذي عاصر "الأهرام" في عهد آل تقلا ثم في الحقبة التي أصبحت ملكيتها للدولة، أو للاتحاد القومي.

ولد عام 1906 في بلدة عبيه (جبل لبنان) ورحل إلى القاهرة وهو طفل رضيع مع أبيه الطبيب سعيد كنعان. تلقى علومه في المدرسة البطريركية في القاهرة، ثم في المدرسة المارونية وهجرها إلى الثانوية السعيدية، وفيها نال البكالوريا. ونزولا عند رغبة أبيه، بدأ في دراسة الطب في القصر العيني. لكنه توقف عن الدراسة بعد ثلاث سنوات، إذ اكتشف أن موهبته في الكتابة والأدب. وكان داود بركات صديقا لأبيه فساعده في الانضمام إلى "الأهرام" في عهد جبرائيل تقلا عام 1926 كمترجم، لأنه ملم بثلاث لغات: العربية والفرنسية والإنكليزية. والطريف أن داود بركات ساهم في إغرائه بهجر الطب إلى الصحافة، حين روى له أن مرتب الطبيب الحديث التخرج 12 جنيها في الشهر، بينما بوسعه أن يبدأ العمل في "الأهرام" بـ 15 جنيها إضافة إلى تأمين المواصلات. والخبر الطريف الثاني في حياة نجيب كنعان، أنه قبل دخول المدرسة تواجد في السودان مع أبيه الدكتور

سعيد الذي بحكم عمله كطبيب في الجيش المصري كان يتردد على السودان. وهناك تعلم الطفل نجيب مباديء القراءة العربية على يد محمد السادات، ولم يكن ابنه أنور، الذي أصبح رئيسا للجمهورية، قد ولد بعد.

تدرج نجيب كنعان في "الأهرام" من مترجم لبرقيات وكالات الأنباء إلى محرر، ثم إلى سكرتير التحرير في عهد أنطون الجميل، ثم إلى مدير التحرير. وقد اشتهر بالدقة والأمانة المهنية، لا تفوته شاردة أو واردة فيما ينشر في الجريدة. قائد منظم لفريق المحررين ومراجع بارع للأخبار والمقالات. وكان من المؤمنين بأهمية الصورة، ويحرص على انتقاء الصور المعبّرة. ويروى عنه أنه في يوم 7 مايو 1945، وكان يوم عطلة في مصر بمناسبة "شم النسيم"، سمع في منزله من إذاعة بي بي سي البريطانية أن ألمانيا وقعت وثيقة الاستسلام، ما يعني نهاية الحرب العالمية الثانية، فأسرع إلى الجريدة واستدعى بعض المحررين وعمال المطبعة والتوزيع، وحرص على متابعة الموضوع الصحافي المهم، وعلى انفراد "الأهرام" بنشره في اليوم التالي.

وكانت وفاته في القاهرة في 19 يونيه 1985.

أسعد داغر

سياسي بامتياز مارس الصحافة، ووجد فيها موقعا مناسبا

لهمومه العربية. ولد في تنورين (شمال لبنان) عام 1886، وفي رواية أخرى عام 1888. تلقى علومه الأولى في مدرسة عينطورة، وسافر عام 1904 إلى اسطمبول لدراسة الحقوق، والتقى برفاق في النضال في الخط القومي العربي، منهم رياض الصلح وعبد الكريم الخليل وابراهيم سليم النجار و الفريق عزيز المصري ويوسف العظمة. وحين اعتمد الدستور العثماني عام 1908 استبشر خيرا، لكن حين ارتد السلطان عبد الحميد على الدستور عارض أسعد داغر النزعة الطورانية لدى جمعية "الاتحاد والترقي" ورغبتها في التتريك، فأصبح مضطهدا ففر إلى مصر.

وشارك أسعد مفلح داغر في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس عام 1913. لكنه رفض فيما بعد أن يستبدل بالحكم العثماني للبلاد العربية حكم أوروبي. وحين استقر في القاهرة التي اعتبرها الملاذ، باشر العمل السياسي في إطار الحركة العربية. وكان من المساهمين في تأسيس حزب الاستقلال العربي الذي دعم حكومة الملك فيصل الأول في دمشق عام 1918[12]. وكان من أبرز المشاركين في صياغة

(12) في 30 أيلول 1918 انتهى عصر الحكم العثماني في سوريا ولبنان بعدما دام نحو أربعة قرون. كانت القوات التركية أكملت انسحابها في اليوم السابق. وفي اليوم التالي دخلت القوات البريطانية والقوات العربية التابعة للأمير فيصل الأول دمشق. وأعلن فيصل قيام الحكم العربي. واتخذ المؤتمر السوري المنعقد في عام 1920 قرارا باستقلال سوريا

"الميثاق القومي العربي" الذي أعلن من القدس عام 1931 بعد اجتماع عقد في منزل عوني عبد الهادي، ذلك الميثاق الذي دعا إلى الوحدة العربية ومناهضة الاستعمار.

وقد بدأ أسعد داغر عمله الصحافي في جريدة "المقطم" في القاهرة. وما لبث أن انتقل إلى "الأهرام" التي أصبح محرر الشؤون العربية فيها. وكان هذا موقعه الطبيعي في الصحافة. وكان مكتبه منتدى يلتقي فيه رجالات السياسة العرب، ومنهم عبد الرحمن عزام وأحمد الشقيري. لذلك حين تأسست الجامعة العربية عام 1945 واختير عبد الرحمن عزام أمينا عاما لها، أسند رئاسة دائرة الصحافة في الجامعة إلى أسعد داغر. وظل في منصبه هذا إلى حين استقالته. وفي أرشيف الجامعة العربية بتاريخ 30 يونيه 1954: "أحيط المجلس علما باستقالة السيد أسعد داغر من وظيفة مدير إدارة النشر والاستعلام بالأمانة العامة، مؤثرا التفرغ للعمل الصحافي. وقد أبدى المجلس أسفه لذلك، وعبّر عن شكره للخدمات الجليلة التي أداها للجامعة وقضية العروبة. وقرر المجلس رفع المكافأة المستحقة لسيادته وقدرها 1090 جنيها

= وتنصيب فيصل ملكا عليها. أرسل الفرنسيون إنذارا إلى حكومة فيصل، تلاه زحف الجيش الفرنسي باتجاه دمشق بقيادة الجنرال غورو. وفي 24 تموز 1920 سقط آخر خطوط الدفاع العربية في ميسلون واستشهد وزير الدفاع يوسف العظمة. وفي اليوم التالي أحكمت القوات الفرنسية السيطرة على دمشق ثم سوريا، وبدأ عهد الانتداب الفرنسي في البلاد.

و917 مليما إلى 2000 جنيه تصرف من الاحتياطي العام".
وكان أسعد داغر أنشأ عام 1953 بالاشتراك مع الصحافي الفلسطيني إبراهيم الشنطي جريدة "القاهرة" يومية مسائية، ظلت تصدر حتى وفاته في 27 نوفمبر 1958.

نشر أسعد داغر عددا من المؤلفات أولها "ثورة العرب، مقدماتها أسبابها ونتائجها" لم يوقعه باسمه بل (أحد أعضاء الجمعية العربية) و"حضارة العرب" و"مذكرات غليوم الثاني" وكتاب "مذكراتي على هامش القضية العربية".

"الأهرام" في الميزان

يقول المثل الفرنسي "الأسلوب هو الإنسان" أي أنه صورة معبرة عنه. و"الأهرام" منذ تأسيسها وحتى تأميمها، كانت صورة مطابقة لناشريها، آل تقلا. في محتواها، تنسجم مع المواقف السياسية والظروف الخاصة بأصحابها، وفي أسلوبها تعكس نهجهم في التعامل مع مهنة الصحافة ومع المجتمع.

سليم تقلا، المؤسس، (ومثله أخوه وشريكه بشارة) لبناني وفد على مصر في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. ولكي يحصل على ترخيص لإصدار صحيفة في بلد غير بلده، كان لا بد من رضا الخديوي (إسماعيل) حاكم مصر. وهو يدرك منذ البداية أنه لن يثير غضب الخديوي. كما أنه

يعي أيضاً، أن مصر تتمتع بالحكم الذاتي، لكنها في الوقت نفسه لا تتحدى الباب العالي العثماني، المرجع أوان الفصل. وعلى هذا الأساس بنى سياسة الصحيفة الجديدة: مؤيدة للخديوي والسلطان العثماني. ولعل الأخوين تقلا تذكرا المثل الشعبي اللبناني "الغريب أديب" (يعني: مؤدب) فتجنبا الخوض في الخلافات المصرية المحلية. ولذلك كانت مساحة السياسة الخارجية أكبر في صفحات "الأهرام" بما لا يخالف مواقف الخديوي والباب العالي. أما الأخبار المحلية فهى تجارية في معظمها، أو إدارية، أو اجتماعية عامة.

ثم دخل عنصر ثالث، خارجي، هو العنصر الفرنسي. وجاء دخوله متوافقا مع أسباب شخصية وعامة. أما السبب الشخصي، فولد عندما أمر الخديوي إسماعيل بسجن سليم تقلا (1879). وبمسعى من القنصل الفرنسي خرج من السجن بعد ثلاثة أيام. وكان قانون حماية الأجانب ساري المفعول في مصر آنذاك، فتجنس الأخوان تقلا بالجنسية الفرنسية وأصبحا يتمتعان بالحماية الفرنسية. وأما السبب العام، فمرده إلى أن فرنسا كانت آنذاك على وفاق مع الدولة العثمانية ومع خديوي مصر أيضاً. بل إن هذا التحالف سيقوى بعد دخول العامل البريطاني واحتلال بريطانيا لمصر. وسيحقق للأخوين تقلا انسجاما ذاتيا، إذ بوسعهما إرضاء الباب العالي وفرنسا، وفي الآن ذاته إرضاء الرأي العام المصري المناهض للاحتلال البريطاني.

والمرة الوحيدة التي استفزت فيها "الأهرام" الرأي العام المصري وحصدت نقمته العارمة، كانت إبان الثورة العرابية[13]. انحازت تماما للخديوي توفيق ضد أحمد عرابي ورفاقه، بل واستخدمت في وصفهم عبارات خارجة عن تقاليدها "المهذبة" من وزن "العاصي عرابي ورفاقه البغاة" فكلفها ذلك غضب الشعب واقتحام مكتبها ومطبعتها في الإسكندرية وتحطيمهما وإحراقهما، ما أدى إلى فرار صاحبيها. بعد ذلك تجنبت "الأهرام" الصدام مع الرأي العام المصري.

على أن مراعاة "الأهرام" لخواطر الخديوي، لم يحل دون إقدام السلطة على "تأديب" الصحيفة غير مرة. كان عمر "الأهرام" سنة ونيف عندما تلقت أول إنذار في 6 ديسمبر

---

(13) أحمد عرابي (1831 ـ 1911) تخرج في الأزهر، ثم التحق بالجيش المصري جنديا عام 1854. ثم تدرج إلى أن بلغ رتبة اللواء. عُيّن ناظرا للحربية (وزيرا للدفاع) في حكومة محمود سامي البارودي عام 1882. وما لبث أن تزعم ثورة الجيش ضد تفاقم النفوذ الأجنبي في مصر، وكانت له مواجهة تاريخية شهيرة مع الخديوي توفيق أمام سراي عابدين. بعدها أقدمت بريطانيا على احتلال مصر، فقاد عرابي الجيش ضد قوات الاحتلال. وبالرغم من نجاحه في البداية، إلا أن فارق العدد والعتاد وخيانة بعض الضباط أدت إلى فشل الثورة العرابية. حكم المجلس العسكري على عرابي بالإعدام، ثم خفف الحكم إلى النفي إلى جزيرة سيلان (سيريلنكا). وفي 1901 عاد إلى مصر بعد 19 سنة في المنفى.

1876 من ناظر الحقانية (وزير العدل) لأنه "تجاوز الحدود المعطية له في الأمور السياسية الغير جايز تداخله فيها، فضلا عن ذلك فإنه تشبث بطبع جرنال تلحيق بالجرنال بدون إذن". (أي ملحق بالجريدة). وتلقى إنذارا آخر في ديسمبر 1881 من الشيخ محمد عبده (!) الذي عُيـّن آنذاك رقيبا بعد صدور قانون المطبوعات، فكتب في "الوقائع المصرية" (الجريدة الرسمية) مهددا "الأهرام": "لا يخفى على أحد، خصوصا محرري الصحف، أن المطابع والمطبوعات ليست إلا من الأمور التكميلية التي يجوز للحكومة أن تبيح وجودها في البلاد ويجوز لها أن لا تبيحه". ومثل هذه الموقف الذي اعتبر الصحافة من الكماليات وحريتها مكرمة تجود بها السلطة إذا شاءت، غريب على طباع الشيخ محمد عبده (المناضل الذي عانى هو الآخر من قمع السلطة) كما الموقف الذي اتخذه الثائر أحمد عرابي عندما أصبح وزيرا في حكومة محمود سامي البارودي (4 فبراير 1882) فلم يلجأ إلى إلغاء قانون المطبوعات الذي شكا هو منه، بل سخره لصالحه، وعطـّل بموجبه بعض الصحف، ومنها "الأهرام".

ولم تكن "الأهرام" وحدها المعارضة لثورة عرابي. إذ اشترى الخديوي توفيق بعض الأقلام ومنها حمزة فتح الله الذي شنّ حملة على عرابي في جريدة "الاعتدال" مدينا

حركته بحجة "إن الله نهانا أن نلقي بأيدينا إلى التهلكة". وبناء عليه، فإن عرابي "جاهل، خاطَرَ بدماء المسلمين وأعراضهم وبلادهم".

وإلى الصحف المؤيدة للبريطانيين مثل "المقطم" وسواها، نجحت لندن في استمالة بعض الأقلام المصرية الوطنية لفترة ما، ومنها الشيخ علي يوسف صاحب "المؤيد"، خصوصا بعد زيارته للعاصمة البريطانية عام 1903، فكتب موضحا أن خطته "تنحصر في أن نعمل مع الإنكليز لترقية بلادنا على قاعدتين أساسيتين: الأولى، إيجاد قوة نيابية في مصر تساعد حكومتها على أداء وظيفتها، والثانية: السعي في تعميم التعليم وجعله وطنيا". وإزاء حادثة دنشواي (1906)[14] ساوت "المؤيد" في البداية بين الفلاحين والضباط الإنكليز في المسؤولية، ونادت بحصر الحادث بين المشتركين فيه وحدهم. لكن "المؤيد" ما لبثت

---

(14) في 13 يونيه 1906 وفد إلى قرية دنشواي (محافظة المنوفية ـ دلتا مصر) خمسة ضباط إنكليز بقصد صيد الحمام. أصاب رصاصهم بعض الفلاحين مما أثار الأهالي فهاجموا الضباط. أصيب بعض هؤلاء ومات أحدهم. أنشأ البريطانيون محكمة خاصة لمعاقبة الأهالي قضت بإعدام اربعة من المصريين، وسجن وجلد ثمانية آخرين. نفذ الإعدام شنقا في ساحة دنشواي، وكذلك تم تنفيذ عقوبة الجلد. أثارت هذه العقوبات الجائرة الرأي العام المصري لفترة طويلة.

أن انضمت مجددا إلى الصف الوطني وكانت من أشرس الصحف في معارضة الاحتلال البريطاني.

وإذا كانت "الأهرام" تعرضت لنقمة الرأي العام بسبب موقفها من ثورة عرابي، فهي نعمت بالتأييد الحار غير مرة، بسبب مواقفها أيضاً. ففي عام 1884 عقد مؤتمر في لندن لدراسة الأزمة المالية في مصر ومشكلة الديون، فسافر بشارة تقلا إلى العاصمة البريطانية ولم يكتفِ بدور الصحافي المراسل، بل لعب دور مدير "العلاقات العامة" لصالح مصر، واجتمع بالساسة والسفراء ورجال الإعلام بقصد الدعاية للموقف المصري، ولم يفته أن يبرز موقف فرنسا المتعاطف مع مصر. وأثار دوره حفيظة الحكومة البريطانية وسفارتها في القاهرة. لكنه في الوقت نفسه كسب عطفا في الشارع المصري. فزارت لجنة من أعيان الإسكندرية مقر "الأهرام" معلنة تأييدها. وفي 19 أغسطس 1884 أصدر رئيس الحكومة نوبار قرارا بتعطيل "الأهرام" لمدة شهر. ومرة أخرى، تدخل القنصل الفرنسي لصالح الصحيفة، فعادت تصدر من جديد.

وحين ساندت "الأهرام" ثورة 1919[15] اتجهت مواكب

---

(15) في نوفمبر 1918 طلب وفد من زعماء مصر برئاسة سعد زغلول (1860 ـ 1927) مقابلة المندوب السامي البريطاني للسماح لهم بعرض قضية مصر على مؤتمر فرساي. انتهت المقابلة بالفشل. وفي 8 مارس 1919

مظاهرة 17 مارس إلى دار "الأهرام" معربة عن تقديرها، وزاد إقبال القراء على الصحيفة، فارتفع توزيعها إلى 25 ألف نسخة في اليوم، وكان رقما قياسيا آنذاك.

والواقع أن "الأهرام" بعد الحرب العالمية الأولى، وانهيار الدولة العثمانية الكبرى، انحصر دعمها الخارجي في فرنسا، بما يتلاءم مع القضايا الوطنية المصرية. ومع بروز دور المجلس النيابي والأحزاب ظلت محايدة بين مختلف التيارات المحلية. وحين نشر داود بركات حديثا مطولا مع سعد زغلول

= اعتقل سعد زغلول ورفيقاه علي شعراوي وعبد العزيز فهمي وتم نفيهم إلى مالطا. اندلعت في القاهرة ثورة شعبية عارمة عرفت بثورة 1919. شارك فيها قطاعات واسعة من الشعب من مختلف الفئات الاجتماعية، ورجال الدين المسلمين والمسيحيين، وامتدت إلى سائر المدن المصرية. ثم تولى عدلي يكن، منافس سعد زغلول المفاوضات مع البريطانيين. واعتقل سعد زغلول مجددا مع رفاقه في سبتمبر 1921، وتم نفيهم إلى جزيرة سيشل. ثم نقل سعد زغلول إلى جبل طارق وأطلق سراحه في 4 إبريل 1923. وكرسه الشعب المصري زعيما كبيرا، وفاز الحزب الذي أنشأه "حزب الوفد" في الانتخابات النيابية، وأصبح الحزب الأكبر في مصر. تولى سعد زغلول رئاسة الحكومة ورئاسة المجلس النيابي. وبعد وفاته خلفه مصطفى النحاس في رئاسة الحزب، الذي ظل محتفظا بقاعدته الجماهيرية الكبيرة. إلى أن أقدمت ثورة 32 يوليو 1952، على حل الأحزاب عام 1953. وفي عهد الرئيس أنور السادات سمح لحزب الوفد بمعاودة النشاط السياسي. لم يتمكن من استعادة القاعدة الجماهيرية العريضة، وإن أثبت وجودا ما في الساحة السياسية. لكن الانقسامات الداخلية أنهكت الحزب.

عام 1921 أعلن فيه خلافه مع الحكومة (عدد 23 إبريل) نشرت بعد يومين حديثا آخر مع خصمه عدلي يكن، عملا بمبدأ الرأي والرأي الآخر. وحين تأسس "الحزب الاشتراكي المصري" في أغسطس 1921 فتحت "الأهرام" صفحاتها للمؤيدين والمعارضين. وعندما قمعت حكومة الوفد الحركة الشيوعية في ربيع 1924، كتبت "الأهرام" المحافظة تقول: "إذا كان واجب الحكومة الأول القضاء على الحركة المهددة لنظام الدولة وقوانينها، فإن واجبها الثاني أن تهتم اهتماما جديا بتحسين حالة العامل والفلاح، فتصونه من دسائس دعاة الشيوعية. والمعلوم أنه ما دام العمال والفلاحون مهضومي الحقوق، فإن دعوة الشيوعية تجد منهم آذانا صاغية".

أما التعامل الحِرَفي، فكان متميزا منذ البداية. قبل أن يصدر العدد الأول من "الأهرام" أنتج الأخوان تقلا ما أسمياه "مثال الأهرام" أو ما يطلق عليه بلغة عصرنا "العدد صفر" أو العدد التجريبي. وفي عرضي لسيَر رؤساء التحرير أشرت إلى ما قدموه للمهنة. وتبقى الإشارة إلى اللغة المعتدلة، إذ لم تكن "الأهرام" يوما جريدة إثارة. ومنذ البداية كان هناك نظام التدقيق في محتوى الخبر وصياغته، خصوصا ما يأتي من "المكاتبين" (أى المراسلين). وكان الإخراج الصحافي رصينا منسجما مع وقار الجريدة. وكان الحياد، قدر الإمكان، سلاحا ذا حدين. من جهة أسبغ على

الصحيفة صفة الموضوعية ووهبها مصداقية جعلتها مرجعا محترما، ومن جهة أخرى، أصابها بشيء من الترهل، خصوصا وأن القراء يرغبون في قراءة الرأي الحاسم إزاء قضايا بعينها.

دار الـهـلال

هى حاليا إحدى كبرى دور النشر الصحفية في العالم العربي. وبعد "الأهرام" هى الأقدم، التي ما زالت مستمرة، وإن كانت بمرور السنوات توسعت كثيرا، وأصبحت تملك أرشيفا من المعلومات والصور، لا نظير له في الشرق الأوسط. لكن حجر الأساس وضعه جرجي زيدان في القاهرة عام 1892، حين أصدر أول مطبوعات الدار: مجلة "الهلال".

جـرجـي زيـدان

العصامي الفذ الذي عاش 53 سنة، أنتج فيها الكثير الكثير. ابن حبيب زيدان مطر الذي هجر قريته (عين عنوب ـ جبل لبنان) واستقر في بيروت. وكان أميـّا، افتتح مطعما في ساحة البرج. ولد جرجي زيدان في بيروت عام 1861، ولم يكن يعرف في أي يوم وأي شهر. لكنه استنتج من رواية لأبيه أن مولده كان يوم 14 كانون الأول. إذ تذكر أبوه أن السفن البريطانية الراسية في ساحل بيروت أطلقت قذائف الحداد على موت "ملك الإنكليز"، وكان يقصد الأمير ألبرت.

وفي هذا الجو الذي يحف به الفقر والأمية، ولد الذي أصبح مثقفا، كاتبا ومؤرخا. وأتيحت له وهو طفل فرصة محدودة للتعلم في مدارس بيروت. واضطر وهو في سن المراهقة إلى العمل كصانع أحذية أو بائع خبز ليساعد الأسرة. لكنه كان شغف بالقراءة وبالعلم. درس اللغة الإنكليزية في مدرسة ليلية. وانتظم في جمعية "شمس البرّ" الأدبية فزادت معارفه. وفي 1881 صمم على ترك عمله وطلب العلم فالتحق بالكلية السورية الإنجيلية(16) (الجامعة الأمريكية فيما بعد) وبدأ دراسة الطب فيها. وبعد سنتين كان نال إجازة في الصيدلة. وقرر الرحيل إلى مصر لمواصلة دراسة الطب في القصر العيني الشهير.

وفد إلى القاهرة في أكتوبر 1883. لكن الصحافة استهوته، فعمل محررا لجريدة "الزمان" وكان يصدرها أرمني يدعى ألكسان صرافيان. ثم التحق بالجيش البريطاني مترجما، وسافر في "الحملة النيلية" التي انطلقت إلى السودان لإنقاذ جوردون من محاصرة رجال المهدي له. وبعد عشرة أشهر عاد إلى بيروت، وانضم إلى المجمع العلمي الشرقي. ودرس

---

(16) في 1862 قررت الإرسالية الأميركية البروتستانتية إنشاء "الكلية السورية الإنجيلية" في بيروت. وفتحت أبوابها عام 1866. ثم توسعت إلى أن أصبحت اعتبارا من 18 تشرين الثاني 1920 "الجامعة الأميركية" في بيروت. وما زالت إلى اليوم صرحا علميا مهما. تخرج فيها عدد من مشاهير الأدب والسياسة في لبنان والعالم العربي.

اللغتين السريانية والعبرية، وأفاد من ذلك لدى تأليف أول كتاب له "فلسفة اللغة العربية" الذي نشره عام 1886. (نشره لاحقا في طبعة مزيدة ومنقحة عام 1904).

وفي أواسط 1886 استقر نهائيا في القاهرة. وبدأ محررا لمجلة "المقتطف". ثم استقال عام 1888، واشتغل بتدريس اللغة العربية في المدرسة العبيدية الكبرى. وفي 1890 تشارك مع نجيب متري في إنشاء مطبعة ومكتبة. وبعد سنة فضت الشراكة وانفرد نجيب متري بالمكتبة، وهى نواة "دار المعارف". فيما شارك جرجي زيدان أخاه ابراهيم في إنشاء "مكتبة الهلال" في شارع الفجالة. (بعد وفاة جرجي زيدان آلت ملكية المكتبة إلى إبراهيم ثم إلى ورثته).

وفي 1892 أصدر جرجي زيدان العدد الأول من مجلة "الهلال" علمية تاريخية صحية أدبية. وكان يحررها بمفرده، وينشر فيها فصولا من كتبه التي أصدرها تباعا. وإذا نظر المرء إلى كمية هذه الكتب، وإلى أنها أنجزت في 28 سنة، لصدّق ما قيل عن مؤلفها إنه كان يعمل 16 ساعة في اليوم، بين البحث والكتابة.

من أبرز مؤلفات جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، تاريخ التمدن الإسلامي (5 أجزاء) تاريخ العرب قبل الإسلام، تاريخ آداب اللغة العربية (4 أجزاء) تراجم مشاهير الشرق (جزءان) الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، تاريخ

الماسونية العام، أنساب العرب القدماء. كما ألّف 18 رواية في سلسلة "روايات تاريخ الإسلام"، وأربع روايات خارجة عن هذه السلسلة، ومنها "المملوك الشارد" وهى أولى رواياته، كما أنها أول رواية عربية في العصر الحديث، وثاني رواية عربية ترجمت إلى لغة أجنبية، اللغة الألمانية عام 1917. أما أول رواية مترجمة فهي لزيدان نفسه، رواية "العباسية أخت الرشيد" التي نقلت إلى اللغة الفرنسية عام 1912. وقيل الكثير في هذه الروايات والأبحاث التاريخية واللغوية. على أني أود الإشارة أولاً إلى ما اتفق عليه الجميع، أي على غزارة هذا الإنتاج الذي يشي بحب جرجي زيدان لعمله، وعلى أنه بذل جهدا كبيرا في القراءة والبحث. وأيا كانت نوعية رواياته، فمؤلفها احتفظ لنفسه بحق الريادة في هذا المجال. وإذا نظرنا إليها بمقاييس النقد المعاصر، لوجدنا حتما ما يوصف بضعف البناء الروائي وبالإفراط في الاتكاء على الحدث التاريخي على حساب التوظيف الدرامي له، حتى لتبدو الرواية إعادة لسرد الوقائع التاريخية مزوّقة بقصة حب. على أن ذلك ـ برغم صحته ـ حكم متشدد لا يأخذ بعين الاعتبار الفترة التاريخية التي كتبت فيها هذه الروايات. وبرغم ذلك، تبقى لهذه الروايات قيمة إيجابية تتمثل في موهبة مؤلفها في جعلها مشوّقة، حتى بمقاييس العصر الراهن، تغري القاريء بمتابعة الوقائع التاريخية.

استمر جرجي زيدان ينشر مجلة "الهلال" منذ 1892. وحين راجت المجلة نشر فيها مشاهير الشرق مقالاتهم وقصائدهم. كما استمر في مجال نشر الكتب وتوزيعها إلى حين وفاته يوم 21 يوليو 1914.

إمــيــل وشــكــري زيــدان

حين مات جرجي زيدان عام 1914، كانت الدار عبارة عن "مجلة الهلال" والمطبعة الصغيرة والمكتبة. ولدى تأميمها عام 1960، كانت مؤسسة إعلامية عملاقة، هى الأكبر في العالم العربي. والفضل يعود إلى ولدي جرجي: إميل وشكري زيدان، وإلى كوكبة الصحافيين المصريين الذين تولوا رئاسة تحرير منشورات الدار المختلفة. ولم يمتلك إميل وشكري موهبة الكتابة، غير أنهما تميّزا بالإدارة المبتكرة.

كان إميل في الحادية والعشرين من عمره لدى وفاة أبيه. وهو ولد في القاهرة عام 1893. تعلم في مدارس الفرير، وبعدما نال البكالوريا أرسله أبوه إلى الجامعة الأمريكية في بيروت. ولدى تخرجه عاد إلى القاهرة ليساعد أباه، الذي ما لبث أن مات وترك الدار بين يديه. تولى إدارتها وأعان أخاه الأصغر على استكمال الدراسة. وكان شكري زيدان ولد في القاهرة عام 1900 ودرس في مدرسة اليسوعيين في العاصمة المصرية حتى نال البكالوريا عام 1918. وانتقل إلى بيروت

ليدرس الآداب في الجامعة الأمريكية، لكنه اضطر إلى قطع الدراسة بعد سنة والعودة إلى القاهرة ليكون إلى جانب أخيه إميل.

ولم تكن ظروف الحرب العالمية الأولى تسمح بتطوير الدار، لذلك فالقفزة النوعية بدأت في عشرينات القرن العشرين. وبحسّه الإداري المتميـّز، أدرك إميل زيدان أن نمو الدار ونجاحها مرتبط بتطوير صناعتها. فسافر إلى ألمانيا واستقدم أحدث آلات الطباعة بنظام الرونيو عام 1921. وبدأ الأخوان زيدان في إصدار المجلة تلو الأخرى. ولم يدخلا في منافسة مع أصحاب الصحف اليومية، بل كثفا الاهتمام بالمجلات الأسبوعية.

في عام 1924 صدرت مجلة "المصور" سياسية أسبوعية مصورة. (ما زالت تصدر حتى الآن). وفي السنة التالية أصدرا مجلة "كل شيء والدنيا" أسبوعية أدبية اجتماعية منوعة، واستمرت في الصدور حتى 1939. ثم صدرت "الفكاهة" (1926) و"الدنيا المصورة" (1929) و"الأبطال" (1932) وفي 1934 صدرت مجلة "الإثنين" التي تولى مصطفى أمين رئاسة تحريرها، وبلغ بها الأوج إذ كانت تبيع 150 ألف نسخة في الأسبوع، ثم غادرها مصطفى ليؤسس مع أخيه علي أمين صحيفة "أخبار اليوم" التي كانت نواة الدار الصحافية الكبيرة. وفي مطلع 1949 صدر العدد الأول من سلسلة

"روايات الهلال" الشهرية، وفي السنة ذاتها مجلة "الكواكب" فنية أسبوعية تعنى بشؤون السينما والمسرح والغناء والفنون عامة. وفي 1951 بدأ نشر "كتاب الهلال" شهريا، ما أفسح في المجال للعديد من الكتاب المصريين والعرب لنشر إبداعهم. ثم في 1953 صدرت مجلة "حواء" النسائية الأسبوعية المتخصصة وتولّت أمينة السعيد رئاسة تحريرها. وللأطفال مجلة "سمير" التي صدر عددها الأول عام 1956، ومعه صدرت عن دار الهلال النسخة العربية من مجلة ميكي. ومعظم هذه المجلات مستمر في الصدور حتى الآن.

وبعد تأميم دار الهلال، قرر الرئيس جمال عبد الناصر أن يبقى الأخوان زيدان في المؤسسة. وقد عمل شكري زيدان مدة سنة ونيف ثم استقال وسافر إلى بيروت وأقام فيها حتى وفاته. أما إميل، فاستمر في الدار حتى بلوغه سن التقاعد. وظل مقيما بالقاهرة حتى وفاته بها في العشرين من مايو 1982.

وكما أسلفت، كان معظم رؤساء التحرير والمحررين من المصريين. لكن بعض اللبنانيين المقيمين في مصر ساهم أيضاً في التحرير.

حبيب جاماتي

أحد أركان دار الهلال في مجال التحرير. كانت الصحافة مهنته ومعنى حياته. عاش منها ولها. ولد في بلدة ذوق مكايل (جبل لبنان) عام 1887. تلقى علومه في مدرسة عينطورة في لبنان. وأجاد اللغتين العربية والفرنسية. هاجر في مطلع القرن العشرين إلى مصر. وفي 1909 أصدر مجلة "فرعون" وكان يمولها من دخله كمدرس للترجمة في مدرسة المهندسخانة (كلية الهندسة لاحقا). وفي 1915 سافر إلى فرنسا وأقام في مدينة أنجيه ونشر صحيفة عربية "الشهرة". ولم تكن مشروعا ناجحا. فغادر فرنسا إلى بلاد الشام وانضم إلى الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين. وكان معه حين دخل دمشق في نهاية الحرب العالمية الأولى. بعد ذلك رجع إلى القاهرة، وأصدر صحيفة "لبنان الفتى" عام 1918. لكنه لم يكن إداريا ناجحا، فتراكمت الأعباء على الصحيفة حتى اضطر إلى إغلاقها. ومرة رابعة جرب حظه كناشر، حين أصدر بالاشتراك مع جمال الدين عوض صحيفة "الستار" عام 1927. وكان مصيرها كسابقاتها. بعدها كتب حبيب جاماتي في صحف مختلفة باللغتين العربية والفرنسية، ومنها في "روز اليوسف" حيث كان ينشر "ساعة بين المجلات والجرائد".

إلى أن استقر به المقام في دار الهلال. عمل بها محررا، خصوصا في "المصور" وإن كان يمد مجلات الدار

المختلفة بمقالاته. إلى أن أصبح محرر الشؤون العربية في الدار. وكان الرجل المناسب في المكان المناسب. واكب تطور الأحوال السياسية والفكرية في العالم العربي، وكان من الصحافيين القلائل في زمانه، الذين ربطتهم بمعظم الملوك والرؤساء العرب علاقات صداقة، وبعضهم قبل أن يصل إلى سدة الحكم. غير أنه ظل صحافيا محايدا لم ينتم إلى حزب.

وتميز حبيب جاماتي بأسلوب مشوق وبلغة جميلة. وقد نشر سلسلة طويلة بعنوان "تاريخ ما أهمله التاريخ" أضاء فيها على زوايا منسية في التاريخ. كما نشر كتبا، ومنها "أغرب ما رأيت".. "أندلس العرب".. "هندونيسيا".. "إبراهيم في الميدان".. "بين جدران القصور". كما أنه ساهم في الحركة المسرحية عبر ترجمته للعديد من نصوص المسرح العالمي التي قدمتها فرق جورج أبيض ويوسف وهبي وفاطمة رشدي.

كان متزوجا من شقيقة السياسي اللبناني موسى مبارك. ولم تختف لهجته اللبنانية تماما في لهجته المصرية. وظل يعمل في دار الهلال إلى ما بعد سن التقاعد، وإلى ما بعد التأميم. وكانت الدار تواصل إصدار مجلة Images الأسبوعية باللغة الفرنسية، وهي من مبتكرات الأخوين زيدان. وحدث أن توفي رئيس تحريرها جان موسكاتيللي عام 1965، وتوقع حبيب جاماتي أن يخلفه. غير أن الإدارة الجديدة أسندت المنصب إلى إبراهيم عامر، وهو لا يجيد الفرنسية مثل

حبيب. لكنه كان اشتراكيا في ظل الاتحاد الاشتراكي[17]. وعزّ على حبيب جاماتي أنه استبعد. لكن ربما كان ذلك بسبب تقدمه في العمر أيضاً. وبعد ثلاث سنوات، توفي في القاهرة عام 1968.

(17) شاء قدر إبراهيم عامر أن يموت في بيروت في انفجار استهدف جريدة "المحرر" عام 1975، وهو الانفجار الذي أودى بحياة ناشرها ورئيس تحريرها هشام أبو ظهر. وكان إبراهيم عامر يعمل بها آنذاك. وهو لجأ إلى بيروت بعدما أقصى الرئيس أنور السادات العديد من الصحافيين اليساريين عام 1971.

روز اليــوســف

أعطت هذه السيدة اسمها للمجلة ثم للدار الصحافية. وكانت سيرة حياتها ترجمة واقعية لكلمة العصامية. ونجحت في كل مشروع حلمت بتحقيقه، برغم المشقات الجسام، وفي ظروف صعبة، خصوصا بالنسبة إلى سيدة، وإلى سيدة تعمل بمفردها.

قال عنها مصطفى أمين: "أغرب ما في قصة هذه المعجزة أنها، وهى صاحبة أكبر مجلة سياسية في البلاد العربية، لم تكن تعرف كيف تكتب. وكان خطها أشبه بخط طفل صغير. ومع ذلك، كانت قارئة ممتازة وذواقة رائعة للأدب والشعر".

وكتب عنها ابنها الصحافي والروائي إحسان عبد القدوس: "السيدة التي لا تحمل شهادة مدرسية، هى التي أخرجت جيلا كاملا من الكتاب السياسيين ومن الصحافيين. هى التي أرشدت أقلامهم، وهى التي وجّهتهم، وهى التي بثّت الروح فيهم، وهى التي انتقتهم ورشحتهم لمستقبلهم".

وقبل أن تحترف الصحافة، كانت روز اليوسف ممثلة مسرحية شهد لها معاصروها بأنها امتلكت موهبة كبيرة في التمثيل وأطلقوا عليها لقب "ساره برنار الشرق".

اسمها الحقيقي فاطمة محمد محي الدين اليوسف. وهى مولودة في طرابلس (لبنان). والمعلومات عن حياتها في المرحلة التي سبقت احترافها الصحافة متضاربة أحيانا، أو غير موثقة، وبلا ثبت للتواريخ. لذلك، كان عليّ أن أقارن بين الروايات المختلفة، وأن استنتج بعض ما لفّه الغموض، أو أحدد بعض التواريخ. حتى روز اليوسف نفسها، في كتاب "ذكريات" لا تحكي شيئا عن حياتها قبل بداية عملها في المسرح. وحتى في كلامها عن تلك المرحلة لا تذكر تواريخ.

توصلت إلى تصديق رواية سعاد أبيض في كتابها عن أبيها جورج أبيض، أن فاطمة اليوسف ولدت في 15 يناير 1898. ويؤكد إحسان عبد القدوس أنها تيتمت وهى في السابعة من عمرها. ومن إعادة صياغة الروايات المختلفة نعلم أن أباها كان يعمل بالتجارة، وأنه بعد وفاة أمها سافر إلى اسطمبول، وعهد بطفلته إلى الجيران، الذين سهروا على تربيتها، فيما كان الوالد يرسل لهم المال من تركيا. وفي اعتقادي أن الجيران هم الذين أطلقوا عليها اسم روز الذي رافقها طول حياتها. ثم انقطعت اخبار الوالد، فحرمت الطفلة حتى من هذا الوجود الواهي.

وذات يوم، قررت عائلة الجيران الهجرة إلى البرازيل. على أن يصحبوا معهم الفتاة روز. وفي اعتقادي أن ذلك

حدث عام 1912. المهم أن السفينة توقفت في الاسكندرية، فهربت منها روز اليوسف. وفي الإسكندرية آواها اسكندر فرح، وكان صاحب فرقة مسرحية. ثم نعلم أنها ظهرت في القاهرة، وكانت في عمر يناهز الرابعة عشرة، تتردد على المسارح، وتنظر بعيون فضولية إلى العروض، ويبدو أنها في تلك الفترة، هامت بأضواء المسرح وأجوائه وكواليسه، وبهرتها الأزياء والديكورات وحركات الممثلين، وحلمت بأن تصير ممثلة تقف على الخشبة، تؤدي الأدوار ويصفق لها الجمهور. وهى روت في "ذكريات" أن الممثل عمر وصفي ضبطها متسللة إلى الكواليس في مسرح "دار التمثيل العربي" حيث كانت فرقة عكاشة تقدم عروضها، وأنها خافت، وأن الذي أنقذها هو المخرج عزيز عيد الذي هدأ من روعها، ثم تبناها فنيا، وتعهدها بالرعاية والتعليم، وأحضر لها شيخا يعلمها القراءة والكتابة باللغة العربية، فيما عزيز يعلمها الفرنسية. وهذا يعني أن عائلة الجيران في طرابلس لم تهتم بتعليمها، أو أن أفرادها كانوا أميين. ثم حدث أن فرقة عكاشة كانت تستعد لإنتاج مسرحية جديدة، بها ثلاث أدوار نسائية: جدة وأم وإبنة. ورفضت ممثلات الفرقة جميعا أداء دور الجدة. فقرر المخرج عزيز عيد أن يسنده إلى الصبية التي تعرف عليها. وقام بتدريبها، وأشرف على الماكياج، ونجحت في أول دور لها برغم صعوبته. وظلت طول حياتها تعترف بأن عزيز عيد هو أبوها الروحي.

لا تاريخ في كتاب "ذكريات" لهذه الحادثة التي جعلت روز اليوسف ممثلة لأول مرة. لكن فاطمة رشدي في مذكراتها تروي أن روز اليوسف عملت مع عزيز عيد عام 1912. وهذا ما جعلني أميل إلى أنها من مواليد 1898. لأن التي خططت للهرب من السفينة ونفذته فتاة وليست طفلة. ويبدو أنها لم تقم طويلا في الإسكندرية، لأن انبهارها الحقيقي بالمسرح بدأ في القاهرة. لكنها عرفت شيئا عن المسرح من فرقة اسكندر فرح. وكانت هذه الفرق تتجول بين مدن مصر. ويبدو أنها حضرت مع الفرقة إلى القاهرة. وهذا ما جعلني اعتقد أن مجيء روز اليوسف إلى مصر كان عام 1912. وبعد الدور الأول الذي هبط عليها فجأة، لازمت عزيز عيد وعملت معه في مختلف الفرق المسرحية. والأكيد أنها كانت تمتلك موهبة تمثيلية، ما يفسر سرعة تأقلمها مع العمل المسرحي، وإتقانها الأداء، حتى أصبحت في غضون سنوات قليلة نجمة كبيرة.

وقفت روز اليوسف على الخشبة أمام نجيب الريحاني في عدة مسرحيات من لون الفودفيل الهزلية، بإخراج عزيز عيد، ومنها "خللي بالك من إميلي" المقتبسة عن مسرحية لجورج فيدو. وكان أن نجحت في هذا اللون من الأداء الكوميدي فلقبتها الصحافة بـ "الفودفيلية الحسناء". ومع عزيز عيد انتقلت إلى فرقة جورج أبيض عام 1917 تؤدي أدوارا تراجيدية باللغة العربية الفصحى. وكانت تتقاضى أعلى أجر. وحين تألقت في مسرحية "الممثل كين" وصفت بأنها ارتفعت

إلى مستوى ملكات المسرح. ومرة ثانية قاسمت نجيب الريحاني عام 1920 البطولة في لون مسرحي مختلف، في أوبريت "العشرة الطيبة" التي كتب نصها محمد تيمور ونظم أغانيها بديع خيري ووضع ألحانها سيد درويش وأخرجها عزيز عيد. وأثبتت وهى الصغيرة وسط هؤلاء الكبار، أنها صغيرة بالعمر فقط. وحين أسس يوسف وهبي مسرح رمسيس عام 1923، انضمت روز اليوسف إلى الفرقة، وتألقت في لون آخر من الأداء المسرحي، خصوصا وهى تمثل دور الصبي دافيد كوبرفيلد، أو تؤدي دور البطولة في مسرحية "غادة الكاميليا".

وفي عام 1925 قدمت وزارة الأشغال، وكانت المسؤولة عن الشؤون الفنية، جوائز تقديرية للممثلات والممثلين، ففازت روز اليوسف بالجائزة الأولى كأفضل "ممثلة دراما". وفي السنة ذاتها أسست مجلة "روز اليوسف" وبدأت احتراف الصحافة. وليس صحيحا، كما جاء في بعض المصادر، أنها اعتزلت التمثيل حين بدأت العمل الصحافي. فهى انتقلت في خريف 1926 إلى فرقة نجيب الريحاني، وقاسمته البطولة في أربع مسرحيات. وانتهى الأمر بينهما بخلاف، إذ كان الريحاني يضحك الجمهور حتى في المواقف المحزنة. وكانت تلك آخر العروض المسرحية، إذ اعتزلت روز اليوسف التمثيل نهائيا وتفرغت للصحافة.

صدر العدد الأول من مجلة "روز اليوسف" في 26

أكتوبر 1925. وبمغامرة من تلك السيدة العصامية. أقنعت بعض الأصدقاء بالفكرة، ومنهم محمد التابعي، الذي كان آنذاك موظفا في مجلس النواب، ومحررا للشؤون الفنية في جريدة "الأهرام". وبرأسمال زهيد، وبتعاون الأصدقاء، وتبرع الكتاب، ومتابعة روز اليوسف للعمل معظم ساعات اليوم، انطلق المشروع. وكانت المجلة في البداية فنية تعنى بشؤون الفن والمسرح بصفة خاصة. ومن كتاب العدد الأول محام شاب، هو الدكتور محمد صلاح الدين، الذي أصبح من أقطاب حزب الوفد ووزيرا للخارجية. ومن كتاب الأعداد الأولى: الشاعر أحمد رامي وحبيب جاماتي ومحمود عزمي. وساهم نجوم الفن والمجتمع وعلى رأسهم أم كلثوم وهدى شعراوي في إقناع القراء بالاشتراك في المجلة. ولم تكن الواردات لتؤمن لصاحبة المجلة ما يكفي لتغطية مصروفات العيش. ومع ذلك ثابرت بعناد.

بل إنها بعد سنة أرادت أن تحولها إلى مجلة سياسية. رفض وزير الداخلية منحها الترخيص. زارت أحمد زيور رئيس الحكومة وأقنعته. وأضحت "روز اليوسف" مجلة سياسية أسبوعية. بها محررون ثابتون، منهم حبيب جاماتي ومحمد التابعي الذي أقنعته روز اليوسف بالكتابة في الشؤون السياسية. وكان أول موضوع كتبته روز اليوسف ريبورتاجا عن محاكمة أحمد ماهر والنقراشي بتهمة قتل السردار.

وتطورت المجلة وكانت تنشر رسوما كاريكاتورية للمخرج

السينمائي حسين فوزي، ثم تعاقدت مع صاروخان الذي أصبح لاحقا من أشهر رسامي الكاريكاتور في مصر. كما لمعت أسماء الشباب الذين بدأوا حياتهم المهنية في روز اليوسف، ومنهم: مصطفى أمين، وأخوه علي، كامل الشناوي وجلال الحمامصي.

وكانت روز اليوسف مجلة مؤيدة لحزب "الوفد". ولأن الوفد لم يحكم في تلك الفترة سوى بضعة أشهر (سنة 1930) كانت المجلة لسان حال المعارضة. ما جعل الحكومات تصادر أعدادها وتمنع تداولها في أحيان كثيرة. ولما بلغت حالة المنع، راحت روز اليوسف تنشر مجلتها عبر امتيازات مجلات أخرى: الرقيب/ صدى الحق/ الشرق الأدنى/ مصر الحرة.. ومرة أصدرت المجلة باسم مجلة "الصرخة" لكن بالحجم نفسه وبالإخراج المشابه للذي كانت تصدر به روز اليوسف.

وبعد عشر سنوات من صدور المجلة، قررت صاحبتها أن تنشرها كجريدة يومية بالاسم ذاته. وحشدت لها أسماء على رأسها الأديب عباس محمود العقاد رئيسا للتحرير، ومعه الدكتور محمود عزمي. إضافة إلى محمد التابعي، والشباب وقد انضم إليهم المخرج المسرحي زكي طليمات والمخرج السينمائي أحمد كامل مرسي. ونجحت الجريدة، لكن مصاريف الإصدار اليومي مرتفعة، إضافة إلى أن الحكومة تصادر العديد من الأعداد فيهبط الإيراد. وهكذا بعد سنة

وبضعة أشهر، توقفت الجريدة اليومية عن الصدور. واستمرت الأسبوعية.

وكان ابنها إحسان عبد القدوس قد تخرج في الجامعة وأمضى فترة تدريب في "آخر ساعة" التي كان يصدرها التابعي بعد ما ترك الدار، فعهدت روز اليوسف إليه برئاسة التحرير عام 1945. واستدعيا إلى المحكمة ذات مرة، وراح كل منهما، الأم والإبن، ينسب لنفسه المسؤولية ليبريء الآخر. وفيما بعد أصبح إحسان عبد القدوس من أبرز أعمدة الصحافة المصرية. وهو جدد دماء المجلة بعناصر من جيله، أصبحت أعلاما أيضاً: أحمد بهاء الدين وفتحي غانم. والمجلة انفردت بنشر تحقيقات صحافية مثيرة حول فضيحة "الأسلحة الفاسدة" التي زود بها الجيش المصري خلال حرب فلسطين عام 1948. وقد ساعدت هذه الحملة الجريئة في تهيئة الرأي العام المصري لقبول التغيير السياسي في البلاد عام 1952.

وفي عام 1956 أصدرت الدار مجلة "صباح الخير" وهى نقدية كاريكاتورية، أصبحت توأم "روز اليوسف" في النجاح. وعلى صفحاتها نشر رسامو الكاريكاتور الشباب، وجلهم أصبح من أعمدة هذا الفن، وعلى رأسهم صلاح جاهين.

وفي 10 إبريل 1958 توفيت روز اليوسف، قريرة العين، إذ تركت صرحا إعلاميا راسخا. ما زالت المجلتان

تصدران عن الدار، إضافة إلى منشورات دورية أخرى. وكانت المؤسسة خضعت هى الأخرى للتأميم عام 1960.

وكانت روز اليوسف في حياتها تزوجت ثلاث مرات: من الممثل المسرحي محمد عبد القدوس (والد إحسان) ومن زكي طليمات، ومن المحامي قاسم أمين، الذي يحمل اسم جده الأديب المعروف.

المقتطف.. والمقطم

كانوا ثلاثة لبنانيين، نشروا في القاهرة جريدة "المقطم" اليومية: فارس نمر ويعقوب صرّوف وشاهين مكاريوس. صدر العدد الأول منها في 14 فبراير 1889. وصدر العدد الأخير منها في 11 نوفمبر 1952.

وكان اثنان منهم: نمر وصروف، نشرا من قبل مجلة "المقتطف" في بيروت. وحملاها معهما حين جاءا إلى مصر في أواخر القرن التاسع عشر. وهى توقفت عن الصدور أيضاً.

فارس نمر

ولد في حاصبيا (جنوب لبنان) في 6 كانون الثاني 1856. وكان في الرابعة من عمره حين قتل أبوه في الحرب الأهلية عام 1860. وبعد توقف في بلدة مجدل شمس سار مع أمه وأخيه على الأقدام إلى مدينة صيدا. ونشأ في ظروف معيشة قاسية. وانتقل مع أمه إلى القدس حيث عملت هى خادمة، أما هو فالتحق بالمدرسة الإنكليزية التي اشتهرت باسم "مدرسة المطران". وفيها تعلم اللغتين الإنكليزية والألمانية إلى جانب العربية. وكان تلميذا متفوقا في اللغات

وفي الحساب والجبر. ثم عادت الأسرة إلى بيروت 1868، والتحق فارس نمر بمدرسة عبيه البروتستانتية. لكنه لم يكمل الدراسة فيها، فاشتغل في محل تجاري. وكان يراوده حلم الدراسة في الكلية السورية الإنجيلية وتحقق له ذلك، كونه كان يتقن اللغة الإنكليزية. وتخرج فيها عام 1874 حاملا شهادة البكالوريوس وكان أول دفعته، ما جعل الدكتور كورنيليوس فان دايك يختاره مساعدا له في المرصد الفلكي في بيروت، ومدرسا لمادة الجبر في الكلية. وكان إلى ذلك يدرّس اللغة الإنكليزية في المدرسة البطريركية في بيروت. وفي 1875 ترجم كتاب "الظواهر الجوية" لأدوين لويس، أستاذ العلوم بالكلية.

وفي 1876 أصدر مجلة "المقتطف" بالاشتراك مع يعقوب صروف الذي كان سبقه في التخرج في الكلية ذاتها. ونالت المجلة تشجيع أساتذة الكلية. وفي 1883 خلف فارس نمر أستاذه فان دايك في إدارة المرصد الفلكي.

لكن شهر العسل الذي دام سنوات مع الكلية انقطع، بسبب ما نشرته مجلة "المقتطف" عن داروين ونظريته في أصل الأنواع، وكانت الكلية خاضعة لإدارة بروتستانتية، فاعتبرت نشر مثل هذه الأفكار هرطقة ودعوة إلى الإلحاد، وتم طردهما من العمل في الكلية. فقرر الثنائي الهجرة. وانتقلا إلى القاهرة في فبراير 1885 .

ولا اعتقد بصحة ما ذكر في بعض المصادر من أنهما

كانا ينويان الهجرة إلى الولايات المتحدة، وأن دعوة من الحكومة المصرية جعلتهما يتوجهان إلى القاهرة. وأنا أعتقد أن فارس نمر ويعقوب صروف فكـرّا أساسا في مصر التي كانت خضعت للاحتلال البريطاني منذ 1882. وهما أقرب إلى الإنكليز من سواهم. وشجعهم أيضاً أن الذين سبقوهما إلى أرض الكنانة مثل الأخوين تقلا وجرجي زيدان قد وفقوا في مشاريعهم الصحافية. وفي مصر مطابع عربية وقراء لا يتوفر مثلهم في أميركا، ومنهم كبار المسؤولين وبعضهم لديه اشتراك في "المقتطف". ويبدو أنهما جسـّا النبض ولقيا الترحيب والتشجيع اللازمين. ويؤكد ذلك ما نشرته مجلة "المصور" لدى نعي فارس نمر، إذ استرجعت تاريخه المهني في كلمة الرثاء، وأوردت مقطعا من الخطاب الذي تلقاه فارس نمر ويعقوب صروف من مصطفى رياض رئيس الحكومة المصرية وفيه: "أخبرت أنكم عزمتم على نقل جريدتكم الغراء إلى الديار المصرية، فسرّني ذلك لما تحويه من الفوائد الجليلة. ولقد اغتنمت الفرصة لأبدي نصيحتي لأبناء هذا القطر بمطالعتها واجتناء فوائدها". وروى أحمد شفيق الذي كان في البلاط الخديوي أن الناشرين اللبنانيين لقيا استقبالا حارا في مصر.

صدر العدد الأول من "المقتطف" في مصر بعد شهر من وصول نمر وصروف إلى القاهرة، في 10 مارس 1885. وكانت المجلة في عامها التاسع.

وحدث ان انضم إلى الثنائي شاهين مكاريوس، الذي كان استقر في مصر قبلهما بنحو شهرين. وحين صدرت "المقطم" جريدة يومية، تولى فارس نمر الإشراف عليها، وتفرغ يعقوب صروف لإدارة "المقتطف" وتحريره.

واستمر فارس نمر يعمل في الصحافة إلى آخر حياته التي امتدت إلى ديسمبر 1951 فيما سبقه رفيقاه إلى الدار الآخرة، فظل يشرف على منشورات الدار. وقد انتخب مع أحمد لطفي السيد وكيلين لنقابة الصحافة التي أنشأت عام 1912. كما كان من أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية منذ نشأته، وعضوا بالمجمع العلمي منذ نشأته أيضاً، ثم أسندت إليه رئاسته. وتم تعيين فارس نمر عضوا بمجلس الشيوخ المصري. ونال رتبة الباشا. وكان من كبار ملاكي الأراضي الزراعية في الوجه البحري. وظل محافظا، متقشفا في حياته، كأن ذاكرته ظلت محتفظة بصور البؤس في أيام الطفولة.

يعقوب صروف

ولد في بلدة الحدث القريبة من بيروت في 18 تموز 1852. درس في الكلية السورية الإنجيلية وتخرج فيها عام 1870. فاشتغل مدرسا اللغة العربية في صيدا ، ثم رئس المدرسة التي أنشأها المرسلون الأميركيون في طرابلس، إلى

أن استدعته الكلية السورية عام 1873 لتدريس مادة الفيزياء. وكان وجوده في هذا الموقع نقطة تحول في حياته. فلكي ينجح في التدريس الجامعي طالع الكثير من الكتب العلمية، وهو ما سيفيده في عمله الصحافي لاحقا. كما أنه بعد سنة تعّرف على خريج جديد من الجامعة الأميركية يدعى فارس نمر، سيصبح صديقه الحميم وشريكه الأساسي في العمل الصحافي. بدأت الشراكة عام 1876 عندما فكـّر صروف ونمر في إصدار مجلة علمية تشرح الموضوعات بلغة عربية سليمة وصافية. وفيما هو يدرّس في الجامعة ألّف يعقوب صروف كتابا في الكيمياء، وترجم بعض الكتب الأدبية ومنها: "سر النجاح" و"الحرب المقدسة". ومع فارس نمر ترجم "سير الأبطال والعظماء" و"مشاهير العلماء". وفي 1882 كان له الفضل في تأسيس "المجمع العلمي الشرقي" الذي ضم إليه فارس نمر وجرجي زيدان والدكتور فان دايك وبشارة زلزل.

وحين وقع الخلاف مع إدارة الكلية بسبب "المقتطف"، سافر مع فارس نمر إلى القاهرة. وحين بدأ نشر "المقتطف" في مصر كان على غلافها أنها "جريدة علمية صناعية. تصدر أول كل شهر. قيمة الإشتراك جنيه استرليني واحد في السنة". ثم صدرت جريدة "المقطم": يومية سياسية تجارية أدبية، فتفرغ صروف لرئاسة تحرير "المقتطف" وكان يحرر الكثير من مقالاتها.

وكان أستاذا في مهنته. يكتب في مواضيع العلوم كما يكتب في مجال ما يُعرف بالعلوم الإنسانية (الأدب والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع). ولكل مقام مقال. للعلوم لغة وللآداب لغة أخرى. في المقالات الأدبية يلعب السجع دورا والاستعارة بأشعار من التراث، وفي المقالات العلمية أسلوب يعتمد الدقة ويتعمد التبسيط ليجعل المعلومات في متناول القاريء. وكان يقرأ كثيرا في المجالين، كما في الثقافتين العربية والأجنبية، ما سمح له أيضاً بالكتابة في الأدب المقارن، كالمقابلة بين ديوان المعرّي (سقط الزند) وديوان ملتن الإنكليزي (الفردوس المفقود) أو بين "مقدمة إبن خلدون" وكتابات هربرت سبنسر في "علم الاجتماع الإنساني". كما تميّز يعقوب صروف بقدرة فائقة على تلخيص كتاب ضخم في صفحات قليلة.

ولم يكن صحافيا فحسب، بل مؤلفا أيضاً، خصوصا في مجال العلوم. كتب "بسائط علم الفلك وصور السماء" و "رسائل الأرواح" و"فصول في التاريخ الطبيعي من مملكتي الحيوان والنبات" و"العلم والعمران". كما ألف روايات تاريخية منها "فتاة مصر" و"فتاة الفيوم".

في 1890 نال لقب دكتور في الفلسفة من جامعة نيويورك. واستمر في عمله الصحافي حتى وفاته بالقاهرة عام 1927.

شاهين مكاريوس

ولد في قرية إبل السقي (جنوب لبنان) في 20 آذار 1853. تعلم في مدرسة القرية. ذهب إلى بيروت ليعمل في مطبعة يملكها عمه. وتعلم حرفة الطباعة حتى أتقنها، فانتقل للعمل في مطبعة الكلية السورية الإنجيلية وتعرف على الأساتذة الأمريكيين وعلى فارس نمر ويعقوب صروف.

انتمى مبكرا إلى المحافل الماسونية، بدءا من عام 1874. وتدرج في المحافل المختلفة في بيروت ثم في القاهرة التي سافر إليها في ديسمبر1884. وبلغ رتبة رئيس محفل. واتصل بالمحافل الماسونية الدولية، وكان يحظى بتقديرها.

وفي مصر انضم إلى الثنائي نمر وصروف وشاركهما في "المقتطف" ثم في "المقطم". وتولىّ الشؤون الإدارية، وخصوصا المطبعة. وفي 1886 أصدر منفردا مجلة "اللطائف" وكانت أول المنشورات باللغة العربية التي تكتب عن الماسونية بصراحة وحرية. لكنه ظل يعمل مع شريكيه أيضاً. وحين أصدر الشركاء جريدة "السودان" عام 1903، أشرف فارس نمر من الخرطوم على إصدارها، ثم عهد إلى شاهين مكاريوس بإدارتها. وحين عاد شاهين إلى القاهرة، خلفه خليل ثابت. وظل شاهين مكاريوس في عمله مع شريكيه، إلى أن توفي بالقاهرة في 14 يونيه 1910. وكان

خليل ثابت تزوج عام 1902 من إيميه ابنة شاهين مكاريوس، فخلفه كشريك ثالث لنمر وصروف.

فـؤاد صـروف

ابن حنا صروف شقيق يعقوب. ولد في الحدث في 20 كانون الأول 1900. وتخرج في الكلية السورية الإنجيلية في بيروت عام 1918 بشهادة البكالوريوس في العلوم. اشتغل أربع سنوات بالتدريس في لبنان، إلى أن استدعاه عمه يعقوب إلى القاهرة عام 1922، ليعاونه في تحرير مجلة "المقتطف". ثم تولّى بعد وفاة عمه رئاسة تحريرها. وكان شغوفا بالعلوم ويملك موهبة متألقة في صياغة المواضيع العلمية باللغة العربية. وإلى جانب عمله الصحافي، نشر العديد من الكتب العلمية المهمة، ومنها "فتوحات العلم الحديث".. "الفتح مستمر".. "آفاق لا تحد".. "أوراق علمية".. ولم يكن مهتما بالسياسة مثل عمه وشركائه. بل تفرغ للعلوم ولنشرها باللغة العربية، فاستحق تقدير المراجع العلمية في العالم العربي.

استمر في تحرير "المقتطف" حتى عام 1946، فانقطع عنه ليصدر مجلة "المختار" في القاهرة لأربع سنوات. ثم عاد إلى قواعده في "المقتطف" سنتين، إلى حين إغلاقها عام 1952. وبعدما أقام في القاهرة ثلاثين سنة، عاد إلى بيروت حيث تسلم منصب نائب رئيس الجامعة الأميركية. كما

عين في اللجنة الوطنية اللبنانية للأونيسكو، ثم أصبح الرئيس التنفيذي للأونيسكو عام 1974.

وكان عضوا في لجنة مهرجانات بعلبك الدولية في لبنان. وهو والد الممثلة المسرحية المقيمة في لندن فاليري صروف، والتي عملت مع مسرح "أولد فيك" العريق. وظل فؤاد صروف قيمة علمية محترمة، حتى وفاته عام 1985.

كـريـم ثـابـت

ولد في القاهرة عام 1903. أبوه خليل ثابت من بلدة دير القمر في لبنان (1870)، وأمه ابنة شاهين مكاريوس. درس خليل ثابت في الكلية السورية الإنجيلية في بيروت وتخرج فيها عام 1892 مجازا في الآداب. كان يتقن ثلاث لغات: العربية والإنكليزية والفرنسية. اشتغل بالتدريس في الكلية السورية الإنجيلية وكان زميله فارس الخوري (من زعماء سوريا لاحقا). هاجر إلى مصر واشتغل في الصحافة مع أصحاب المقتطف والمقطم. كما اشتغل بالسياسة، وتم تعيينه في مجلس الشيوخ المصري. ونال رتبة البكوية.

أراد كريم ثابت أن يقلد أباه وأن يكون ذا شأن في مجاليْ الصحافة والسياسة. لكن الشبه كان سطحيا. الشيء الوحيد المتطابق هو احتراف الصحافة والسياسة، وإتقان اللغات الثلاث. فهو لم يكمل تعليمه. درس في مدرسة

الجيزويت في القاهرة ونال شهادة البكالوريا. ثم انخرط في العمل الصحافي وكان المجال رحبا أمامه. اشتغل في عدة صحف ومنها جريدة "السياسة" لصاحبها محمد حسين هيكل، وأصدر بمفرده جريدة "العالم" عام 1926 (وكان في الثالثة والعشرين) لكنها لم تعمر طويلا. واشترك مع محمد التابعي ومحمود أبو الفتح في إصدار جريدة "المصري" التي آلت إلى أبو الفتح بمفرده، فعاد كريم ثابت إلى "المقطم" التي كان أبوه أصبح يصدرها مع فارس نمر.

وفي الحياة الاجتماعية اختلف عن أبيه الميال إلى التواضع والهدوء، فكان كريم يحب البذخ والشهرة والأضواء. لذلك استهوته صحافة الإثارة. وقد روى عنه الصحافي المصري وديع فلسطين، الذي عمل معه في "المقطم" وعرفه عن كثب، أنه أجرى مقابلة مع شارلي شابلن وهو يمتطي الجمل عند سفح الأهرام. وحين علم كريم ثابت أن السفينة التي تقلّ المهاتما غاندي ستعبر قناة السويس، سافر إلى بورسعيد وصعد إلى السفينة وأجرى المقابلة مع زعيم الهند. كما أجرى مقابلات صحافية مع هتلر وموسوليني. وحضر مؤتمرا صحافيا في فندق ميناهاوس عام 1943 إثر اجتماع ضم الرئيس الأميركي روزفلت ورئيس الحكومة البريطانية تشرشل والزعيم الصيني كاي تشيك. وكانت التعليمات تقضي بعدم نشر المعلومات قبل الخامسة مساء. وكانت "المقطم" تصدر مسائية، بطبعتين الأولى في تمام الظهر والثانية بعد

ساعتين. فأخّر كريم ثابت الطبعة الثانية لكى ينفرد بنشر المعلومات. وفي هذا المجال، يحسب له الحسّ الصحافي، كما سعيه الدؤوب لاقتناص الموضوعات الفريدة. وفي 1945 أصبح رئيسا لتحرير المقطم إلى جانب فارس نمر. وبعد ثلاث سنوات، اختلف خليل وكريم ثابت مع فارس نمر. كان كريم يرغب في تطوير الجريدة، وكان فارس نمر محافظا لا يحبذ الانفاق. وكان ان انسحب الاثنان، ثم اشترى فارس نمر حصتهما في الدار.

واشتغل كريم ثابت بالسياسة أيضاً. لكنه تورط فيها، وكلفته غاليا. صحيح أنه حصل على منصب حسده عليه كثيرون، إذ أضحى المستشار السياسي والإعلامي للملك فاروق. وأصبح مكتبه في القصر الملكي. وأحاطت به الأضواء، وفاق أباه رتبة، إذ نال لقب "الباشا". وكان مقربا للغاية من الملك. وبحكم موقعه هذا أصبح ذا نفوذ وسلطة. ينافقه المستوزرون والطامعون في مناصب عليا. لكنه انغمس في الفساد وأصبح مرتبطا ارتباطا كليا بالملك. وفي 1952 حقق كريم ثابت حلما كبيرا، إذ اصبح وزيرا في حكومة حسين سري التي تشكلت في يوليو. لكنها لم تعمر سوى أيام. قضت حركة الضباط الأحرار على النظام الملكي، ونفي الملك فاروق خارج البلاد، وأودع كريم ثابت السجن باعتباره من رموز الفساد في العهد البائد. بينما ظل أبوه حرا طليقا ولم يتعرض لمساءلة.

وبعد سنتين من السجن، وكان كريم ثابت محكوما عليه بالسجن المؤبد، تمت مساومته للإفراج عنه نظرا لحالته الصحية التي ساءت. وطلب منه أن يكتب مذكراته عن الملك فاروق، ففعل، واشترى إطلاق سراحه. وظل مقيما في القاهرة حتى وفاته بها في مارس 1964 إثر إصابته بسكتة دماغية. وكان أبوه الذي عاد للإقامة في لبنان منذ 1962 ما زال على قيد الحياة. وتوفي بعد أربعين يوما بالضبط من وفاة ابنه. عاش كريم ثابت 61 عاما، وعاش أبوه خليل 94 عاما.

كان ما سبق حديثا عن مؤسسي الدار، وعن الفروع والأبناء الذين عملوا بها. فماذا عن دورها؟

إذا كانت "المقتطف" ظلت منذ تأسيسها وحتى إغلاقها مجلة ذات طابع علمي ثقافي، فإن جريدة "المقطم" كانت سياسية بامتياز. وذات موقف واضح معلن، لم ينكره أصحابها. فهى منذ نشأتها تدافع عن السياسة البريطانية، وعن الخديوي، ولا تناقض في الولائين، ما جعل المصريين ينظرون إليها بعين الريبة.

وفي عددها الأول أظهرت خطابها جليّا، إذ كتب منشؤها: "في اعتقادنا أن أسمى غرض يجب على الجرائد أن تسعى إليه في أيامنا هذه، هو تقريب الصلات بين الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة حتى تتم مقاصد الهيئتين على أسهل مسلك وأقرب طريق (...) ولذلك عقدنا النية على جعل هذه الجريدة واسطة لإبلاغ مقاصد الهيئة الحاكمة إلى الهيئة

المحكومة وإيضاح حسن نواياها، ولبسط آمال الهيئة المحكومة أمام الهيئة الحاكمة وإبلاغ أمانيها إليها".

ثم في فترة لاحقة كتبت المقطم (عام 1907) في معرض شرح لسياستها: "إن مصلحة المحتلين توافق مصلحة المصريين، ولذلك يقصد المحتلون تنظيم أمور مصر وإصلاح حال المصريين، فلذلك يقضي حسن السياسة علينا بمسالمتهم ومحاسنتهم ومعاونتهم على إصلاح أحوالنا وإصلاح بلادنا لأن ذلك كله لخيرنا".

وفي مقابل حملات الترويج للسياسة البريطانية، شنت الصحف المصرية حملات مضادة على "المقطم" وأفكارها. اختصرها ببيت شعر من قصيدة لعباس محمود العقاد نشرها في جريدة "اللواء" (1907). يخاطب العقاد المندوب السامي البريطاني اللورد كرومر قائلا: نصبت لنا ذاك المقطم داعيا/ فهل عاد إلا بالخسار المقطم؟.

وقد استفادت "المقطم" من سياستها هذه ماديا، بل وإعلاميا. فكانت تتلقى الدعم المالي المباشر، وغير المباشر عبر فرض الاشتراكات على إدارات الدولة، وعبر الاعلانات الرسمية، وإعلانات رجال الأعمال المقربين من السلطة أو الساعين للتقرب. أما من الناحية الإعلامية، فكانت الجريدة تنفرد بالكثير من الأخبار التي ليس بوسع الصحافيين المنافسين الوصول إليها. ولم يقتصر الأمر على الأخبار السياسية، بل بلغ الأخبار الاقتصادية والقضائية. وهذا جعل

لها مساحة في سوق التوزيع. إذ برغم التحفظات الشديدة على خطابها السياسي، حرص قسم من الرأي العام على شرائها لمعرفة أخبار واتجاهات "الهيئة الحاكمة" من جهة، ولقراءة الأخبار التي تنفرد بها الجريدة من جهة ثانية. ناهيك عن وجود طبقة في المجتمع المصري، ولو ضئيلة، مؤيدة للقصر وللسياسة البريطانية. من دون أن نهمل الحرفية الصحافية في جهاز تحرير "المقطم" خصوصا في الفترة التي نشط فيها كريم ثابت.

واستمرت "المقطم" منذ مولدها وحتى احتضارها على الخط السياسي نفسه. وحين تغير الحكم في مصر شكلا ومضمونا بعد 23 يوليو 1952، لم يكن من مؤسسي "المقطم" أحد على قيد الحياة. كان خليل ثابت قد انزوى في بيته، وكريم في القصر، والجريدة في عهدة ورثة فارس نمر إداريا، ولجنة من الصحافيين العاملين بها تحريريا. وكانت "المقطم" في رأس القائمة السوداء لدى الضباط الأحرار. لذلك بادرت في عدد 19 أغسطس 1952 إلى التذكير بأن لا علاقة لكريم ثابت بها، وهو رئيس سابق للتحرير. وكتبت تقول إنه "استقال من رئاسة تحرير الجريدة في 19 يوليو 1949، وباع حصته فيها للمرحوم الدكتور فارس نمر قبل ذلك بسنة. ومن ذلك الحين انقطعت صلته بالجريدة انقطاعا تاما، ولم تعد له بالتحرير أو الملكية علاقة ما إطلاقا". ولم يشفع للجريدة تبرؤها من كريم ثابت.

وبرغم تأييد جهاز تحريرها (رئيس التحرير أنطون نجيب مطر ومدير التحرير وديع فلسطين) للثورة ولكل قوانينها الجديدة، وبرغم مقال كتبه مطر في 29 يوليو 1952 بعنوان "كابوس وذئاب بشرية" وصف فيه الملك المخلوع وحكمه وحاشيته بأقسى الألفاظ، ظلت "المقطم" تحمل على كتفيها عبء تاريخها، ووجدت نفسها تعاني من نقيض ما نعمت به نحو 64 عاما: ألغيت اشتراكات إدارات الدولة، والاعلانات الرسمية، وتجنب رجال الأعمال نشر إعلاناتهم الخاصة بها، فجف قسم رئيسي من منابع التمويل. كما حرمت من مصادر الأخبار فلم يعد بها إغراء للقاريء. تقلص عدد صفحاتها إلى أربع صفحات فقط، وهبط توزيعها إلى القاع. وكان ذلك أشبه بحكم غير معلن بإيقافها. وإزاء ذلك، والخلافات بين الورثة المالكين وعدم رغبتهم في الدعم المالي، انهارت "المقطم" واضطرت إلى التوقف عن الصدور في نوفمبر 1952.

أما إعلان وفاتها رسميا، فجاء عبر القرار رقم 64 الصادر عن وزير الإرشاد القومي صلاح سالم، بتاريخ 26 مايو 1954 القاضي بإلغاء امتياز إصدارها، استنادا إلى توقفها " بإثبات عدم انتظام صحيفة المقطم، واعتبار الإخطار المقدم عن إصدارها كأنه لم يكن، تطبيقا للمادة 18 من قانون المطبوعات رقم 20 لسنة 1936".

البصير

في الأول من سبتمبر 1897 صدر في مدينة الإسكندرية في مصر العدد الأول من جريدة "البصير" : جريدة يومية سياسية تجارية إدارية كما ورد في صدر صفحتها الأولى. وفي الإفتتاحية كتب مؤسس الجريدة رشيد شميّل: "لا بد من رقيب يسيطر على الهيئة الحاكمة لئلا يقودها الإنفراد إلى مهاوي الزلل، ومن نذير يبث شكاوى الهيئة المحكومة لئلا تندمل جروحها على دغل. فالصحافة في عصرنا من أهم العناصر التي تتكفل بذلك. وهى لا تقوم بمهمتها إلاّ إذا كانت مطلقة الحرية. وإلاّ كان عدمها خير من وجودها. وأى خير يرجى من صحافة مقَيّدة، تموّه على الهيئة المحكومة وتضلل الهيئة الحاكمة؟ ومبلغ الصحافة من الحرية دليل على مبلغ الأمة من التمدن ومبلغ حكومتها من التعقل".

وحين صدرت "البصير" كان محافظ الاسكندرية الشاعر والأديب اسماعيل صبري. وفي عيدها الخمسيني نشرت "البصير" عام 1947 عددا خاصا، صدرته بكلمة لمحافظ الاسكندرية آنذاك عبد الخالق حسونة (فيما بعد الأمين العام لجامعة الدول العربية) جاء فيها: "ولعله كان من يمن

الطالع، أن البصير ولد في الاسكندرية في عهد محافظها المرحوم اسماعيل صبري، وهو من تعرف منزلته في فجر النهضة العربية".

ومن بين حوالى ثمانين جريدة ومجلة صدرت في الإسكندرية "عاصمة مصر الثقافية" في السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر، وحدها "البصير" واكبت القرن العشرين وظلت تصدر جريدة يومية، توزع بعد الظهر في الأسكندرية والقاهرة في وقت واحد، حتى توقفها عن الصدور عام 1964.

وكانت " البصير " منذ صدورها وحتى توقفها جريدة آل شميّل . وتنحدر هذه الأسرة من بلدة كفر شيما، وهى البلدة التي أنجبت في القرن التاسع عشر كوكبة من الأدباء والصحافيين، توزعت على عائلات معيّنة: اليازجي وتقلا وشميّل. يبرز الواحد منهم في مجاله، فيتوارث الأبناء والفروع والأنسباء صناعة الكتابة. وكان الدكتور شبلي شميّل أشهر أفراد أسرته، لكنه اكتفى بنشر أبحاثه في "البصير" من دون أن يشارك في تأسيس الجريدة أو في تحريرها. مؤسسها هو رشيد شميّل. شاركه في التحرير أخواه قيصر وسبع وعمه أمين الشميل. وإلى الأخوة والأنسباء من آل شميّل، ساهم في إدارة تحرير "البصير" عدد من أدباء العربية والصحافيين، جلّهم من اللبنانيين المهاجرين إلى مصر أو من المولودين فيها.

رشيد الشميّل

رشيد خليل الشميل من مواليد كفر شيما سنة 1853. وكان صديق الطفولة لسليم وبشارة تقلا. ومثلهما تعلم في المدرسة البطريركية في بيروت. جاء إلى مصر وهو في الثالثة والعشرين من عمره، ولم يكن في باله أنه سيعمل في الصحافة. سافر إليها بقصد العمل لدى عمه أمين الذي كان من تجار القطن المعروفين وله مكتب في ليفربول في انكلترا. وفي إطار هذا العمل سكن في طنطا. وحين عرف أن صديقي الطفولة سليم وبشارة تقلا أصدرا "الأهرام" في الاسكندرية، عمل وكيلا لهما في طنطا. ثم ما لبث أن هجر العمل لدى عمه، وانتقل إلى القاهرة ليصبح أول مراسل للأهرام منها. وأصبح مهتما بالصحافة، وكانت "الأهرام" تنشر مقالاته في زاوية "رسائل العاصمة". وبعد وفاة سليم تقلا استدعاه بشارة ليكون إلى جواره في الإسكندرية. وهكذا أصبح رشيد شميل من طاقم "الأهرام".

وإذ تقرر نقل "الأهرام" إلى القاهرة، آثر رشيد الشميل البقاء في الاسكندرية. وكان أصبح ملمّا بأسرار المهنة، فقرر أن يصدر جريدة "البصير". خصوصا وأن الساحة تستوعب صحيفة في الاسكندرية بعد رحيل "الأهرام" عنها، وكانت هذه أسست لوجود طبقة قراء.

صدرت "البصير" يومية سياسية تجارية إدارية. هكذا جاء

في صدر صفحتها الأولى. وكانت "الأهرام" نموذجا لها. وتفرغ رشيد الشميل للإدارة، واستعان بأفراد العائلة. وظل عميد الدار إلى وفاته في 31 يوليو 1928 فرثاه صديقه الشاعر خليل مطران بقوله: "زال الشباب وذاك العهد لم يزُلِ/ حيّاً بقلبي، كأن العهد لم يزَلِ".

أمـيـن الـشـمـيـل

كبير الأسرة في عهد ظهور "البصير". بادر إلى الاشتراك في تحريرها. إذ كان محبا للأدب والكتابة برغم اشتغاله في تجارة القطن. من مواليد كفر شيما عام 1828. درس في مدرسة المرسلين الأمريكيين في بيروت، وتعلم اللغة العربية على محي الدين اليافي[18]. هاجر إلى انكلترا وأقام في ليفربول واشتغل بالتجارة وأصدر صحيفة "الحقوق" عام 1886. لكنها لم تعمر. له مؤلفات، منها: "الدرة الجلية في الأحكام القضائية" و"نظام الشورى" و"الوافي" وفيه فصّل تاريخ (المسألة الشرقية) ومتعلقاتها وتاريخ الحرب التي نشبت بين روسيا والدولة العثمانية. كما نشر ديوان شعر بعنوان "المبتكر". لم يهنأ طويلا بالعمل في "البصير" إذ مات في

(18) كان محي الدين اليافي من الفقهاء والعلماء في الدين وفي اللغة العربية في بيروت.

سنة صدورها. لكنه في فترة حياته المهنية الصحافية القصيرة، كان ساهم بقلمه بمقالات قيمة، ومنها ما كتبه حين دعا إلى إنشاء بنك وطني يخلص مصر من أسر الديون ويعمل على توطين الدين العام "فتقوى القراطيس المالية في السوق ويتوفر بذلك استهلاك مقدار وافر من ديون الحكومة وبذلك تتخلص البلاد من الاستعباد الأجنبي (...) ومن الممكن استغلال جزء من رأسمال البنك في الأعمال التجارية مما يؤدي إلى انتظام تجارة البلاد وزراعتها، فيقبل الأهالي على المشروعات والشركات النافعة، مما يزيد من ثروة البلاد ويساعدها على إنهاء ديونها على مدى 28 عاما".

سبع وقيصر الشميل

شقيقا رشيد الشميل. ولد سبع في كفرشيما عام 1868. تلقى علومه في المدرسة البطريركية في بيروت. وبعد تخرجه تولى التدريس فيها. ثم انتقل للتعليم في مدرسة الآباء اليسوعيين وتولى الإشراف على مطبوعاتهم وعمل في تحرير صحيفة "البشير" التي كانوا يصدرونها. هاجر إلى ليفربول واشتغل لدى عمه أمين ثمانية أعوام. ثم سافر إلى الاسكندرية وانضم إلى أسرة "الأهرام". وانتقل إلى "البصير" حين أصدرها رشيد. وكان مختصا بتحرير الصفحات التي تعنى بشؤون التجارة والمال. ترجم بعض القصص عن الانكليزية

ونشرها في "البصير". وفي فبراير 1898 أصدر مجلة "تسلية الخواطر" أدبية تاريخية نصف شهرية، دامت أقل من عام. وتوفي في كفر شيما في حزيران 1901 عن عمر ناهز الثالثة والثلاثين.

أما قيصر الشميل فعمل في جريدة أخيه منذ إنشائها. واهتم بمواضيع التجارة والمال أيضاً. كما ترجم عن الفرنسية بعض القصص ونشرها في الجريدة، ومنها "سالامبو" لفلوبير. راسل بعض الصحف الصادرة في القاهرة، خصوصا في شؤون البورصة واستثمار الأموال. أنشأ مجلة "السمير" عام 1910. وتوفي يوم 16 يونيه 1928.

أمين الحداد

ولد في بيروت أواخر 1868. أبوه الشاعر سليمان الحداد وأمه حنّة ابنة الأديب ناصيف اليازجي. أتقن العربية بعدما تشربها من جده وخاله ابراهيم اليازجي وأبيه. وتعلم مباديء اللغة الانكليزية في مدرسة المرسلين الأمريكيين. وفد إلى الاسكندرية عام 1882 واشتغل في "الأهرام". وكان أتقن رصف الحروف فتوزع عمله في الجريدة بين الاشراف على المطبعة وبين التحرير. وفي 1894 ترك "الأهرام" وأسس مع أخيه نجيب وعبده بدران صحيفة "لسان العرب" دامت سنة وبضعة أشهر. فاشتغل في تحرير بعض الصحف

التي كانت تصدر في الاسكندرية آنذاك مثل "الاتحاد المصري" و"السلام" و"أنيس الجليس". وفي 1899 انضم إلى "البصير" وظل محررا بها حتى آخر عمره. ترجم مسرحية شكسبير "هاملت" الى اللغة العربية. وكان أصيب بداء في الكبد وقصد لبنان للاستشفاء وما لبث أن توفي في بلدته (عين قنيه) عام 1912.

عبده بدران

من مواليد وادي شحرور (جبل لبنان) خريف 1867. هاجر إلى الاسكندرية في مطلع شبابه. ولأنه ابن خالة سليم تقلا، كان من الطبيعي أن يبدأ عمله في "الأهرام" حيث هذب معرفته باللغة العربية حتى أتقنها. وأراد أن يستقل بنفسه فشارك الأخوين الحداد في إصدار "لسان العرب". وبعد توقفها أصدر "المطبعة المصرية"، ثم أنشأ صحيفة "الصباح" الأسبوعية من 1900 إلى 1906. ثم أعاد عام 1908 إصدار "لسان العرب" لثلاث سنوات. ثم هجر الصحافة إلى قلم التحرير العربي في المحاكم المختلطة[19]. وفي 1917 استقر

---

(19) أنشأت "المحاكم المختلطة" في مصر عام 1875. واكتسبت هذا الإسم لأن القضاة كانوا خليطا من الأجانب والمصريين. وكانت تنظر في القضايا بين المصريين والأجانب، أو بين الأجانب أنفسهم. وبذلك

به المقام في "البصير". وإبان ثورة 1919 نشر مقالات وطنية بعنوان "مصر اليوم". اشتغل في سنوات عمره الأخيرة على تأليف قاموس "الهادي" لكنه لم يتمكن من نشره. ومن مؤلفاته المنشورة ثلاث روايات: "غادة لبنان" و "ساعة على شاطيء البحر" و"الطبيب الخائن". وكانت وفاته بالاسكندرية في 9 فبراير 1924.

طانيوس عبده

ولد في بيروت عام 1869. تعلم في مدارسها وأتقن اللغتين العربية والفرنسية، وبدأ يعمل في مجاليْ الترجمة والصحافة. وتبع أسراب الأدباء والصحافيين المهاجرين إلى مصر واستقر في الاسكندرية. وفيها أصدر عام 1896 صحيفة "فصل الخطاب" أسبوعية أدبية ثقافية. نشرها لمدة سنة وبضعة أشهر. ثم انضم إلى "البصير" بعيد صدورها محررا ومترجما. وحين صدر الدستور العثماني عام 1908 انتقل إلى بيروت وأصدر جريدة "الأيام". وبنهاية الحرب العالمية الأولى عاد إلى مصر. ونشر ديوان شعره ورواياته المترجمة

= أخذت من صلاحيات المحاكم القنصلية، ومنعت المحاكم المصرية من مقاضاة أي أجنبي. وبموجب اتفاقية مونترو 1937 تقرر وقف العمل بهذه المحاكم المختلطة اعتبارا من 14 أكتوبر 1949. وتم ذلك فعلا، فألغي العمل بهذه المحاكم.

العديدة، ومنها: "بائعة الخبز" و"الأميرة فوستا".. "روكامبول" و"ابنة فرعون". كما ترجم مسرحية "هاملت" لشكسبير التي قدمها نجم الطرب في زمانه الشيخ سلامة حجازي. واستمر يعمل في "البصير" وتولى رئاسة تحريرها. وفي خريف 1926 أصيب بداء اليرقان وذهب للعلاج في بيروت وما لبث أن توفي بها. وفي نعيه كتبت "البصير": "عُرف بطلاوة الديباجة وحسن الأسلوب، فخلص نثره وقريضه من التعمّل، وجاءا صافيين نقيين كندى الصباح. وكان في أكثر منظوماته ممراحا وطروبا، فاستطاع أن يستخلص من شقاء الحياة نعيما، ومن متاعبها المتواصلة هناء مقيما".

شارل الشميل

ابن رشيد الشميل مؤسس الجريدة. ولد في الاسكندرية عام 1895. تلقى علومه في مدرسة الفرير ثم في فكتوريا كوليدج وفي مدرسة الآباء اليسوعيين. ونال شهادة البكالوريا عام 1913. ولم يكمل دراسته الجامعية إذ التحق بجريدة والده عام 1914. وفي عام 1923 أصدر "البصير القضائي". كان كثير المطالعة ويتقن اللغات العربية والفرنسية والانكليزية. تولى إدارة الجريدة عام 1928 بعد وفاة أبيه. وظل يشرف على إدارتها وتحريرها حتى توقفها عام 1964. ولم ينقطع

عن الصحافة، فكتب في جريدة Le Progres Egyptien اليومية التي كانت تصدر في الاسكندرية. وكتب بحثا قيما عن الصحافة في الاسكندرية في كتاب "مجتمع الاسكندرية عبر العصور" الذي نشرته كلية الآداب عام 1975. لم يتزوج. توفي بالاسكندرية عام 1984.

صدرت "البصير" في بداياتها في أربع صفحات. ثم بلغت ثماني صفحات. وكانت في سنواتها الأخيرة تصدر في ست صفحات. تتوزع موادها بالنسبة ذاتها كما في أيامها الأولى، بين المواضيع السياسية والإقتصادية والثقافية. لكنها لم تقوَ على منافسة صحف القاهرة الكبرى، وعانت من هجرة "الشوام" من الإسكندرية، فقلّ عدد مشتركيها وقرائها. ولم تكفِ وارداتها لتغطية مصروفاتها، فتوقفت عن الصدور. ولم يعد بالاسكندرية جريدة يومية عربية.

وجوه صحافية أخرى

كان اللبناني سليم حموي أول من أنشأ مطبوعة عربية في مصر: "الكوكب الشرقي" وهي أسبوعية صدر العدد الأول منها في الإسكندرية في 20 يوليو 1873. بعدها بأشهر أصدر "شعاع الكوكب" جريدة يومية أدبية تجارية، وهى لم تستمر طويلا. واعتبارا من يوليو 1878 نشر "الإسكندرية" سياسية أسبوعية استمرت حتى وقوع ثورة عرابي 1882. ثم نشر "روضة الإسكندرية" أسبوعية سياسية صدر عددها الأول في أكتوبر 1882، ونقلها إلى القاهرة عام 1885، فصدرت بعنوان "الفلاح". وغابت قبل حلول القرن العشرين.

وثمة شخصيات لبنانية لعبت دورا في صناعة الصحافة في مصر، في مجاليْ التحرير والنشر مثل ألبير عمّون وإميل خوري، وقد عمل كل منهما سكرتيرا لتحرير "الأهرام".. والياس بدوي الذي بدأ حياته المهنية في أربعينيات القرن العشرين محررا في "البصير" ومترجما لكتب عن الإنكليزية، ثم أصبح مراسل الأهرام في الأسكندرية ووكيل أول مجلس نقابة للصحافة في الإسكندرية عام 1956. انتقل إلى بيروت في مطلع الستينات وعمل محررا لشؤون السياسة الدولية في

جريدة "الحياة".. ومثل عزيز زند (ناشر المحروسة) وجورج طنوس وابراهيم شدودي.

وثمة شخصيات تركت بصماتها في سجل المهنة، ومنها على سبيل المثال:

سليم النقاش

بدأ مسرحيا وأصبح صحافيا. وإن لم يكن غريبا عن الصحافة، إذ اشتغل في بيروت في جريدة "الصباح" التي أنشأها عمه نقولا النقاش. علاقته بالمسرح أن عمه هو مارون النقاش، رائد المسرح في لبنان والعالم العربي. بعد وفاة عمه، حمل نصوص الراحل وشكّل فرقة مسرحية مع الأديب السوري الشاب أديب اسحق، وسافرا بها إلى الاسكندرية. وفي "الأهرام" بتاريخ 12 ديسمبر 1876 إعلان عن وصول "ذاك الفتى اللبيب والحاذق الأديب سليم أفندي نقاش، الذي تلقن فن تشخيص الروايات عن عمه المرحوم الخواجا مارون نقاش الشهير المبدع لهذا العلم في الأقطار السورية. أما المحل الذي سيجري فيه التشخيص فتياترو زيزنيا". وبرغم أن مسرح زيزنيا كان من أبرز مسارح الاسكندرية، يبدو أن العروض لم تلق النجاح المنتظر. فكان أن هجر سليم النقاش وأديب اسحق المسرح واشتغلا بالصحافة، وتركا الفرقة التمثيلية لاسكندر فرح، أحد أعضائها.

أنشأ النقاش واسحق في الاسكندرية جريدة "التجارة" (تجارية سياسية يومية) صدر عددها الأول في 13 مايو 1878. وبعد ستة أشهر مجلة "انتقال مصر" (سياسية أدبية أسبوعية). وكان جمال الدين الأفغاني وراء إنشاء هذه الصحف، ونشر فيها مقالات باسم مستعار "المظهر بن وضاح". وفي أواخر نوفمبر 1879 أغلقت حكومة مصطفى رياض الجريدة والمجلة. ورحل اديب اسحق إلى باريس.

وفي يناير 1880 أصدر سليم نقاش بمفرده مجلة أسبوعية سياسية: "العصر الجديد" وجريدة سياسية تجارية يومية: "المحروسة". المجلة أوقفت بعد سنتين. أما الجريدة فاستمرت في الصدور حتى وفاة سليم النقاش في 25 نوفمبر 1884. آلت ملكيتها إلى الصحافي اللبناني عزيز زند ثم إلى الصحافي اللبناني الآخر الياس زيادة (والد الأديبة مي).

شهد سليم النقاش أحداث ثورة أحمد عرابي في مصر عام 1882، وكتب تاريخها في مؤلف "مصر للمصريين" وهو من تسعة أجزاء. وقد أصدر أحمد عرابي في مذكراته أحكاما متناقضة على كتاب سليم النقاش. فهو تارة يصفه بأنه أقرب التواريخ لمعرفة حقائق النهضة القومية المصرية، وتارة يقول عنه "إنه كتاب مشوّه فيه الغث الثمين والصدق والكذب. (...) وإنه محشو بكثير من الأكاذيب والأباطيل، وُضعت لإرضاء ذوي النفوذ من خصوم الثورة".

حفيد الأديب ناصيف اليازجي. ولد في لبنان عام 1867. هاجر إلى مصر وأقام في الاسكندرية، وبدأ حياته المهنية محررا في "الأهرام". اشترك مع أخيه أمين وعبده بدران في إصدار صحيفة "لسان العرب". وقد تعرضت هذه الصحيفة للمنع والمصادرة في البلدان العثمانية. بدأت يومية ثم تحولت إلى أسبوعية. نقلت إلى القاهرة، ثم أعيدت إلى الاسكندرية. وفي مايو 1898، شارك محمد غالب طليمات في إصدار جريدة "السلام" يومية تجارية سياسية. ولم يستمر طويلا في العمل، إذ أصيب بالسل الرئوي، وعانى منه حتى وفاته بالاسكندرية في 9 فبراير 1899 .

نظم الشعر، ونشر ديوانا بعنوان "تذكار الصبا". وكان بسبب المرض شعر بدنو أجله، فنظم يؤرخ وفاته، قال: (ولـّى النجيب فأرّخوا: قبراً له.. قد مات مشتاقا إلى لبنان). وبعد وفاته نشر له صديقه حنا نقاش "منتخبات نجيب الحداد". والجدير بالذكر أن نجيب الحداد كان أول من استعمل كلمة "الصحافة" بمعناها العصري.

ترجم نجيب الحداد العديد من المسرحيات العالمية التي مثلتها الفرق المسرحية المختلفة، كما له نصوص من تأليفه. من ترجماته "صلاح الدين الأيوبي" (معربة عن الشاعر الانكليزي والتر سكوت). و"شهداء الغرام" (تعريب "روميو

وجولييت" لشكسبير) و"البخيل" و"الطبيب رغم أنفه" لموليير. ومن تأليفه "ثارات العرب" و"المهدي" و"الرجاء بعد اليأس". كما عرب نجيب الحداد بعض الروايات ومنها "الفرسان الثلاثة" لألكسندر ديماس. كما ألف رواية بعنوان "غصن البان".

نقولا الحداد

ولد في بلدة جون (جبل لبنان) في 25 كانون الأول 1870. تلقى علومه في المدرسة الثانوية الأميركية في صيدا، ثم درس الصيدلة في الكلية السورية الإنجيلية. هاجر إلى مصر واشتغل محررا في "الأهرام" و"المقطم" و"الهلال" وأصدر مجلة "اللص الشريف" (200 عددا) وحرر في "مسامرات الشعب". في عام 1907 سافر إلى نيويورك. وهناك أصدر مع فرح أنطون صحيفة "الجامعة". ثم تزوج الصحافية روز أنطون، شقيقة فرح. وكان من أوائل الاشتراكيين العرب من دون الانتماء إلى حزب. وتلمس ذلك على سبيل المثال في مقال نشره في "الجامعة" (1908) يحلل فيه مشاكل النظام الاجتماعي الأمريكي: "إن النظام الحالي جعل الأعمال كلها في أيدي مسيطرين عليها، فإذا اقتضت مصلحتهم أن يستوقفوا حركاتها، أوقفوها. في أميركا خيرات كثيرة جدا، لكنها غير موزعة على مستخرجيها لسبب استحقاقهم منها، بل بحسب

المطامع والتحايل النظامي في توزيعها. وعدم الإنصاف في توزيع الثروة في أميركا أكبر مصائبها. وهو أسوأ فيها منه في كل العالم. وربما كان سبب القضاء عليها في المستقبل القريب أو البعيد".

لدى عودته إلى القاهرة اشتغل بالصحافة مجددا، ثم أصدر عام 1922 مع زوجته مجلة "السيدات والرجال". وبعدما ترك فؤاد صروف رئاسة تحرير "المقتطف" ليصدر "المختار" أسندت رئاسة تحرير "المقتطف" إلى نقولا الحداد عام 1949، وتركها بعد سنة.

كان نقولا الحداد شاعرا، لكنه لم يجمع قصائده في ديوان. له عدد كبير من الروايات والقصص المترجمة. لكنه ـ أساسا ـ مؤلف رصين في مجالي العلوم البحتة والعلوم الإنسانية. عام 1920 نشرت دار الهلال مؤلفه "الاشتراكية". وكان من الكتب العربية المبكرة التي تناولت هذا الموضوع. وفي 1925 أصدر أول كتاب عربي في موضوعه "علم الاجتماع.. حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها"، وفيه تأثر بنظريات هربرت سبنسر الملقب بفيلسوف التطور. ومن مؤلفات نقولا الحداد "الديمقراطية، مسيرها ومصيرها" و"فلسفة الوجود" و"عالم الذرة أو الطاقة الذرية" و "هندسة الكون بحسب ناموس النسبية".

وكانت وفاته في الفاهرة عام 1954.

سليم سركيس

ولد في بيروت عام 1869. (وفي رواية 1867). درس في "المدرسة الوطنية" على يد بطرس البستاني. ونشر كتاباته الأولى وكان في الخامسة عشرة في مجلة "الجنان" التي كان أستاذه يصدرها. وكانت طريق سليم سركيس ميسرة للعمل في الصحافة، إذ بدأ محررا في صحيفة "لسان الحال" التي أنشأها عمه خليل سركيس عام 1877. انزعج من الرقابة على الصحف واعتبرها "سبب جميع المصائب والنكبات". لذلك غادر سليم سركيس بيروت عام 1892 إلى باريس وفيها نشر "كشف النقاب" فلم تحقق له شهرة أو مردودا ماديا، فانتقل إلى لندن حيث أصدر مجلة "رجع الصدى". وكمثيلتها الباريسية لم يكتب لها النجاح.

أبحر إلى الاسكندرية عام 1894، وكانت تعج بالصحافيين المصريين واللبنانيين المهاجرين. فأنشأ سليم سركيس صحيفة "المشير" الأسبوعية (سياسية، أدبية) صدر العدد الأول منها في أول نوفمبر 1894. وبعد نحو سنة انتقل بها إلى القاهرة. وكانت السلطات العثمانية أحرقت أعدادها الأولى التي وصلت إلى بيروت، وأصدرت بحق ناشرها حكما بالإعدام، وطلب والي بيروت من الحكومة المصرية تسليم سليم سركيس، غير أن اللورد كرومر حماه، ودافع عنه نجيب الحداد في صحيفة "لسان العرب" فكتب: "أبى الله أن تتغلب دولة السيف على دولة القلم".

في عام 1896 أسس سليم سركيس مجلة نسائية نصف شهرية "مرآة الحسناء". كان ينشرها باسم مستعار "مريم مزهر". صدر منها 22 عددا. وفي السنة التالية أصدر "نشرة الكهرباء". وفي سبتمبر 1897 أصدرت المحكمة العليا بالقاهرة حكما بسجن سليم سركيس أسبوعا لأنه تطاول على السلطان العثماني عبد الحميد وغليوم الثاني إمبراطور ألمانيا بالقدح والذم. وفي 1899 سافر إلى الولايات المتحدة وأقام فيها خمس سنوات أصدر خلالها "الراوي" و"البستان" و"المشير" (حتى 1903). وبسبب مقالاته في "المشير" حكمت عليه محكمة القاهرة بالسجن 18 شهرا وبغرامة 2000 غرش. ويئست السلطات العثمانية من إمكانية القبض عليه، فاستخدمت معه سياسة الاستمالة. صدر عفو عنه، فعاد إلى القاهرة عام 1905 ونشر مجلته الأدبية الشهيرة التي حملت اسمه "مجلة سركيس"، والتي استمرت في الصدور حتى وفاته في 31 يناير 1926.

وكان إلى جانب ذلك اشتغل محررا في "الأهرام" وفي "المؤيد". وكان نشر كتابا بعنوان "غرائب المكتوبجي". وفيه ندد بالمكتوبجي أي الرقيب العثماني على الصحافة. وقدم إهداء الكتاب إلى السلطان العثماني عبد الحميد " يسوءني أنني من جملة رعاياك، لأنه يسوءني أن أكون عبدا. وأنت عودتنا أن تعتبر الرعية في منزلة عبيد لك، بدلا من أن تتبع الحقيقة، وهى أن تكون عبدا لنا". ومن مشاكله مع المكتوبجي أنه في عام 1894 اغتيل ماري فرنسوا كارنوه

رئيس جمهورية فرنسا إذ طعنه فوضوي بخنجر. حرر سليم سركيس الخبر وفي نهايته بيت شعر يقول "وان الليالي لم تزل بورودها/ تسلّ علينا بالأهلـّة خنجرا". شطب المكتوبجي "خنجرا" وكتب بيده بدلا منها "مكدرا". لأن السلطان العثماني عبد الحميد لا يحب أخبار الخناجر واغتيالات الرؤساء، ولا يحب أن يؤدي نشر الأخبار إلى توليد الأفكار.

يوسف الخازن

ولد في بلدة سهيلة (جبل لبنان) عام 1871. تلقى علومه في مدرسة عينطورة ثم في بيروت في مدرسة الحكمة وفي الكلية السورية الإنجيلية. ثم هاجر إلى مصر واشتغل محررا في صحيفة "الوطن" لصاحبها ميخائيل عبد السيد، وتدرج فيها حتى تولى رئاسة تحريرها. ثم قرر أن يؤسس جريدة فنشر "الأخبار" (أسبوعية) بالتعاون مع داود بركات. صدر العدد الأول منها في 29 يوليو 1896. وبعد ثلاث سنوات اختلف مع شريكه، الذي انضم إلى "الأهرام". وواصل يوسف الخازن إصدار "الأخبار" بمفرده لفترة وجيزة، إلى أن أصدر مجلة "الخزانة" الشهرية اعتبارا من أول يوليو 1900. وهذه لم تعمر كثيرا، فحلت "بريد الأحد" محلها بدءا من نوفمبر 1902 لمدة عام. فقرر يوسف الخازن إعادة نشر "الأخبار" جريدة يومية. وواظب على إصدارها، ولقيت تقديرا من أهل

المهنة ومن القراء، بالنظر إلى حرفيتها ونشرها الآراء المتباينة. وفي عام 1920 باعها، فآلت ملكيتها إلى أمين الرافعي ومحمود حمادة، وقد أصدرا العدد الأول منها في 22 فبراير 1920. واستمرت إلى حين وفاة أمين الرافعي (1927). وفي 1952 اشتراها الأخوان مصطفى وعلي أمين لتصبح الشقيقة اليومية لـ "أخبار اليوم" الأسبوعية. وفي 1960 أممتها الحكومة المصرية. وما زالت تصدر إلى اليوم، وهى حاليا من أوسع الجرائد المصرية انتشارا، ومن أقدمها بعد "الأهرام"، وإن تغيّر ناشروها عبر تاريخها. أما يوسف الخازن، فعاد إلى بيروت بعد إعلان دولة لبنان عام 1920. ومارس العمل السياسي، حيث عيّن عضوا في اللجنة الإدارية للبنان الكبير، وانتخب نائبا في البرلمان لثلاث مرات بين 1922 و1932. ولم ينس دوره الصحافي، فأعاد بمعاونة نعوم لبكي إصدار جريدة "الأرز" (أسسها عام 1895 فيليب وفريد الخازن، من شهداء 1916). وما لبث أن اختلف مع نعوم فانفرد الخازن بنشر الجريدة إلى أن توقفت. وبعد استراحة المحارب، نشر عام 1934 جريدة "البلاد" بالاشتراك مع السياسي موسى نمور الذي لم يكمل المشوار هو الآخر. وفي 1940 أوقفت سلطات الانتداب الفرنسي الجريدة، ووضعت صاحبها في الإقامة الجبرية. لكنه نجح في الفرار إلى تركيا ومنها إلى إيطاليا التي توفي فيها يوم 14 مايو 1944.

دار المعارف

واحدة من أقدم دور النشر في العالم العربي وأكبرها، ما زالت قائمة منذ تأسيسها عام 1890. وفي رصيدها من حيث كمية الإصدارات، ونوعيتها، ما يجعلها بحجم وزارة ثقافة. نشأت في حيّ الفجالة بالقاهرة، معقل "الشوام" المقيمين في العاصمة المصرية، و"فليت ستريت" مصر، حيث تجمعت فيها دور الصحافة والنشر والمكتبات في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

نجيب متري

مؤسس الدار. ولد في لبنان عام 1865 وفي بيروت تعلم فن الطباعة وأصبح من المحترفين. استدعاه عزيز زند، ناشر صحيفة "المحروسة"، فوفد إلى الإسكندرية عام 1884. واشتغل مديرا لمطبعة "المحروسة" ست سنوات، ثم انتقل إلى القاهرة، وقرر أن ينشيء مطبعة ومكتبة. ولتحقيق ذلك، تشارك مع جرجي زيدان عام 1890. وبعد سنة، فضت الشراكة، فأسس جرجي زيدان "مكتبة الهلال" وراح ينشر "مجلة الهلال"، فيما أسس نجيب متري "مكتبة المعارف"

ومطبعتها، هى التي تحولت إلى "دار المعارف" للطباعة والنشر.

ولم يكن نجيب متري مجرد صاحب مطبعة ومكتبة، بل كان محبا للأدب وينظم الشعر. وكان على صلة وثيقة بأبرز أدباء عصره، ما جعله ينشر مؤلفاتهم. وهذا أعطى الدار قيمة أدبية، إضافة إلى القيمة المادية. هو الذي نشر دواوين أحمد شوقي وخليل مطران وحافظ إبراهيم وولي الدين يكن وسواهم من أصحاب الأقلام المرموقة. وهو الذي نشر الترجمة العربية للإلياذة التي صاغها سليمان البستاني. وكتاب قاسم أمين الشهير "تحرير المرأة". ومن بعد، كانت "دار المعارف" ناشرة مؤلفات محمد حسين هيكل وعلي الجارم ومنصور فهمي ومي زيادة وعباس محمود العقاد وطه حسين وسواهم.

واستمرت منشورات "المعارف" تستقطب الأقلام المعروفة في مصر والعالم العربي. وظل نجيب متري يعمل بهمة إلى حين وفاته في القاهرة عام 1928.

شفيق متري

ابن نجيب، وهو صانع نهضة "دار المعارف". (شقيقه إدوار مات مبكرا، فتولى شفيق إدارة الدار وتطويرها). ولد في القاهرة عام 1904. نشأ في عالم الطباعة وتسويق الكتب.

أتاح له أبوه فرصة دراسة فن الطباعة في باريس. ثم قصد ألمانيا في جولة استطلاعية زار خلالها كبريات المطابع. وأدرك أن تطوير المطبعة مهمة أساسية. وحين استورد المطبعة الحديثة في ثلاثينيات القرن العشرين، أنشأ "دار المعارف" للنشر. ولأنه اطلع على أعمال دور النشر الأوروبية، أراد أن تكون داره على غرارها. فاهتم بالمحتوى، واجتذاب الأقلام، كما اهتم بشكل الكتاب في غلافه وتبويبه، وبنوعية الورق والطباعة. وبدا تأثره بمنشورات غاليمار الفرنسية العريقة، خصوصا في الغلاف المجرّد من التزيين، والذي لا يحمل سوى العنوان واسم المؤلف ودار النشر.

نشرت "دار المعارف" سلسلة "ذخائر العرب" وكان يشرف عليها طه حسين وأحمد أمين وعلي الجارم وعبد الوهاب عزام ومحمد حلمي عيسى. وفي هذه السلسلة صدر: تاريخ الطبري، وتهافت الفلاسفة للغزالي، وتهافت التهافت لإبن رشد، والبخلاء للجاحظ، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي، وديوان أبي تمام، وديوان البحتري، وسواها من ذخائر التراث.

كما أصدرت دار المعارف سلسلة "اقرأ" في مطلع عام 1943. وكان أحمد أمين قد اختار عنوان هذه السلسلة الشهرية (ما زالت تصدر) تيمنا بأول كلمة في التنزيل الكريم. وكان كتاب "أحلام شهرزاد" لطه حسين باكورة هذه الكتب، وهو كان فرغ لتوه من تأليفه. وكانت من الكتب ذات الحجم

الصغير، تباع بسعر في متناول الجميع. وكما جاء في افتتاحية العدد الأول: "والنيّة في هذه السلسلة أن تكون على يسرها وقربها، متنوعة أشد التنوع وأنفعه". وهذا ما درجت عليه السلسلة بالفعل، فنشرت في مختلف جوانب المعرفة: في السياسة والتاريخ والآداب والعلوم والفنون. كتبا مؤلفة خصيصا، أو مترجمة من اللغات الأجنبية. وكان يشرف على نشرها في البداية عباس محمود العقاد وأنطون الجميل وفؤاد صرّوف. ثم تولى الشاعر عادل الغضبان هذه المسؤولية لسنوات طوال.

ثم بدأت "دار المعارف" عام 1951 في نشر سلسلة "نوابغ الفكر العربي" التي استهـلّها عباس محمود العقاد بكتاب عن ابن رشد. ثم صدرت سلسلة "نوابغ الفكر الغربي" وفيها كتب عن أفلاطون وديكارت وجون ديوي وسواهم.

كما اهتمت دار المعارف بالشباب والأطفال. فأصدرت سلسلة "أولادنا" وهي روايات عالمية مترجمة بلغة سلسة ميسرة تستهوى الشباب. ومن هذه الروايات: دافيد كوبرفيلد (تشارلز ديكنز) والزنبقة السوداء (ألكسندر دوما) الأمير والفقير (مارك توين) بينوكيو (كارلو كولودي)... ومنها ما هو مؤلف من وحي التراث العربي: عمرون شاه.. كريم الدين البغدادي. وكان محمد فريد أبو حديد مشرفا على هذه السلسلة. وإلى ذلك أذكر "مكتبة الأطفال" وقد نشر فيها كامل الكيلاني نحو

أربعين كتابا. و"المكتبة الحديثة للأطفال" وفيها نشر محمد عطية الأبراشي مجموعة قصص.. وسلسلة "روضة الطفل" لصغار الأطفال، وهى أول مجموعة من نوعها باللغة العربية نشرت قصصا مبسطة ومزينة بالصور الملونة. وكان سيد قطب (أحد أقطاب جماعة "الأخوان المسلمون" فيما بعد) المشرف عليها يعاونه أمينة السعيد ويوسف مراد.

وكان شفيق متري اتفق مع شركة "مونوتيب" الإنكليزية على صنع حروف عربية جديدة، بدأ التعامل بها لأول مرة في منشورات "دار المعارف" عام 1945. وفي 1950 انتقلت الدار إلى مبناها الذي ما زال قائما مطلا على النيل (5 شارع مسبيرو)، وإن احتفظت بفرع الفجالة القديم. كما كان لديها فرع في ميدان المنشية بالاسكندرية.

وحين طال التأميم "دار المعارف" شعر شفيق متري بغصة ألم. وسافر إلى لبنان. ومات في فرنسا عام 1994، عن عمر ناهز التسعين.

أهـــــل الـــــقــلم

إبـراهـيـم الـيـازجـي

الأديب والعلاّمة اللغوي. كان أبوه ناصيف اليازجي أديبا وعلامة في اللغة العربية. غير أن الابن تفوق عليه في مجاله وتجاوزه إلى مجالات أرحب. وكان ناصيف تعمق في اللغة العربية وصار مرجعا، لكنه لم يعرف سواها. بينما تعلم إبراهيم الفرنسية وألمّ باللغتين السريانية والعبرية.

ولد إبراهيم اليازجي في كفر شيما في 2 آذار 1847. تشرب مباديء اللغة وحبها من أبيه، ونظم الشعر وهو في مطلع الشباب. كما تعلم مباديء الفقه الحنفي على الشيخ محي الدين اليافي، أحد أشهر أئمة بيروت. وكانت الصحافة اللبنانية في بواكير نهضتها، وما لبث إبراهيم اليازجي أن أصبح محرر صحيفة "النجاح" عام 1872. وبعد الصحافة اشتغل بتدريس اللغة العربية في المدرسة البطريركية في بيروت. ومن تلاميذه الشاعر خليل مطران. ثم تولى الإشراف على مطبوعات الآباء اليسوعيين. وكان البروتستانتيون أصدروا ترجمة عربية للكتاب المقدس عهدوا بضبط لغتها وتنقيحها

إلى ناصيف اليازجي وبطرس البستاني ويوسف الأسير[20]. وأراد اليسوعيون الكاثوليك إصدار نسخة عربية أخرى. وكلفوا إبراهيم اليازجي تنقيح العبارة من حيث الإنشاء وضبطها نحويا ولغويا. فجاءت طبعتهم أفضل ترجمة، أفصح في الصياغة وأجزل في الأسلوب. وكان إبراهيم اليازجي تعلم السريانية والعبرية لكي يتمكن من المطابقة مع الأصل. لكنهم لم يطلقوا يديه في ترجمة العهد الجديد كما في ترجمة التوراة.

كما عكف إبراهيم اليازجي على إعادة طبع كتب أبيه، ومنها شرح ديوان المتنبي، بعد تنقيحها وإضافة واختصار ما يلزم. وفي 1882 ندب ليشغل منصب قائم مقام زحلة فرفض المهمة، مفضلا الأدب على المناصب السياسية. وفي 1883 نشر قصيدته الخالدة "تنبهوا واستفيقوا أيها العربُ/ فقد طمى الخطب حتى غاصت الرُكَبُ". وفي السنة التالية تشارك مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل سعادة (والد أنطون سعادة

(20) يوسف الأسير، من أعلام الفقه واللغة العربية. ولد في صيدا عام 1815. وفي 1833 توجه إلى القاهرة ودرس في الجامع الأزهر لمدة سبع سنوات. عهد إليه البروتستانت في بيروت، وهو الشيخ المسلم السني، بتحرير الترجمة العربية للكتاب المقدس بالاشتراك مع ناصيف اليازجي وبطرس البستاني. وهى مساهمة فريدة في نوعها. درّس يوسف الأسير اللغة العربية في الكلية السورية الإنجيلية وفي المدرسة البطريركية في بيروت. توفي عام 1899.

مؤسس الحزب القومي السوري الاجتماعي) في إصدار مجلة "الطبيب". كانا يحرران المقالات العلمية والطبية، وهو كان ينشر أبحاثه الأدبية بعنوان "أماليّ لغوية" جعلت له مكانة مرموقة بين اللغويين العرب. لكن المجلة لم تعمر أكثر من سنة. فانشغل إبراهيم اليازجي بدراسة الفلك والرياضيات وراسل الجمعية الفلكية الفرنسية والسويدية ونالت أبحاثه تقديرهما.

كما ساهم في تحسين أحرف الطباعة العربية التي كانت تستورد من أوروبا، لكن استخدامها معقد وشكلها غير جميل. فصمم اليازجي أحرفا جديدة جميلة الخط وسهلة الاستعمال وسكّها في مطبعة سركيس (ناشر "لسان الحال") فأصبحت تعرف بـ "حرف سركيس"، وهى الأحرف الأكثر شيوعا في بلاد الشام ومصر.

ثم وجد إبراهيم اليازجي أن مصر هى الواحة الفكرية والأدبية، فعزم على الهجرة إليها. وهيأ نفسه برحلة إلى أوروبا، اطلع فيها على فنون الطباعة. وانتقل إلى مصر عام 1895. وكانت الحقبة المصرية في حياته (12 سنة) خصبة، غنية بالكتابة والإبداع. بدأها شريكا لبشارة زلزل في تأسيس مطبعة وفي إصدار مجلة "البيان" وفيها نشر مقالاته "اللغة والعصر". وبعد سنة انفصلا.

بعدها أصدر إبراهيم اليازجي بمفرده مجلة "الضياء" عام 1898. "مجلة علمية أدبية صحية صناعية، تصدر مرتين في

الشهر". مكاتبها في شارع الفجالة. وتطبع لدى مطبعة "المعارف". ولها وكلاء في الاسكندرية، ولبنان وسوريا وفلسطين والعراق واستراليا والولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين. أدخل فيها حرفا طباعيا من تصميمه (بنط 20) متوسط بين الحرفين الكبير والصغير. كما ابتكر تصميما للحركات على الأحرف العربية لتصوير الحركات الأوروبية التي "لا وجود لها في لساننا" ومنها o "التي بين الضمّ والفتح" وe "التي بين الكسر والفتح" وu التي "بين الضم والكسر" وeu "الجامعة للحركات الثلاث. وذكر إبراهيم اليازجي أنه اعتمد طريقة قريبة من "الوجه الذي ذكره ابن خلدون، أي أن يُعَبَّر عن اللفظ المتوسط بين حرفين برسم الحرفين مقترنين، حتى يكون اللفظ ممتزجا منهما. فجعلنا علامة الحركة التي بين الضم والفتح o مركبّة من ضمة وفتحة". وعلى هذا النحو تصرف بالنسبة إلى الحركات الأخرى. كما ذكر أن ذلك سيفيد أيضاً "في كتب التعليم التي يقصد بها تصوير اللفظ الأعجمي بالحرف العربي".

ولابراهيم اليازجي بحث قيم في موضوع التعريب نشره في "الضياء". ونحن ما زلنا ندين له بالفضل لوضعه بعض المصطلحات العربية المقابلة لنظيراتها الفرنسية. منها ما اندثر كوضعه الأُربة مقابل cravate (المصطلح الحالي: ربطة العنق) أو الشِحنة مقابل police (الشرطة) أو الشاري paratonnere (الواقية من الصواعق). لكن منها مما ظل قيد الاستخدام

مثل: البيئة مقابل milieu والحساء soupe والحوذيّ cocher والدُرّاجة bicyclette (وضعها اليازجي بضم الدال) والطلآء vernis واللولب vis والمأساة tragedie والمجلة revue والمقصف buffet والمقصلة guillotine والبائنةdot (مهر العروس. ويستخدم العامة كلمة دوطة). ومنها ما هو ما زال مثبتا في القواميس مع إضافة مصطلح آخر عصري، كما تجد في قاموس "المنهل". وفي الأمثلة التالية، أضع أولاً مصطلح اليازجي الذي احتفظ به مؤلفا المنهل (جبور عبد النور وسهيل إدريس) ثم إضافتهما العصرية. الحسَر/ قصر النظر مقابل myopie.. الرثية/ داء المفاصل، الروماتيزم مقابل rhumatisme.. الدرئية/ ستار، ستارة، حاجب، عاكس، شاشة ecran.. الطارئة/ جالية في المهجر، مستعمَرة colonie .. المِنضَحة، رشّاشة douche.. (الكلمة الشائعة في الكتابة العربية الحالية هى الكلمة الفرنسية ذاتها: الدوش.. وفي قاموس "السبيل" لدانيال ريغ الاستاذ في السوربون تجد "منضحة").. وثمة مصطلحات اكتفى "المنهل" بوضع اليازجي لها وأضاف الشرح، مثل: شِعار (النبـَّالة) مقابل armoiries والأُسرُب (هباء رصاصي يصنع منه رصاص الأقلام) مقابل plombagine.. ومنها ما أثبت "المنهل" مصطلح اليازجي وأضاف إليه الاسم الأجنبي بأحرف عربية مثل: الراجبية/ بكتريا مقابل bacterie.. ومنها ما أغفل "المنهل" مصطلح اليازجي واستعاض عنه بغيره يشرحه،

مثل: وضع اليازجي "ذُريرة" مقابل microcoque وفي "المنهل": مكوّرة دقيقة (جرثومة صغيرة مكوّرة في الزلال أو الخل الخ).

وإضافة إلى بحث "التعريب" نشر إبراهيم اليازجي في "الضياء" مجموعة من الأبحاث اللغوية المهمة في سلسلة من المقالات. ومنها "لغة الجرائد" وكان يصحح فيها الأخطاء الشائعة، من مثل: عَرض حرس الشرف، بدلا من "استعرض" الشائعة. لأن بادئة (استـ) تفيد طلب الشيء. واستعرض تصح إذا كان حرس الشرف بعيدا وطلب منه الحضور. وخطأ شائع آخر (ما زال يقع في مطبه كتاب عرب كبار إلى يومنا هذا) يظهر في قول "نخر السوس عظامه" وينبه اليازجي إلى أن نخر فعل لازم، والصواب "نخرت عظامه من السوس". ومن هذه السلاسل "أغلاط العرب" وفيها انتقد بعض الأخطاء اللغوية التي وقع بها قدامى العرب، خصوصا الشعراء. من مثل قول عمر بن أبي ربيعة: "إذا خدرت رجلي أبوح بذكرها/ ليذهب عن رجلي الخدور فيذهب". قال اليازجي: "جعل مصدر خَدِر الخدور، وهو ما لم يرد به سماع ولا يساعد عليه القياس. لأن قياس فَعِل اللازم أن يجيء مصدره على فَعَل بفتحتين كالحذر والعطش والسغب".. ومن أبحاثه أيضاً: "اللغة العامية واللغة الفصحى".. "أصل اللغات السامية".. "نقد لسان العرب" وفيه انتقد الطبعة المتداولة من معجم (لسان العرب)..

و"أغلاط المولدين" بيّن فيها ما وقع للمولدين من الغلط اللغوي منذ صدر الإسلام إلى زمان اليازجي، وفي جملة ذلك ما وقع لأبيه ناصيف ثم ذكر ما وقع هو نفسه فيه من الخطأ.

ومن مؤلفات إبراهيم اليازجي "نجعة الرائد في المترادف والمتوارد" وهو في ألفاظ اللغة العربية وتراكيبها، من ثلاثة أجزاء. نشر اثنين منها، وظل الثالث مخطوطا. وله "الفرائد الحسان من قلائد اللسان" وهو معجم يشتمل على المأنوس من كلام العرب الأولين تطرق فيه إلى موضوعات المولدين والمحدثين. وكان بدأ تأليفه في بيروت وحمله معه إلى القاهرة، غير أن العمر لم يمهله ليكمله. أما ديوان "العِقد" الذي ضمّ قصائده، فكان في معظمه بخط يده، صوره فوتوغرافيا ابن أخيه حبيب اليازجي وطبعه في البرازيل بعد وفاته.

وقد عاش ابراهيم اليازجي عازبا، فتفرغ للبحث والكتابة. وفي أوقات الاستراحة يعزف على العود. وقد كتب على عوده بيتين: "وعودٍ صفا الندمان قِدما بظلـّه/ وما برحت تصفو لديه المجالسُ/ تعشقه طير الأراكة أخضراً/ وحـنَّ عليه ريشه وهو يابسُ". أو يلعب النرد (طاولة الزهر) مع الأصدقاء، ويدخن الشيشة (النارجيلة). بل كان يدخنها أيضاً أثناء الكتابة. وفي أواخر أيامه أصيب بسرطان في

الكبد، وتوفي في منزله بالمطرية يوم 28 ديسمبر 1906.
ورثاه خليل مطران بقصيدة قال في مطلعها:

ربّ البيان وسيـّد القلـمِ
وفـيّيت قسطك للعـُلى، فـنَـمِ.

جـمـيل نـخـلـه مـدوَّر

ولد في بيروت عام 1862. أبوه ميخائيل مدور كان مترجم القنصلية الفرنسية في بيروت. واشتغل بالتجارة وأصاب ثروة. كان محبا للأدب والأدباء، طبع على نفقته كتاب "مجمع البحرين" لناصيف اليازجي. ودعم خليل الخوري في تأسيس جريدة "حديقة الأخبار". ونشأ ابنه جميل على حب الأدب.

انتقل جميل إلى مصر أواخر القرن التاسع عشر وأقام في القاهرة. اشتغل في مجلة "المقتطف" التي كان يصدرها الثلاثي فارس نمر ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس. كما عمل محررا في جريدة "المؤيد" لصاحبها الشيخ علي يوسف. وهو عاد إليها في أواخر حياته.

ألف كتبا في التاريخ، منها "حضارة الإسلام في دار السلام" عن بغداد. كتبه بلسان رحالة فارسي جاء إلى بغداد في عهد الرشيد، فوصف أحوال الدولة العباسية متناولا السياسة والأدب والاجتماع. وقد نقحه الشيخ إبراهيم

اليازجي. نشره جميل مدور في القاهرة مرتين، الأولى في مطبعة "المقتطف" عام 1888 والثانية في مطبعة "المؤيد" عام 1905. وله أيضاً "تاريخ بابل وأشور" و"التاريخ القديم". كما ترجم رواية تاريخية بعنوان "أتالا".

توفي بالقاهرة يوم 24 يناير عام 1907.

شبلي الشميّل

ولد في كفر شيما عام 1850. درس في الكلية السورية الإنجيلية في بيروت وتخصص في علوم الطب وكانت رسالته في موضوع "تأثر الإنسان والحيوان بالمناخ والطبيعة والبيئة". تخرج عام 1871. ثم أرسله والده إلى فرنسا فأقام سنتين في باريس يعمّق دراساته في الطب. وبعدها انتقل إلى اسطمبول واجتاز الامتحان في الطب بنجاح كبير. ثم عاد إلى لبنان، لكن إقامته فيه لم تطل، إذ توجّه عام 1875 إلى مصر وأقام في مدينة طنطا يمارس الطب ويهيأ نفسه لنشر أفكاره المادية. وكان شعاره "الحقيقة أن تُقال، لا أن تُعْلَم".

وقد مثلت المادية عنده نظرة فلسفية منهجية شاملة "قائمة على مباديء علمية تتمتع بصحة الرياضيات". وقد رفض وجود قوة مستقلة عن المادة "يستحيل البصر بلا عين أو الفكر بلا دماغ". وآمن بوحدة الطبيعة "كل الحوادث التي تحدث فيها، منها، بها، وإليها، متحولة بعضها عن بعض

وراجعة بعضها إلى بعض، لا تستقر على حال ولا تثبت على صورة، والبقاء غير متوفر فيها إلا للكل".

واعتبر العلوم الطبيعية "أم العلوم الحقيقية، ويقتضي أن تكون أم العلوم البشرية، وأن تـقُـدّم على كل شيء، وأن تدخل في تعليم كل شيء". وهو يشرح أسباب تفوق العلوم البحتة على العلوم البشرية: فالفلسفة "ستصبح مبتذلة في مستقبل الأيام". وعلوم الكلام "أشبه بهذيان المصدعين لتفسير ما لا يفسر، وتأويل ما لا يؤول، وتطبيق ما لا يطبق". وعلوم اللغة "صارت مماحكات لا طائل تحتها، لا كلاما وضع للتعبيرعن الفكر. والشعر إغرابا لا إبداعا. وعلوم الفقه سخافات يتنزل العقل فيها إلى حد التبذل. وعلوم القوانين لاهوتا ثانيا لا يـفُهم. (...) وصارت علوم الآداب والفلسفة المترتبة على ذلك كله هياما في الأوهام لا ضابط لها إلا الخيال. وعلى هذه المباديء النخرة شاد الإنسان بنيان نظاماته الاجتماعية المتقلقلة". واعتبر الشميل التاريخ عثرة في سبيل تقدم الحضارة ورقيها، لأنه "يحملنا على النظر إلى الوراء فنسير سيرا بطيئا، في حين يجب أن ننظر إلى الأمام لنتقدم بخطى واسعة".

وكان شبلي الشميّل معجبا بمذهب داروين وقرر أن يعرّف القراء العرب به، فنشر المقالات التي تشرح هذا المذهب العلمي المادي، ثم نقل إلى العربية كتاب الألماني بوخنر " ست محاضرات في شرح نظرية داروين " ونشره

عام 1884 ووضع له مقدمة دافع فيها عن هذه النظرية التي أسماها "نظرية النشوء والارتقاء". وكثر منتقدوه فانبرى لهم يردّ عليهم، وذكر " أن هذه الرجّة التي حصلت اليوم هى المقصودة مني لإيقاظ الأفكار من نومها العميق، والحركة مهما كانت خير من السكون". وعلـّق قائلاً : "مع أن نسخ الكتاب لم تتجاوز الخمسمئة، فلقد أحدث لغطا قليله من الخاصة المعدودة، فقاموا ينفونه كله أو بعضه، كلٌ على قدر علمه أو حسب هواه، وكثيره من العامة الذين أكثروا من الجلبة عن سماع لا عن مطالعة، لأنهم سمعوا أن فيه مساساً بأعزّ شيء لديهم هم عليه حريصون عن إرث وعادة لا عن تدبير وروية". وفي العام التالي نشر شبلي الشميّل كتابا آخر بعنوان "الحقيقة" وصفه بأنه "رسالة تتضمن ردوداً لإثبات مذهب داروين في النشوء والإرتقاء". وقد صاغه بلغة عربية بليغة، هو الذي هاجم الأدب لصالح العلم.

وانتقل شبلي الشميّل إلى القاهرة وأصدر في مطلع 1886 مجلة "الشفاء"، وواصل مهمته في نشر الفكر العلمي، الذي سيؤدي إلى " تغيير الإنسان تغييرا جوهريا بحيث يتجدد كليّاً". وحين ينتقل من النظرية إلى التطبيق يرى ضرورة التعاون بين شرائح المجتمع "كما أن الجسد يكون صالحا للبقاء عندما تعمل كل أجزائه بتعاون". ويشدد على أن الاتفاق على الخير العام لا يمكن من دون توفر الحرية والعدالة الاجتماعية. فالسلطة القائمة على المصلحة المتبادلة

بين الناس هى المعيار الأساسي للقانون العادل. والمجتمع المتمدن حقا لا يمكن أن يقبل بالطغيان أو يرضخ للحكم العشوائي. وهاجم شبلي الشميل استبداد الحكام ودعا إلى الجمهورية الحقيقية "التي يتم فيها توزيع الاعمال على قدر المنافع العمومية، بحيث تتوفر معها المنفعة لكل فرد في الاجتماع بدون أدنى تمييز مطلقا".

وكان من الطبيعي أن يدعو شبلي الشميل اليساري إلى الاشتراكية. وهى "نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول إليها، ولو بعد تذبذب طويل. (...) كلما ارتقى الإنسان وزاد اختباره، استخدم هذا الاختبار لتقصير مدة الوصول إلى الاشتراكية". لكنها ليست الاشتراكية على النمط الأوروبي السائد آنذاك حيث الصراع الطبقي والملكية الفردية من الأولويات. أساس الاشتراكية عند الشميل "تبادل المنفعة ينبغي أن يكون على قدر العمل". وهى تدعو إلى "مشاركة عادلة في الفوائد بين العمال ورأس المال". ورأى الشميل أن socialisme ترجمتها "الاجتماعية"، وقال "إن كلمة اشتراكية مستمدة من كلمة مجتمع، المستمدة من كلمة عمران".

وكان الشميل العلماني من دعاة فصل الدين عن السياسة. وتدرج في بسط أفكاره بهذا الصدد. في البداية يحدد "أن الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية في سبيل العمران، بل رجال الدين أنفسهم". وإلى هؤلاء يوجه أقذع الكلام "يا مقلنسي

الجهل ومعممي الضلال، أين رأيتم في أديانكم ما يسمح لكم بأن تزرعوا في رؤوس أتباعكم الجاهلين التفريق بين الناس إلى حد التباغض والتقاتل". ثم يصل إلى صيغة توفيقية يعرب فيها عن وجهة نظره بالنسبة إلى الدين "دينا التوحيد السائدان اليوم هما دين الانجيل ودين القرآن. الأول يعلمنا التساهل (...) والثاني يجعل الفقير شريك الغني في ماله (...) وكلاهما فيه من الحكم الرائعة والآداب العالية، ما يجعلهما في مبدأهما الاجتماعي مطابقين لرأي أعظم الفلاسفة المصلحين الاجتماعيين اليوم". ثم يصل إلى الدعوة الصريحة إلى فصل الدين عن الدولة، متخذا من أوروبا المثال، فهى لم تصبح متقدمة وقوية إلا عندما تبددت سلطة الإكليروس تحت ضغط إصلاح مارتن لوثر ثم الثورة الفرنسية. ودافع الشميل عن العلمانية بحماسة لا لبس فيها، لكن إذا اصطدمت بحرية الرأي لدى الآخر، انتصر للحرية وأفرد لها مقام الصدارة. وقد رفض أن تمس حرية الاعتقاد. ويوم احتفل إيطاليو الاسكندرية بذكرى غاريبالدي ورفعوا شعارا يقول (لا يدرك العلم والأدب إلا بزوال العقائد والأديان) استنكر الشميل ذلك الأسلوب وكتب "إن العلم يعلمنا حرية الفكر، فكيف يجوز له أن يعلمنا الإكراه في الإلحاد؟ إن ذلك ضرب التعصب مقلوب الوضع".

وبقدر الوضوح في مواقفه العلمية والفكرية، ساد بعض

مواقفه السياسية غموض. وتحير البعض، حتى من أنصاره، في تفسير موقفه المبرر للاحتلال البريطاني "مصر تحت سيطرة الانكليز انتظم ريّها واتسعت زراعتها وأثرى فلاحها وصارت حياته ذات قيمة، وانتظمت ماليتها حتى صارت موضع ثقة العموم، وبلغت الحرية فيها مبلغا تفتحت له أبواب السجون". أو في موقفه لدى بحث مد امتياز شركة قناة السويس، وكانت مصر بأحزابها كافة وبرأيها العام تصر على عودة الامتياز إلى مصر، فعارض الشميل ذلك معتبرا قناة السويس ملكا للعالم "حقوق الأمم هى فوق حقوق كل فرد مهما تعاظم، وحقوق العالم أجمع فوق حقوق كل مملكة". والواقع أن شبلي الشميل كان بلا انتماء وطني. وطنه العلم، وهو بذلك "أممي". ومن هذا المنطلق لا تعنيه ملكية القناة. ومع ذلك، فإن اللامنتمي والأممي لا يجوز له أن يقبل باقدام دولة على احتلال دولة أخرى، أيا كانت أسماء الدول وحجمها، ولا بنهب ثرواتها. وقد بلغ استهجان الناس مسامع الشميل، فاستدرك في مقال آخر مصححا بعض الشيء، منتقدا إهمال التعليم "الحكومة الانجليزية في فتوحاتها قلما تهتم بالتعليم، ولم تجرد الحسام إلا لتفتح طريقا لتوسيع نطاق تجارتها ولتحويل ثروة الأمم إلى خزائنها".

وظل شبلي الشميل يمارس الطب ويدافع عن آرائه الجدلية، حتى أدركه الموت في الأول من يناير 1917.

فرح أنطون

كان يمكن أن أتناول سيرة فرح أنطون مع أقرانه الصحافيين. وكان يمكن أن يكون مكانه مع أهل الأدب والعلم. وله مكانه مع المسرحيين، ومع المناضلين فكريا وسياسيا. كان مزيجا من ذلك كله، بيد أنه بالأساس صاحب قلم.

ولد فرح أنطون في طرابلس (شمال لبنان) عام 1874. ودرس في كفتين، واشتغل في تجارة الأخشاب مع أبيه، ثم مستقلا. ولم يكن بمزاجه مهيأ للتجارة، فتولىّ إدارة مدرسة في طرابلس تابعة لجمعية خيرية من طائفة الروم الأرثوذكس. لكنها كانت مدرسة مختلطة تجمع في إدارتها ومدرسيها وطلابها خليطا من الطوائف كافة، ما أبعدها عن التعصب. وظل فرح أنطون يتذكرها "هذه المدرسة تركت أثرا أدبيا لم يبرح نفسي قط، ولعله كان ذا تأثير على أفكاري في كل حياتي". وأسس جمعية أدبية، ثم قرر الهجرة إلى مصر التي استقطبت أصحاب الأقلام والرأي في العالم العربي.

وصل إلى الاسكندرية في مطلع يناير1898، وفيها باشر الكتابة في "صدى الأهرام". ثم نشر مجلة "الجامعة العثمانية" (ثقافية سياسية نصف شهرية) صدر العدد الأول منها في 15 مارس 1899. واستمرت ستة أشهر. انتقل بعدها فرح أنطون إلى القاهرة، حيث نشر "الجامعة" من سبتمبر

1899 إلى 1904. وفي هذه المجلة بدأ يروج لأفكاره التقدمية المناهضة للاستعمار والداعية إلى الاهتمام بالعلوم. وفي 1905 هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأصدر "الجامعة" في نيويورك في 1907 و 1908، حيث ضاق بالغربة وعاد إلى القاهرة. وفي مقال بعنوان "في ظل شلالات نياغرا" كتبه في المهجر الأمريكي كشف عن انتمائه إلى الفكر الاشتراكي. قال مخاطبا الشلال "الشعوب يأكل في داخلها كبيرها صغيرها، وقويها ضعيفها، كما تفعل أسماكك (...) روكفلر يملك من المال ألف مليون، بينما ملايين من البشر يستعطون الخبز الآن ولا يجدونه".

وكان في طريق عودته إلى مصر، التقى في باريس بمحمد فريد زعيم "الحزب الوطني" ووعده بالكتابة في صحف الحزب. وبرّ بوعده فور وصوله إلى العاصمة المصرية ونشر مقالاته في "اللواء" و"البلاغ المصري". ونشر مقالا واحدا في "مصر الفتاة" كلفها المنع النهائي من الصدور. وبرغم مقالاته غير المرغوب فيها من السلطة، وجد مساحات للنشر في الصحف المعارضة. وإن كان نشر بعض المقالات بتوقيع (ف أ) أو (فران).

وقبل أن يكتب فرح أنطون كثيرا، كان قرأ كثيرا أيضاً. ونهل من التراث العربي ومن الفكر الأوروبي. أعجبه فولتير ونيتشه وكارل ماركس وتولستوي ومكسيم غوركي وخصوصا ارنست رينان، كما أعجبه عمر الخيام وابن طفيل وخصوصا

ابن رشد. وكان في مجلة "الجامعة" يكتب عن هؤلاء وعن أفكارهم.

وفي مقاله عن ابن رشد، عرض سيرة الفيلسوف الأندلسي، وفكره وما آل إليه مصيره. من دون أن يكشف تبنيه الصريح لفكره. وإن كان رفضه للحكم على ابن رشد يشي بموقفه الصريح. قال فرح أنطون "لا يجوز للناس أن يمنعوا العقل البشري من الانطلاق في جو الفكر لطلب الحقيقة والعلم والنور بالآلات العقلية التي منحها الله إياها، دون تضييق على هذه الآلات وإيقافها في مجراها. لذلك يجب على كل واحد من البشر أن يحتمل رأي غيره وإن كان مخالفا لرأيه". وكان أكثر صراحة حين شرح السبب الذي جعله يكتب عن ابن رشد، فالقصد هو "تقريب الأبعاد بين عناصر الشرق وغسل القلوب وجمع الكلمة، لا أن يبرهن الفريق الواحد للفريق الثاني أن دينه أفضل من دينه، فهذا أمر قد مضى زمانه. فهذا الزمان زمان العلم والفلسفة يقضي بأن يحترم كل فريق رأي غيره ومعتقده". وكلفه هذا الرأي جدالا كبيرا، كان خصمه فيه الشيخ محمد عبده. لكنه سجال ارتقى إلى مستوى العلم.

وحين كتب عن إرنست رينان، انتهز الفرصة لترويج فكرة عزيزة على قلبه "لو كانت إحدى الهيئات الاجتماعية أو إحدى الديانات أو إحدى الفلسفات، قد حازت الحقيقة المطلقة لكانت تغلبت على ما بقي وعاشت وحدها في عصرنا

الحاضر. إذاً، فكل الذين ظنوا أن الحقيقة في جانبهم منذ البدء حتى اليوم، قد أخطأوا في هذا الظن". والواقع، أن فرح أنطون استدعى رينان وابن رشد، ليصل إلى مشروعه المطالب بتحقيق العلمانية.

و العلمانية عنده لا تحارب الدين، إنما تنادي بفصله عن الدولة. وهو رأى أن الأديان جميعا، من حيث التعاليم، دين واحد ينشد نشر الفضيلة. وهى تجعل الناس متساوين في الحقوق والواجبات. حتى الذين لا دين لهم لا يختلفون عن سواهم في الطبيعة والحقوق. وأكد فرح أنطون "أن الدين علاقة خصوصية بين الخالق والمخلوق" لكنه رفض "اتخاذ الأمور الدينية سبيلا إلى الأمور السياسية في الدولة". وطالب بفصل التعليم الديني عن مدارس الدولة حيث ينبغي أن يتلقى الطلاب من مختلف الأديان دروسا علمية موحدة "أما الدروس الدينية والمباديء الدينية، فتدرس في المعابد والمنازل".

وشرح فرح أنطون الأسباب الموجبة لفصل الدين عن الدولة. أولها، اختلاف الأهداف. فالدين يهدف إلى العبادة والفضيلة. وبما أن كل دين ينسب الحقيقة لنفسه، كان من الخطر إذا أصبحت السلطة الدينية هى السلطة السياسية، أن تضطهد الذين يخالفونها. أما الدولة فواجبها حماية حرية الإنسان بموجب القانون والدستور، أيا كان انتماؤه. وثانيها، أن المجتمع الصالح يقوم على المساواة بين أبناء الأمة

أجمعين. وثالثها، أن السلطات الدينية تعمل للآخرة، بينما الدولة تعمل للدنيا. ورابعها، أن الجمع بين الدين والسياسة يضعف الدين، لأنه يعرضه لمخاطر السياسة والانزلاق إلى تلبية رغبات الجمهور وهى قد تكون متعصبة ومتناقضة مما يؤدي إلى الصدام بدلا من التوحيد. وذكّر بأنه "إذا كانت البلدان الأوروبية اليوم أكثر تساهلا، فليس ذلك لأنها مسيحية، بل لأن العلم والفلسفة جرّداها من التعصب الديني الأعمى، وتم فيها انفصال السلطات".

وفي السياسة كان فرح أنطون اشتراكيا. منذ الكتابات المبكرة كمقال "آفات التمدن الحالي" الذي نشره في مجلته "الجامعة" في إبريل 1901 وهاجم فيه النظام الرأسمالي، وشبه فيه الرأسماليين بدود العلق الذي يمتص دماء البشر. وكرر الرأي ذاته في مقالات لاحقة خلص فيها إلى المطالبة بدولة "التعاون الاجتماعي والتضامن البشري بين جميع طبقات الأمة". إلى أن رأى أن القول يجب أن يقترن بالفعل، فكتب: "بث المباديء الاشتراكية وحده لا يكفي لتأييد الاشتراكية، بل لابد من تحريض أنصارها على تنفيذها بالقوة. ولابد من غرس فكرة التحريض في الناشئة الجديدة، وإلا بقيت الاشتراكية فلسفة نظرية إلى ما شاء الله". وقدّر لفرح أنطون أن يعيش ليتابع أنباء نجاح الثورة الاشتراكية في روسيا عام 1917، فرحب بها في مقالاته في جريدة

"الأهالي" (صحيفة وطنية بدأ صدورها في الاسكندرية في 19 أكتوير 1910. ناشرها عبد القادر حمزة).

ولا ننسى أن فرح انطون كان كاتبا روائيا ومسرحيا أيضاً. وهو أمد مسرح جورج أبيض بالعديد من النصوص، منها ما هو مترجم عن الأدب العالمي مثل "اوديب ملكا" لسوفوكليس، ومنها ما هو من تأليفه، مثل "بنات الشوارع" و"المتصرف بالعباد" و"صلاح الدين ومملكة أورشليم" و"مصر الجديدة ومصر القديمة". وفيها تعبير عن أفكاره في العدالة الاجتماعية ورفض الاستبداد والطغيان. لكنه طرح تأييده للإشتراكية في رواية بعنوان "الدين والعلم والمال" نشرها عام 1903. وعيبها الفني أنها رواية مباشرة، ضعيفة البناء والنسيج، غير أنها معرض للفكر الماركسي.

وفي تنقله بين مختلف ألوان الكتابة، ظل منتميا إلى الصحافة. وفي السنوات الأخيرة كان محررا في جريدة "الأهالي" وكانت انتقلت إلى القاهرة في 1921. وفي سبتمبر من العام نفسه صدر قرار حكومي بتعطيل "الأهالي" ستة أشهر. فظهرت "المحروسة" بدلا منها. واستعدت "الأهالي" لمعاودة الصدور. والتقى فرح أنطون بصهره نقولا الحداد الذي رجاه أن يخفف اللهجة ليقي "الأهالي" غضب الرقيب. ولم يكن فرح ليصغي لمثل هذه النصائح. صدر من "الأهالي" عددان، وصدر قرار إغلاقها نهائيا يوم 5 مايو 1922. وكان فرح أنطون يعاني من مرض شديد، وأصيب

بالإغماء وهو في مكتب "الأهالي" فنقل إلى بيته، وما لبث أن توفي. وبقي الشعار الذي أطلقه "لا تعلموا فحسب، بل إعملوا".

محمد رشيد رضا

ولد محمد رشيد رضا في بلدة القلمون (قرب طرابلس/ شمال لبنان) في 23 أيلول 1865. وكان والده علي رضا إمام مسجد القلمون، معلمه الأول في القراءة والكتابة وحفظ القرآن. ثم التحق بالمدرسة الرشيدية الابتدائية (العثمانية) في طرابلس، وكان التدريس فيها باللغة التركية. وبعد سنة انتقل إلى "المدرسة الوطنية الإسلامية" في طرابلس، وكان مديرها الشيخ حسين الجسر معلمه الثاني. وكان عالما فقيها وأديبا تخرج في الأزهر في القاهرة. وعلى يديه تعلم اللغة العربية والعلوم الشرعية. ثم تابع محمد رشيد رضا تعليمه على أيدي نخبة من علماء طرابلس. وقرأ كتب التراث وأثر فيه كتاب "إحياء علوم الدين" للشيخ الغزالي. وفي 1884، تعرف على مجلة "العروة الوثقى" التي أصدرها آنذاك جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، وذكر لاحقا أن تأثيرها فيه كان أشبه بالسحر. وكان قبل ذلك قد أعجب بالصوفية وانضم إلى الطريقة النقشبندية، ولعله حين تعرف على فكر محمد عبده، غيّر نظرته إلى الصوفية، ولاحقا سيطالب بإصلاحها.

وحين نفي محمد عبده من مصر في أعقاب الثورة العرابية، وفد إلى لبنان وقام بالتدريس في المدرسة السلطانية في بيروت. لكن ظروف محمد رشيد رضا لم تسمح له بمقابلته. غير أنه سعد باللقاء مرتين، حين زار محمد عبده طرابلس. في المرة الأولى كان محمد رشيد رضا مجرد مستمع بين الجمهور، وفي المرة الثانية عرفه بنفسه. وكان تبادل الرسائل مع جمال الدين الأفغاني، وكان يهمّ بزيارته في اسطمبول، سوى أن وفاة الأفغاني عام 1897، حالت دون اللقاء. فقرر محمد رشيد رضا آنذاك أن يهاجر إلى مصر، ليكون على مقربة من محمد عبده، الذي كان في الأثناء عاد إلى القاهرة. أبحر محمد رشيد رضا إلى الاسكندرية، فبلغها يوم 3 يناير 1898، وبعد جولة في الوجه البحري، استقر في القاهرة.

ولم يتأخر عن اللقاء بمثله الأعلى محمد عبده. وصارحه بمشروع نشر مجلة تكون منبرا للإصلاح، فصدرت "المنار" بدءا من مارس 1898. وسيواظب محمد رشيد رضا على إصدارها حتى وفاته. (جمعت في 33 مجلدا بها 160 ألف صفحة). وفي "المنار" كتب بقلم لا ينضب ولا يتعب. وكانت مقالاته المنشورة فيها أساس معظم الكتب التي أصدرها فيما بعد. وبعد وفاة الشيخ محمد عبده عام 1905، أصبح محمد رشيد رضا المرجع في شرح أفكار معلمه الأكبر، والمدافع عنه. وألف كتابا عنه "تاريخ الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده وما جرى بمصر في عصره". وفي 1912 حقق أمنية غالية على قلب أستاذه، فأنشأ محمد رشيد رضا في حيّ الروضة بالقاهرة "دار الدعوة والإرشاد" مدرسة يتخرج فيها الدعاة الذين يشرحون الدين الإسلامي. لكنه واجه صعوبات في تأمين التمويل اللازم، ثم نشبت الحرب العالمية الأولى، فأغلقت المدرسة أبوابها. لكن محمد رشيد رضا لم يكف عن الدعوة عبر "المنار".

وكما كان شبلي الشميل أمميا عالمه العلم، وكان فرح أنطون أمميا عالمه الاشتراكية، كان محمد رشيد رضا أمميا عالمه الإسلام. وهذا ما يفسر عدم انغماسه في السياسة الداخلية المصرية، فهو مشغول بأمر الأمة الإسلامية التي لا تحصر في حدود. على أن الإسلام كان قرين عروبته. كان أخا في الدين للمسلمين عربا وعجما، وأخا في العرق للعرب مسلمين ومسيحيين. ووجد في الآيات القرآنية سندا للأخوتين. لكنه كان يعطي الأولوية إلى ما يوجبه الدين.

وفي نشاطه السياسي، شارك في تأسيس "حزب اللامركزية الإدارية العثماني" في القاهرة عام 1912. ومن رفاقه: رفيق العظم، اسكندر عمون، فؤاد الخطيب، سليم عبد الهادي، نايف تللو، وعلي النشاشيبي. وكان هدف الحزب، أن يظهر للباب العالي مدى الحاجة إلى اللامركزية الإدارية (للعرب) في السلطنة، وأن يعبيء العالم العربي لتأييد اللامركزية (في إطار الدولة العثمانية). وكان محمد رشيد رضا

قبِل بالخلافة العثمانية على مضض واعتبرها خلافة بالضرورة. وأخذ على العثمانيين جهلهم باللغة العربية ما يحرمهم الكفاءة اللازمة للاجتهاد. وأمل خيرا عام 1908، لكن حملة التتريك جعلته ينفر من دون أن يكفر، بل صارح العثمانيين بأن تماديهم في العصبية واضطهاد العرب أحيا العصبية العربية .

وأثناء الحرب العالمية الأولى شارك في المفاوضات مع البريطانيين، على أمل الحصول على الاستقلال، إلى أن لمس تهربهم من وعودهم. وفي أعقاب الحرب، انضم إلى الملك فيصل في دمشق وعيّن رئيسا للمؤتمر السوري عام 1920. وعندما احتل الفرنسيون دمشق غادرها. وكان محمد رشيد رضا عضوا في الوفد السوري الفلسطيني إلى جنيف (1921) وفي اللجنة السياسية السورية إبان ثورة 1925[21].

على أن هذه النشاطات جميعا تبقى هامشية بالنسبة إلى دوره الأساسي: القيّم على أفكار محمد عبده. وقد جعل محمد رشيد رضا هدف "المنار" الإصلاح الديني

---

(21) بدأت الثورة السورية في 21 تموز 1925 ضد قوات الانتداب الفرنسي بهجوم قاده سلطان الأطرش في جبل الدروز، فحاصر قلعة السويداء. امتدت الثورة إلى دمشق وضواحيها. وألقت السلطات الفرنسية القبض على عدد من الزعماء السوريين وتم نفيهم إلى جزيرة أرواد في 26 آب 1925. وفي 18 تشرين الأول 1925 دخل الثوار دمشق، فقامت القوات الفرنسية بقصف العاصمة بالمدفعية قصفا عنيفا. ثم حاولت فرنسا تغيير سياستها ولجأت إلى التفاوض لقمع الثورة.

والاجتماعي للأمة، وإثبات أن الإسلام يتفق مع العقل والعلم والعصر. وقد فسّر سبب تخلف البلدان الاسلامية عن الغرب في المدنية بابتعاد المسلمين عن جوهر الدين. والأمة الإسلامية كانت عاصمة التمدن في العالم حين كانت إسلامية فعلاً. وسعى رشيد رضا إلى التشديد على القواسم المشتركة. فما يسمى في الغرب "العمل" هو في الإسلام "السعي" وما يسمى "التضامن" هو ترجمة غربية لـ "وحدة أبناء الأمة".

ودأبت "المنار" على نشر تفسير الشيخ محمد عبده للقرآن. وكان لدى وفاته توقف عند الآية 125 من سورة النساء، فأكمل رشيد رضا التفسير، على نهج أستاذه، وبلغ سورة يوسف. وحالت وفاته دون إكماله. (نشر بعنوان "تفسير المنار"). وإلى "تفسير المنار" كانت المجلة تهتم بنشر أخبار العالم الإسلامي، إضافة إلى أبواب ثابتة منها الردود على أسئلة القراء، وهى مناسبة لإبطال الشبهات الواردة على الإسلام ودحض ما ينسب إليه من خرافات. ومنها المقالات الخاصة بشرح الدعوة، ومنها باب الفتاوى.

اعتبر محمد رشيد رضا أن ثمة أسس للعقيدة لا مجال للنقاش فيها: القرآن والحديث وإجماع الإسلام الأول، أي الجيل الذي عاصر الرسول. وهو الإجماع الوحيد المقبول والملزم. وكل ما سوى ذلك قابل لإعمال العقل في استنباط الأحكام بما ينسجم وروح الإسلام. لكن ذلك لا يعني أن الفرصة متاحة لمن هبّ ودبّ أن يدلي بدلوه، فالأحكام

تصدر عن أهل الحل والعقد. وعلى نهج استاذه، شدد رشيد رضا على مبدأ حسن النوايا. إذ لا تكفي ممارسة طقوس العبادة بشكل آلي وسطحي. فمن صفات المسلم الصالح: الصدق والإخلاص والأخذ بالعزائم ومحاسبة النفس. والمهم ألا يؤدي ذلك إلى طقوس لا تؤيدها الشريعة. ولخدمة "وحدة أبناء الأمة" دعا إلى تأليف كتاب موحد لشرح العقيدة، على الأسس المتفق عليها في جميع المذاهب الإسلامية، وإهمال المسائل التي ثمة خلافات في تفسيرها. ولما لم يلق التجاوب الذي انتظره من الشيعة، انقلب عليهم، ونسب عددا من البدع والخرفات إلى غلاة الشيعة. وكانت ردة الفعل هذه، تنسجم مع طبيعة محمد رشيد رضا الحادة. فهو يدافع بحسم ويهاجم بلا هوادة، انطلاقا من صدق التزامه بما يؤمن به من أفكار.

ومن فتاوى محمد رشيد رضا دعوته إلى الالتزام بترجيح العام على الخاص، في حال تعارض نص عام مع نص خاص، من مثل "لا ضرر ولا ضرار" أو "الضرورات تبيح المحظورات". على أن الفتوى المثيرة هى تك التي أخرجها في الحكم على المرتد. ميّز بين المرتد العامل ضد الإسلام، وهو بذلك خطر على الأمة، وبين المرتد بصفة شخصية في هدوء. الأول يجب أن يقتل، أما الثاني فلا. وكان رشيد رضا يعلم بأن وجوب قتل المرتد يحظى بتأييد تام من الفقهاء، لكنه تجاوز ذلك ورفضه، متسلحا بالمرجع الأساس. إذ لا

يوجد نص صريح في القرآن يقول بقتل المرتد. بل يجد ما ينفي إذ يستند إلى "لا إكراه في الدين". إذاً، فقتل المرتد في هدوء، غير مبرر شرعيا.

وكانت وفاة محمد رشيد رضا يوم 22 أغسطس 1935. كان عائدا بالسيارة من السويس بعدما ودع الأمير سعود بن عبد العزيز، وكان متعبا وأصابه دوار من ارتجاج السيارة، وما لبث أن أسلم الروح. وكان صديقا لآل سعود، وخصما للهاشميين (الشريف حسين) ومؤيدا للمذهب الوهابي، بعدما كان عارضه في البداية. واتهمه خصومه بأنه انتفع من آل سعود، فنفى ذلك نفيا قاطعا، وردّه إلى التأمل والتفكير. ومما لاشك فيه، أن تأثر رشيد رضا بمذهب ابن حنبل، جعله قريبا في الفكر من الوهابيين.

وقد ترك محمد رشيد رضا العديد من المؤلفات. إضافة إلى ما تمّ ذكره: "الخلافة أو الإمامة العظمى" و"السنة والشيعة" و"مناسك الحج، أحكامه وحكمه" و"الوعي المحمدي" و"حقيقة الربا"و"رسالة في حجة الإسلام الغزالي".

فليكس فارس

كان أديبا وشاعرا ومترجما وصحافيا، مع أنه لم ينتظم في التعليم سوى بضع سنوات. لكنه بذل جهدا في تثقيف

نفسه. ولد في صليما (جبل لبنان) في 27 كانون الأول 1882. كان أبوه حبيب فارس محاميا، وأمه لويز شوفالييه فرنسية الأب سويسرية الأم. وفي البيت أكمل ما لم يحصله في المدرسة. علمته أمه اللغة الفرنسية حتى أتقنها. وثقفه أبوه في اللغة العربية والأدب والقانون. وأحب فليكس فارس المطالعة منذ الطفولة وقرأ كتبا باللغتين الفرنسية والعربية.

اشتغل بالتدريس، كما توظف في إدارة السكك الحديدية، ثم مدرسا في حلب. وأقام في عدة مدن وكان بيته الأساسي أصبح في بلدة المريجات القريبة من شتورا في لبنان. وكانت المهن المختلفة التي مارسها بقصد تأمين العيش، لكنه كان يحقق ذاته في الكتابة. نشر مقالات في "أنيس الجليس" و"الجامعة" و"الهدى". ولاحقا كتب في الصحف العربية الصادرة في أمريكا لدى زيارته الولايات المتحدة عام 1921. وكان فليكس فارس أصدر عام 1909 صحيفة "لسان الاتحاد" وشاركه العمل فيها أمين الريحاني وولي الدين يكن وماري عجمي. وقد عاشت هذه الصحيفة سنتين.

واشتهر فليكس فارس بصداقاته المتعددة مع الأدباء، أينما حل. وهو عندما أقام نحو سنة في أمريكا، كان وطد صداقات مع أدباء المهجر وعلى رأسهم جبران. كما اشتهر بأنه خطيب موهوب باللغتين العربية والفرنسية.

وفي أواخر العشرينات هاجر إلى مصر، وأقام في الاسكندرية موظفا في دائرة الترجمة في بلدية المدينة. وفترة الإقامة المصرية هى التي أصدر فيها الكتب التي أسست شهرته. وأبرزها آخرها: ترجمة "هكذا تكلم زرداشت" للفيلسوف الألماني نيتشه. وقد ترجم فليكس فارس النص عن اللغة الفرنسية. وهى الترجمة التي شاعت في العالم العربي. وقد صدرت لأول مرة في الاسكندرية عام 1938. (الطبعة الثانية في بيروت 1948). كما نشر في الاسكندرية في السنة ذاتها ترجمته لـ "اعترافات فتى العصر" لألفريد دو موسّيه. وكان نشر "رسالة المنبر إلى الشرق العربي" في الاسكندرية عام 1936. وهو كتاب ضمّ مجموعة خطب ألقاها في مناسبات متفرقة، وقصائد غير منشورة كان ألقاها لرثاء أو تكريم أدباء عرب. ومنها "هاتف الخلود" القصيدة التي ألقاها يوم وصول رفات جبران خليل جبران إلى لبنان عام 1931، وقد صاغها وكأنها بلسان جبران. وكرر التجربة في قصيدة أخرى في الكتاب نفسه "إلهام شوقي" تخيّل أحمد شوقي قائلها. وله في الكتاب قصيدة جميلة في الأديب العراقي عبد المحسن الكاظمي يقول فيها: "أتتك القوافي صاغرات يقودها/ إلى كل شطر في قصيدك سيدٌّ".

توفي فليكس فارس بالاسكندرية في 27 يونيه 1939، وبعد أسبوعين نقل جثمانه إلى لبنان.

جورج أنطونيوس

مؤلف كتاب "يقظة العرب" الشهير. ولد في الإسكندرية عام 1892 وكان أبوه حبيب أنطونيوس المولود في دير القمر (لبنان) هاجر إليها. تلقى جورج علومه في ثانوية فكتوريا كوليج الإنكليزية في الإسكندرية، ثم توجه إلى انكلترا فتابع علومه العليا في جامعة كامبردج وتخرج فيها متخصصا في الهندسة. لكنه حين عاد إلى مصر لم يعمل في حقل الهندسة، بل توظف في بلدية الإسكندرية في مديرية الرقابة، لأنه كان يتقن ست لغات: العربية والفرنسية والانكليزية والألمانية والإيطالية واليونانية. ومن هذا الموقع بدأت علاقته بالانكليز.

وبعد الحرب العالمية الأولى، أصبحت فلسطين تحت الانتداب البريطاني. انتقل إليها جورج أنطونيوس والتحق بإدارة المعارف، وتدرج في مراتب الوظيفة حتى بلغ منصب مساعد المدير العام. ثم استقال عام 1935، ليعمل في مؤسسة تشارلز كراين الأمريكية، مندوبا لها في الشرق الأوسط، ما أتاح له زيارات متكررة لدول المنطقة ومقابلات مباشرة مع أبرز شخصياتها. وكان تزوج عام 1930 من كاثي ابنة فارس نمر. وتوحي نشأته ودراسته وعلاقته مع الانكليز في الوظائف التي شغلها، بل وزواجه من ابنة أقرب الصحافيين إلى بريطانيا، بأن جورج أنطونيوس سيكون "رجل الانكليز". لكنه مواقفه و كتابه غير ذلك تماما.

وفي مقابلة مع ثريا أنطونيوس، ابنة جورج، نشرها مسعود ضاهر في كتاب "الهجرة اللبنانية إلى مصر" تشرح أن معرفة أبيها الوثيقة بتفاصيل السياسة البريطانية بحكم موقعه كوسيط أو مستشار، جعلته يفهم خفايا النوايا: "كانت بريطانيا تحاول الظهور كوسيط مقبول من العرب واليهود، لكنها في الحقيقة تعمل على تنفيذ وعد بلفور على حساب عرب فلسطين (...) لذلك أصيب بخيبة أمل كبيرة من السياسة الانكليزية التي تفضّل اليهود على العرب". وتضيف ثريا أنطونيوس أن أباها حرص على نشر كتابه باللغة الانكليزية ليفهم الانكليز مخاطر سياستهم على مصالحهم، وليس على العرب فقط.

في مؤتمر المائدة المستديرة حول موضوع فلسطين الذي عقد في لندن عام 1939، اختير جورج أنطونيوس ليكون أمين سر الوفود العربية جميعا. وبنتيجة هذا المؤتمر صدر "الكتاب الأبيض" الذي اعتبره العرب كسبا كبيرا لحقوقهم في فلسطين العربية. وقبل المؤتمر كان أنطونيوس أصدر "يقظة العرب" قد صدر باللغة الإنكليزية عن دار نشر Lippencot في فيلادلفيا (الولايات المتحدة). ترجمه علي حيدر الركابي إلى العربية، ثم صدرت ترجمة ثانية قام بها ناصر الدين الأسد وإحسان عباس. وكان جورج أنطونيوس أمضى سنوات يبحث في المصادر الأوروبية والأميركية وفي الأرشيف فأضاف ما جمعه إلى ما خبره شخصيا خلال إقامته

وعمله في بلدان المشرق العربي، ووثق كتابه بمستندات حصل على بعضها من مصادرها الرئيسية. وقال إن الهدف من إصدار كتابه هو "أن يروي تاريخا ويبيّن ما فيه من أهمية ومغزى. وليست الغاية منه أن يكون تأريخا نهائيا، ولا حتى مفصّلا للحركة العربية".

تناول في كتابه الحركة العربية في نحو مئة سنة، وتحديدا منذ 1847. ووراى أنها نشأت أدبية عبر "جمعية الآداب والعلوم" التي كان ناصيف اليازجي وبطرس البستاني من مؤسسيها. ومن منطلق الوعي الأدبي باللغة العربية، ولدت التيارات الفكرية فالسياسية. وتابع تطور "القومية العربية" فكريا وسياسيا حتى 1936. وخصص الفصل الأخير لقضية فلسطين، التي "لا يرجى لها حل دائم إلا حتى يزال الظلم". كما رأى جورج أنطونيوس أن الجهود المبذولة لوضع أسس دولة يهودية في فلسطين حولت البلاد إلى مجزرة "لا لأن العرب يمقتون اليهود فطرة، أو لأنهم لا يعطفون على مشكلتهم، بل لأنه لا يمكن أن تقام دولة يهودية في فلسطين دون اللجوء إلى الإجلاء القسري لفلاحين يؤثرون أن يلاقوا الموت على أن يسلموا أراضيهم". ويقترح أنطونيوس الحل بجعل "فلسطين دولة عربية يعيش فيها عدد من اليهود في أمان وسلام وكرامة، ويتمتعون بكامل حقوق المواطنين فيها، على أن يكون العدد الذي تستوعبه منهم قدر طاقتها، دون جور على حريتها السياسية والاقتصادية". ويطمئن لندن بأن

هذه الدولة العربية يجب أن ترتبط ببريطانيا بموجب معاهدة تضمن مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية، كما تضمن حق كل الطوائف في الأماكن المقدسة. ويعترف بأن معاملة اليهود في ألمانيا وأوروبا وصمة عار على أصحابها، لكنه يحذّر: "ليس في أي قانون خلقي ما يسوّغ اضطهاد شعب من أجل انقاذ آخر من الاضطهاد. وعلاج طرد اليهود من ألمانيا يجب ألا يتم بطرد العرب من أوطانهم. وإنعاش اليهود من نكبتهم يجب ألا يتم على حساب نكبة مماثلة تنزل بشعب بريء مسالم".

نشر جورج أنطونيوس "يقظة العرب" عام 1939. وفي 21 مايو 1942 توفي في القدس.

خليل مطران

اشتهر خليل مطران بلقب "شاعر القطرين" وحمله بجدارة باعتباره لبناني المولد والنشأة، أقام الشطر الأكبر من عمره في مصر، وفيها أبدع. وقد كتب عن شعره الكثير، وأصبح في المناهج المدرسية في العالم العربي بأسره. لذلك لن أتناول شعره سوى من زاوية اتصاله بشخصيته، بينما أتناول سيرته وجوانب أخرى من إبداعه، كعمله في الصحافة وإسهامه في المسرح.

ولد خليل مطران في بعلبك عام 1872. أمه فلسطينية

تدعى ملكة صباغ. وفي رسالة بعث بها إلى محمد كرد علي قال: "بعلبك مسقط الرأس وكتاب التهجّي. بها كبا الجواد وتهشم وجهي، فكانت الكبوة الأولى في ميدان الحياة، ولمّا أناهز السابعة من سنّي. (إشارة إلى سقوطه عن الحصان والكدمة التي ظلت علامتها على وجهه). زحلة كتاب القراءة الأولى ومبدأ تنبه الفكر (بدأ تعليمه في المدرسة الشرقية بزحلة[22]). بيروت الدراسة التي بلغت فيها التأديب، رضت قلمي فيها بالنثر والشعر، وأستاذاي قبل الإجازة هما المرحومان خليل وابراهيم اليازجي في المدرسة البطركية. (بدأ خليل مطران ينشر مقالاته وقصائده في جريدة "لسان الحال" البيروتية وهو طالب. وظل وفيا لأستاذه إبراهيم اليازجي، ورثاه لدى وفاته بقصيدة رائعة).

في أواخر القرن التاسع عشر، كانت المشاعر القومية تملكت قلوب الشباب العرب، متماهية بفكرة الاستقلال عن السلطنة العثمانية. وانغمس الفتى خليل في هذه التيارات القومية، وخاف أهله من غضب الوالي العثماني، فأرسلوه إلى باريس. وهناك عكف على دراسة الأدب الفرنسي، واتصل ببعض أعضاء حزب "تركيا الفتاة" المناهض للسلطان

---

(22) "المدرسة الشرقية" أسستها الرهبنة الشويرية (طائفة الروم الكاثوليك) في زحلة عام 1898. ما زالت من أعرق المدارس. تخرج فيها عدد من الأدباء والسياسيين، أبناء زحلة والبقاع.

عبد الحميد. ولم يرغب في الرجوع إلى لبنان، فقصد مصر، واحة الأمان التي سبقه إليها بعض رجال الأدب والسياسة.

وصادف وصوله إلى الاسكندرية عام 1892، وهو في العشرين، وفاة سليم تقلا، مؤسس "الأهرام" فشارك في جنازته ورثاه بقصيدة. وكان أن ضمه بشارة تقلا إلى فريق التحرير في الجريدة حين تعرف على مواهبه. ثم انتقل خليل مطران إلى القاهرة، فعمل مراسلا للأهرام من العاصمة. ولما انتقلت "الأهرام" إلى القاهرة، تولى رئاسة تحريرها لفترة قصيرة، ورشح داود بركات لخلافته. ولم يكن مهيأ للعمل الصحافي اليومي. لذلك أصدر عام 1900 "المجلة المصرية"، أدبية نصف شهرية، نشر فيها قصائده وأبحاثه الأدبية، كما نشر فيها قصائد لأحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وكانت الصداقة نشأت بينهم. واصل إصدارها لمدة سنتين وبضعة أشهر. ثم حولها عام 1903 إلى صحيفة يومية باسم "الجوائب المصرية" تولى التحرير بها علي الغاياتي وحسين شفيق المصري. صدرت لمدة أربعة أعوام وتوقفت، لأن ناشرها لا يطيق العمل الصحافي. وفي 1908 أصدر "ديوان الخليل" (كان الجزء الأول، إذ جمع قصائده ونشرها في ثلاثة أجزاء أخرى صدر آخرها عام وفاته). وفي السنة التالية صدر قانون المطبوعات، فنشر خليل مطران قصيدته اللاهبة: (كسروا الأقلام.. هل تكسيرها يمنع الأيدي أن تنقش صخرا؟/ قطعوا الأيدي.. هل منجاتنا يمنع الأعين أن تنظر

شزرا؟/ أطفئوا الأعين.. هل إطفاؤها يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا؟/ أخمدوا الأنفاس.. هذا جهدكم، وبه منجاتنا منكم، فشكرا). فهدده محمد سعيد رئيس الحكومة بالطرد من مصر، فكتب ردا: (أنا لا أخاف ولا أرجي.. فرسي مؤهبة وسرجي/ لا قول غير الحق لي قول.. وهذا النهج نهجي).

كان خليل مطران شاعرا بالدرجة الأولى. وصفة الشاعر هى التي لازمته، وهى التي خلد بها. لكن الشعر لم يكن ذا مردود مالي يؤمن له مصروفات الحياة. وهو جرب حظه في التجارة فكسب وخسر، إلى أن فوجيء عام 1912 بأنه خسر كل ما يملك. فاعتكف حزينا في ضاحية عين شمس وكتب قصيدته الشهيرة "الأسد الباكي". بعد ذلك تم تعيينه كباحث اقتصادي في الجمعية الزراعية الملكية، فانتظمت شؤونه المادية. وترقى فيها إلى أن أصبح الأمين العام المساعد. ولكونه عاش عازبا، لم تكن عليه أعباء مالية كبيرة، استطاع أن يكتب الشعر براحة بال. ولاحظ أحمد عبد المعطي حجازي الذي أطلق على مطران لقب (القديس البدوي) أنه لم" يحسب على حزب من الأحزاب أو قوة بالذات من القوى السياسية والاجتماعية القائمة". ورد ذلك إلى جذوره غير المصرية. والصحيح أن هذا طبع أغلب "الشوام" في مصر، إذ لم ينغمسوا في الشؤون الداخلية. لكنه ربما بسبب ذلك، خاض في شعره السياسي معترك العلاقة بين الشعب والحاكم، واتخذ موقفا صارما من الاستبداد، ومن الخنوع

أيضاً، مترجما "كما تكونوا يولى عليكم" بأبيات رائعة في قصيدتيه الملحميتين "نيرون" و"مقتل بزرجمهر". في الأولى تساءل: "من يلم نيرون؟ إني لائم أمة، لو كهرته ارتد كهرا" ويختم: "كل قوم خالقو نيرونهم.. قيصر قيل له أم قيل كسرى". وفي الثانية: "ما كان كسرى إذ طغى في قومه.. إلا لما خلقوا به فعّالا/ هم حكّموه، فاستبد تحكما.. وهم أرادوا أن يصول فصالا/ والجهل داء قد تقادم عهده في العالمين، ولا يزال عضالا/ لولا الجهالة لم يكونوا كلهم إلا خلائق أخوة أمثالا/ لكن خفضَ الأكثرين جناحهم، رفع الملوك وسوّد الأبطالا".

وإلى الشاعر، يجدر الإشارة إلى دور خليل مطران في المسرح. كانت له مساهمة في ترجمة بعض المسرحيات العالمية، ومنها "السيد" لكورناي، و"عطيل" و"تاجر البندقية" و"ماكبث" و"الملك لير" لشكسبير. "السيد" عن اللغة الفرنسية الأصلية، ولم يترجم شكسبير عن الإنكليزية بل عن الفرنسية. وبصرف النظر عن إشكاليات الترجمة عن لغة وسيطة، جنح خليل مطران أحيانا إلى لغة عربية شديدة الفصاحة لا تتلاءم مع مناخ النص الأوروبي، كاستخدام تعابير من نوع "وأيم الحق" أو "تالله". لكنه في ترجمة "السيد" كان أقرب إلى نص كورناي. وهو أسبغ على "أوتيللو" اسم "عطيل" وقد طغى على الإسم الأصلي، وهي تسمية موفقة لأن "عطيل" في مسرحية شكسبير عربي.

كما كتب مطران نصا مسرحيا بعنوان "القضاء والقدر" قدمته فرقة جورج أبيض.

وحين أسست الحكومة المصرية "الفرقة القومية" (نواة "المسرح القومي" العريق في القاهرة) عام 1935، أسندت إدارتها إلى خليل مطران. وكان صاحب ذوق في برمجة العروض التي تنوعت بين المسرحيات العالمية، بلونيها التراجيدي والكوميدي، وبين النصوص المصرية أو الممصرة. وكان الافتتاح بمسرحية "أهل الكهف" لتوفيق الحكيم بإخراج زكي طليمات. وضمت الفرقة كبار ممثلات وممثلي مصر. لكن بعد الموسم السابع تراجعت الحكومة عن الدعم بسبب أن الإيرادات أدنى من المصروفات. وكتب خليل مطران مقالا في جريدة "الشعلة" أشاد فيه بجهود الممثلين والمخرجين والكتاب، وقال: (أما ما يقال من أن الفرقة فشلت في أن تجمع للحكومة إيرادا، فهذا آخر ما كنت أظن أن أحدا يأخذه علينا (...) "الصالات" [يعني الكباريهات] في مصر تربح أكثر من أي مسرح آخر، وأكبر كتاب علمي يطبع وينشر على الناس لا يزيد عدد النسخ التي توزع منه عن خمسين أو ستين نسخة، بينما تباع من الروايات والكتب الرخيصة عشرات الآلاف. لكن هذا لا يعني طبعا أن إقبال الجمهور هو مقياس الفشل والنجاح).

وفي عام 1947 منحته الحكومة المصرية لقب "بك". واقيمت له عدة حفلات تكريمية، أبرزها في دار الاوبرا

بالقاهرة، وشارك فيها شعراء وأدباء منهم شبلي الملاط من لبنان وعباس محمود العقاد من مصر. وكان العقاد يعتبر أحمد شوقي شاعر البلاط وحافظ ابراهيم شاعر الشعب وخليل مطران شاعر الشعر.

في 30 يونيه 1949 توفي خليل مطران في القاهرة.

جبران النحاس

ولد في بيروت عام 1882. وقبل أن يهاجر أبوه يوسف النحاس إلى الاسكندرية مع أولاده، كان جبران درس اللغة العربية وآدابها في المدرسة البطريركية في بيروت. نظم قصائده الأولى في أول الشباب، وأرسلها إلى إبراهيم اليازجي في القاهرة، فنشر له بعضا منها في مجلته "الضياء" في باب "مطارحات" (ما يشبه "بريد القراء" اليوم). وبعد سنتين نشر له اليازجي قصيدة "الجدجد والنملة" (1901) مرفعا إياه من مرتبة قراء المجلة إلى مصاف كتابها. والقصيدة "من تعريب لأمثال لافونتين بقلم حضرة الأديب جبران أفندي النحاس". وقد أعاد النحاس نشرها في ديوان له "تطريب العندليب" (دار البصير، الإسكندرية 1940) معظم قصائده تعريب لأمثولات لافونتين. ومشكلة بعض هذه القصائد أن الشاعر تمادى أحيانا في إظهار سعة معرفته بالقاموس العربي، على حساب ما تقتضيه الأمثولة من لغة بسيطة. كما في تعريبه

للقصيدة الشهيرة "الذئب والحمل" التي قال لافونتين في مطلعها: "حجة الأقوى هى الأفضل دائما". وقد عرّبها جبران النحاس: (إن أخا الباس لدى اللجاج/ أفصح منطقا في الاحتجاج/ يفحم خصمه بقول فيصل/ وليس يثني عزمه من معضل/ بالسيف يستغني عن البرهان/ كقصة الخروف والسرحان).

وإلى هذا الديوان، نشر جبران النحاس بحوثا في اللغة العربية. وكان إبراهيم اليازجي مثله الأعلى، ومرجعه في ما كتب. وأول بحث لغوي نشره (مطبعة صلاح الدين - الإسكندرية 1933) كان بعنوان "تنبيهات اليازجي على محيط البستاني" جمعها وحل رموزها سليم شمعون (ابن وردة اليازجي شقيقة إبراهيم) وجبران النحاس. وفي مارس 1947، وبمناسبة الذكرى المئوية لمولد إبراهيم اليازجي نشر جبران النحاس بحثا لغويا طريفا بعنوان "صيغة فُعال، ليست جمعا". شرح فيه أراء اللغويين القدامى، ثم وصل إلى تصنيفه. وقد وجد أن صيغة فُعال تفيد الانتشار، كالدخان واللهاب والبخار، وفي الأصوات كالدعاء والهتاف والصراخ والنواح، وفي الأدواء (لسريانها) كالسعال والزكام والهزال والصداع والجذام. ورأى أن الصيغة استعملت أحيانا للقلة "البُراض" (القليل من الماء والنبات) والبُلال (ما يبل الحلق) وأحيانا للكثرة مثل التراب والدقاق. "بل إنه غلب على لسان العرب الفعال حيثما أرادوا المبالغة وجعلوها أقوى من الفعيل

فقالوا: العجيب والعجاب، واللئيم واللؤام. وقالوا: الخبز الرقاق والماء الفرات والسيف الحسام والرجل الشجاع والطوال والجسام".

وقد تبرع جبران النحاس بشراء مبنى المدرسة البطريركية في الإسكندرية. واستمر مقيما في الإسكندرية (16 ميدان محمد علي، بالمنشية) إلى وفاته يوم 30 مارس 1954.

يوسف كرم

هو من أسرة داغر التي هاجرت من بكفيا (لبنان) إلى مصر في القرن التاسع عشر واستقرت في مدينة طنطا. اسمه الكامل يوسف أسعد كرم داغر. واسم الشهرة يوسف كرم. ولد في طنطا عام 1885. وبعد البكالوريا توظف في البنك الأهلي في طنطا، ثم استقال وسافر إلى باريس، ودرس الفلسفة في المعهد الكاثوليكي. عاد إلى القاهرة عام 1919 فعين معيدا في قسم الفلسفة بجامعة القاهرة، ثم مدرسا فأستاذا. وبعد ربع قرن انتقل إلى جامعة الاسكندرية عام 1944 حتى تقاعده في منتصف الخمسينات. وبعد تقاعده أصيب بالشلل فأقام عند أخته في طنطا.

اشتهر يوسف كرم كمفكر رصين، وكمؤلف لمجموعة من الكتب الفلسفية، ما زالت مراجع يدرسها طلبة الفلسفة في مصر وفي جامعات العالم العربي: "تاريخ الفلسفة اليونانية" الذي نشره عام 1936 و"تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر

الوسيط" (1946) و"تاريخ الفلسفة الحديثة" (1949). ثم تحول يوسف كرم من تأريخ الفلسفة إلى مناقشة موضوعات فلسفية. فأصدر عام 1956 "العقل والوجود" وفيه طرح مشكلة المعرفة العقلية ونسبتها إلى المعرفة التجريبية، وناقش فلسفة الجمال في إطار ما أسماه "لواحق الوجود" التي هى صفات لازمة من معنى الوجود نفسه. وقال: "أول ما ندرك من الجمال، وأكثر ما ندركه، يقع في المحسوسات. فإنها أيسر معلوماتنا اكتسابا، تملأ منا الأبصار والأسماع. وإنما يتحقق فيها الجمال بثلاثة عناصر أو شروط، هى التمام والتناسب والبهاء". وأشار إلى أن حكمنا على الجمال، متأثر بتربيتنا ودرجة تعلمنا وميولنا وأخلاقنا ومنافعنا، كما هو الحال في حكمنا على الخير والشر. وإذن، فالكثير من الأحكام بالجمال أو القبح، يجب أن يعد نسبيا ولا يعتبر صفة للموجودات أنفسها". ثم أتبعه بكتاب "الطبيعة وما بعد الطبيعة" تناول فيه مشكلات المادة والحياة والله، الذي صدر عن "دار المعارف" يوم وفاة مؤلفه يوسف كرم في 28 مايو 1959.

بشر فارس

من مواليد عام 1907، في بكفيا (جبل لبنان). اسمه الأصلي إدوار فارس. كان طفلا حين هاجر إلى القاهرة مع

أهله. أديب وباحث متميز في الفن التشكيلي، خصوصا الفن الإسلامي. توفي في القاهرة في 21 فبراير 1963 بعد إصابته بذبحة قلبية لم ترحمه. وكان شغل منصب الأمين العام الفخري للمجمع العلمي المصري. قال محمد زكي عبد القادر في رثائه: "لست أعرف في المشتغلين في الأدب رجلاً نذر نفسه له في صمت ودون رغبة في الإعلان مثل بشر فارس". وفي مقال لكامل زهيري يعلق فيه على كتاب بعنوان "الإسلام والغرب" صدر عن دار Cahiers du Sud في باريس عام 1957، يصفه بكتاب يكشف جهاد جيل الرواد في النصف الأول من القرن العشرين للدفاع عن الهوية الثقافية والحضارة العربية الاسلامية، يذكر كامل زهيري: "وقد لفت انتباهي أن بشر فارس شارك في الكتاب، ولعله الآن أصبح منسيا إن لم يكن مجهولا. وكان كما عرفته مهموما بالأدب والإبداع والفنون".

أتمّ بشر فارس المرحلة الثانوية في مدرسة الآباء اليسوعيين في القاهرة، وحصل على البكالوريا عام 1924. وكان يتقن اللغتين: الفرنسية والعربية. وسافر إلى باريس، وفي جامعة السوربون درس الأدب العربي! وحصل عام 1932 على الدكتوراه في موضوع "العِرض عند عرب الجاهلية". وعندما نشرها كتب لها المقدمة أستاذه غودفروا دو مومبان. ثم كلفته الانسكلوبيديا الإسلامية كتابة بعض المقالات باللغة الفرنسية.

في عام 1938 نشر بشر فارس أول مؤلف أدبي له: مسرحية بعنوان "مفرق الطريق" صدرت عن "دار المعارف" في القاهرة. ثم ترجمها بنفسه إلى الفرنسية، ونشرتها مجلة متخصصة في المسرح La revue theatrale فقدمت في "مسرح الجيب" في باريس. (ويذكر كامل زهيري أنه شاهد العرض في مونبارناس وكانت مسرحية بشر فارس تعرض مع مسرحية من فصل واحد لبرتولد بريشت). ثم ترجمت إلى الألمانية وقدمت في سالزبورغ ومونستر. وانتظر بشر فارس حتى عام 1960 ليصدر مسرحيته الثانية "جبهة الغيب" عن دار "مجلة شعر" في بيروت. وبين المسرحيتين مجموعة قصص قصيرة نشرها عام 1942 بعنوان "سوء تفاهم". وهذا هو مجمل أعماله الأدبية. وقد يتساءل المرء: أيكفي هذا الرصيد، ليصبح بشر فارس في عداد الأدباء العرب؟ والجواب: نعم. وإن لم تقف مؤلفاته عند هذا الحد. إذ هو أغنى المكتبة العربية ـ والفرنسية ـ بأبحاثه وخصوصا في مجال الفن التشكيلي الإسلامي.

أصدر بشر فارس معظم أبحاثه في منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة. وكان المؤلف يحررها باللغتين: الفرنسية والعربية. وهى بما تميّزت به من عمق البحث وجمال الصياغة، تعتبر مرجعاً في مادتها. ومنها: "منمنمات دينية" و "الفن القدسي في التصوير الإسلامي" و "كيف زوّقت العرب كتب الفلسفة والفقه"

و"سوانح مسيحية وملامح إسلامية في مخطوط عربي مزوّق من القرن السابع" و "سر الزخرفة الإسلامية".

وكما في أبحاثه الفنية، كذلك في مؤلفاته الإبداعية، ظل بشر فارس كاتب النخبة. ولم ينتشر اسمه سوى في أوساط المثقفين والذواقة. وعندما قيل له ذات مرة إن لغته صعبة، قال: "كما يبذل المؤلف جهداً، فعلى القاريء أن يبذل جهدا هو الآخر". وينسب محمد فتوح أحمد، أستاذ النقد الأدبي بكلية دار العلوم بالقاهرة، أدب بشر فارس إلى مذهب "الرمزية" إذ رفض التعبير المباشر، وينقل عنه قوله: "من حدث قلبه من الأدباء، قادر على الإيحاء بالمراد من دون تسمية".

وقال عنه لويس عوض: "من يقرأ أعمال بشر فارس، يشعر أن المؤلف يعتقد، ويثبت بالممارسة، أن المهم في الفن والحياة، ليس ما تقوله أو تعمله، لكن طريقة القول والفعل. وهو كان يعتقد أن الفن والحياة، ليست معاني تبحث عن أسلوب يعبّر عنها، وإنما هى، بحد ذاتها، أسلوب. وإذا قدر لك أن تعرف بشر فارس، لأدركت، كلما قابلته أوسمعته يتكلم، صحة القول الفرنسي "الأسلوب هو الإنسان". وهذا ما لاحظه رجاء النقاش يوم كتب يرثيه، قال: "كان موته حالما رشيقا مثل خطواته وأربطة عنقه وألفاظه". ويذكر إبراهيم أصلان أنه حين عمل في مطلع شبابه ساعيا للبريد في حيّ جاردن سيتي بالقاهرة "كنت مكلفا توصيل الخطابات إلى

رجل غامض، كثّ الشوارب، شقته ممتلئة عن آخرها بالكتب. عرفت أنه بشر فارس أحد أهم رواد الأدب الرمزي في مصر".

وبالفعل تشابه أسلوب بشر فارس في الحياة مع أسلوبه في الأدب. فألفاظه أنيقة مثلما ربطات العنق، يختارها بعناية وبذوق. وهى تشي بثقافة صاحبها الغنية والمتنوعة.

وفي مسرحية "مفرق الطريق" كتب بشر فارس يقول "تعلمت اليوم أن الحياة مجموعة سوء تفاهم". ويفسر لويس عوض ذلك "هو لا يقصد سوء التفاهم مع الغير فحسب، بل وسوء التفاهم بين الإنسان ونفسه، وسوء تفاهم الأفكار مع الأفكار، والألفاظ مع الألفاظ".

وقد اشتغل بشر فارس في الصحافة، وكان المحرر المسؤول عن باب "التنقيب والتعقيب" في مجلة "المقتطف" عامي 1944 و1945. وكتب قبيل وفاته في مجلة "آخر ساعة" مقالاً بعنوان: "من فنان عربي إلى خروشوف" تعليقا على تهجم الزعيم السوفياتي على الفن التجريدي، وقوله إنه كلما رأى لوحة تجريدية يشعر بأن حماراً رسمها بذيله.

ولم يكن بشر فارس أديبا لبنانيا ولا أديبا مصريا. بأدبه الرمزي تجاوز المحلية، كما تجاوزها بالكتابة باللغة الفرنسية وبالعربية الفصحى، وفي أبحاثه القيمة في الفنون التشكيلية العربية والإسلامية، وهو المسيحي الماروني.

فـؤاد حـداد

أبو الشعر العامي المصري الحديث. وشعره مصري صميم، في المحتوى وفي اللغة. ولولا بعض الأبيات التي تحدث فيها صراحة عن أصوله اللبنانية، فلا يمكن للقاريء أن يستشف ذلك من شعره.

حضنك يا مصر المطرح الدافي
شايل عباية ونور على كتافي
عمّال أغنـّي وكمـّي بيشاور
على فلاحين في الفصاحة يغلبوا الشاعر.

وهو من الجيل الثاني من لبنانيي مصر. ولد في القاهرة وفيها عاش ومات. وكان مصريا في وجدانه كما في إبداعه، مع محبته الصافية لجذور أهله اللبنانية لجهة الأب، والسورية لجهة الأم.

"أنا مصري من أصل شامي
لا يغتفر احتشامي
حينطلق من حيشاني
صوت الجموع المفرد
أنا مصري من أصل شامي".

أبوه سليم أمين حداد. ولد في عبيه (جبل لبنان) في 5 حزيران 1885. درس في الكلية السورية الإنجيلية في بيروت وتخرج مجازا في الرياضيات. هاجر إلى القاهرة قبيل الحرب

العالمية الأولى، وعُيـّن أستاذا في كلية التجارة بجامعة فؤاد الأول (لاحقا جامعة القاهرة). وعندما أنشأت نقابة التجاريين في مصر، كان يحمل بطاقة "العضو رقم واحد". وما زالت كتبه وجداوله تدرس في الكلية. نال رتبة البكوية. مات في القاهرة يوم 24 أغسطس 1952. وأم فؤاد حداد ولدت في القاهرة أيضاً عام 1907. وأمها من عائلة بولاد الحلبية. وأم فؤاد عمرت طويلا، وتوفيت بالقاهرة عام 1997. أما فؤاد حداد فولد في حيّ الضاهر بالقاهرة (معقل الشوام أيضاً) في 30 أكتوبر1927.

بدأ الدراسة في مدرسة الفرير. وكان تلميذا متفوقا، وأتقن اللغة الفرنسية. وحين انتقلت العائلة خلال الحرب العالمية الثانية إلى وسط المدينة، انتقل فؤاد حداد إلى مدرسة الليسيه في باب اللوق. وبرغم حرص أبيه على أن يتزود أبناؤه بثقافة أوروبية، كان شديد الحرص على أن يتقنوا اللغة العربية. وجلب لهم مدرسا يعطيهم في المنزل دروسا خصوصية في اللغة العربية والخط العربي. وكان الوالد، برغم تخرجه في الجامعة الأمريكية، عربي المزاج والهوى. يقرأ الكثير من الشعر العربي القديم، ويردده على مسمع أولاده. وقيل إنه نظم شعرا عموديا أيضاً. وكان ـ وهو البروتستانتي ـ يحب الاستماع إلى القرآن المرتل عبر الراديو، يستمتع بجمال آي الذكر الحكيم، ويطلب من أبنائه الإصغاء لكي يتعودوا على سماع اللغة العربية، وبنطق سليم.

في طفولته حفظ فؤاد حداد الكثير من التراث الشعري العربي. ومن مدرستي الفرير والليسيه نهل الثقافة الفرنسية. وتمثل الرافد الثالث في الثقافة اللبنانية. كان الوالد يذهب بالأسرة لتمضية عطلة الصيف في لبنان. وكان السفر بالقطار الذي يعبر فلسطين أيضاً. وتعرف الفتى فؤاد على رائدين في الزجل اللبناني وكلاهما من قرية قريبة من عبيه: أسعد الفغالي، من وادي شحرور، الملقب بشحرور الوادي (عم المطربة صباح التي لقبت بالشحرورة) وعلي الحاج، من القماطية. وانبهر الفتى فؤاد بالمبارزات الزجلية بين الشاعرين، وبقدرتهما على الارتجال، وبفن التلاعب اللفظي والاستعارة والتصوير، وأعجب بأن الجمهور يدفع مالا لكي يستمع إلى الشعر. وأحب فؤاد حداد فنون الميجانا والعتابا الشعرية الغنائية. وفي فترة شبابه تعرف في مكتبات بيروت على دواوين الذين صنعوا الحداثة الشعرية العربية آنذاك: أمين نخلة وبشارة الخوري (الأخطل الصغير) وسعيد عقل والياس أبو شبكة وسواهم.

أما الرافد الرابع، فهو الفكر اليساري. عرفه منذ أيام الدراسة في الليسيه. ومن رفاقه في تلك المدرسة من أصبح ماركسيا مثله: محمد سيد أحمد. بدأ فؤاد حداد يتعرف على الاشتراكية، وما لبث أن اقتنع بها. وتحول الاقتناع إلى التزام، إذ انضم إلى الحزب الشيوعي المصري.

وأما الرافد الخامس فهو الإسلام. وحين اعتنق فؤاد حداد الإسلام كان موقناً بأنه تراث العرب.

وأما النهر الذي صبت فيه هذه الروافد وامتزجت بمياهه الوفيرة، فاسمه مصر. والقاهرة تحديدا. وقد عاش فؤاد حداد حياته منغمسا في أدق تفاصيل الحياة اليومية المصرية، بكل معانيها الاجتماعية والسياسية واللغوية. وكانت العامية المصرية وسيلته في التعبير عن نفسه.

عشق الشعر العربي سماعا وحفظا منذ الطفولة وسنوات الشباب الأولى، ثم مارسه كتابة وإبداعا. وأحب الأدب الفرنسي فقرأه، ثم تعامل معه مترجما: "عيون إلزا" لأراغون، و"الأمير الصغير" لأنطوان دو سانت اكزوبيري. والتزم بالشيوعية وكلفه الالتزام تمضية سبع سنوات في المعتقل: من 1953 إلى 1956.. ومن 1959 إلى 1964.. وكان كتب أول دواوينه "أفرجوا عن المساجين السياسيين" وصدر عام 1952 بعنوان "أحرار وراء القضبان". وقد صاغ شعره بالعامية لأنها لغة الإبداع العفوي، ولأنها قادرة على إيصال الحمولة الفكرية إلى من يهمهم الأمر: الناس.

ولئن كانت النخبة المصرية عرفت فؤاد حداد حق المعرفة، فلقد أصبح معروفا لدى العامة، عبر برنامج "المسحراتي" وكان يكتب قصائده التي لحنها وغناها سيد مكاوي. وكان برنامجا شعبيا قدمته الإذاعة المصرية سنوات خلال شهر رمضان. ولم ينس فؤاد حداد التزامه الاشتراكي

حتى وهو يستلهم شخصية "المسحراتي" ذي الدلالة الفولكلورية الدينية. فهو يوقظ النائمين من أجل تناول السحور، لكنه في الوقت نفسه يوقظ نيام الشعب ويفتح عيونهم على قضاياهم.

وإذا قيل عنه إنه أبو الشعر العامي المصري الحديث، فالقول صحيح. قبله كان الأمر يتعلق بالزجل. معه أصبح الناس يقرأون شعرا. وكان بيرم التونسي سبقه في العمر، وسبقه إلى الشعر الشعبي النقدي. لكن انتاج بيرم في هذا الاتجاه قليل، قياسا إلى معظم انتاجه. وظل أقرب إلى الزجل منه إلى الشعر. وعند فؤاد حداد، الشعر الشعبي هو السائد، بل هو الأوحد. وهو شعر جميل، مشغول، ومسيس في آن معا، من دون أن يقع في فخ المباشرة أو السطحية. وقد تابع رفيق عمره صلاح جاهين المسيرة. ولفرط الصداقة بين الاثنين، والتوافق في الهدف والذائقة الشعرية، تزوج أمين ابن فؤاد حداد من بهية بنت صلاح جاهين.

عمل فؤاد حداد في الصحافة في "صباح الخير" وكانت له زاوية بعنوان "قال الشاعر" يضيء فيها على الشعر العربي والأجنبي ويقدم فيها مواهب شعرية جديدة. كما عمل مترجما في "وكالة أنباء الشرق الأوسط". واشتهرت قصيدة له في عموم العالم العربي حين حولها سيد مكاوي إلى أغنية "الأرض بتتكلم عربي".. وفي الأول من نوفمبر 1985 توفي فؤاد حداد في القاهرة. وظلت مصر تذكر الذي كتب:

أول كلامي سلام
وتزقفيني الكلام
أيام في حضنك أنام
القلب الأبيض هنا
يا مصر يا أمنا.
كما يذكر لبنان ذاك الذي عنه كتب:
لبنان يا لبنان
يا فُـرّيرة م الألوان.

أقـــلام نســـائـــيـــة

ثمة أقلام نسائية ساهمت في مجالات الصحافة والأدب. منهن ألكسندرا قسطنطين نعمة الله الخوري، التي ولدت عام 1872 في بيروت ثم هاجرت مع أسرتها إلى الاسكندرية وفيها أصدرت مجلة "أنيس الجليس" شهرية ثقافية نسائية، ظهر عددها الأول في 31 يناير 1898، واستمرت حتى عام 1908. وتزوجت من النبيل ملتيا دو أفيرينوه، فاشتهرت باسم ألكسندرا دو أفيرينوه. توفيت في لندن عام 1927.

ومنهن لويزا حبالين، وهى من بلدة ذوق مكايل (جبل لبنان) من مواليد 15 يونيه 1896، وأصدرت في القاهرة مجلة "الفردوس".. وروز أنطون (1882ـ 1955) شقيقة فرح أنطون وزوجة نقولا الحداد، وقد أصدرت مجلة "السيدات والرجال" ونشرت مقالات في مجلة "الجامعة"..

هـنـد نـوفـل

مؤسسة الصحافة النسائية في العالم العربي. كانت مجلة "الفتاة" التي أصدرتها هند نوفل في الاسكندرية عام 1892 باكورة الصحافة النسائية. تنتمي هند إلى أسرة لبنانية، وقد

تخرجت في مدرسة للراهبات في الاسكندرية. وكان والدها مدير المجلة. صدر العدد الأول في 20 نوفمبر عام 1892، وفيه إنها مجلة "ثقافية نسائية" شهرية. انتقلت بعد عام إلى القاهرة، وتوقف صدورها عام 1894 بعد زواج هند نوفل.

ومنذ بداية صدورها تبنت "الفتاة" قضية المرأة. وناشدتها بأن تطلب العلم وتطالب به حتى لا تبقى نسيا منسيا. ولم يخلُ عدد من "الفتاة" من الحثّ على تعليم البنات. بل وقامت المجلة بهذا الدور، فخصصت مساحة لباب "التدبير المنزلي" وشرحت للمرأة علم الألوان وكيفية التناسق بينها. كما نشرت سلسلة مقالات تعرف بعادات النساء في مختلف البلدان. ثم خطت المجلة نحو الأمام فقرنت الدعوة إلى التعلم بموضوع عمل المرأة. وحددت أنواع الأعمال التي يمكن أن تمارسها المرأة كالتأليف والتدريس ومعالجة المرضى وما شابه. وفي دعوتها المستمرة للمرأة أن تسعى في طلب العلم، شددت على أن المرأة المتعلمة قادرة على المطالبة بحقوقها، بغية تحقيق المساواة مع الرجل في ما ينبغي أن تكون مساوية له.

وإلى قضايا المرأة، كانت مجلة "الفتاة" تهتم ببعض الموضوعات العامة، وأبرزها تشجيع الصناعة الوطنية وحث النسوة على شراء المنتجات المحلية. وقامت بتوزيع مقال خاص بهذا الصدد، مع أحد أعدادها عنوانه "إنهاض الغيرة الوطنية لترقية البضائع الشرقية".

وتجنبت الخوض في الأمور السياسية أو المجادلات الدينية، محتفظة لمجلتها بطابع الدفاع عن حق المرأة المسلوب، والواجب المطلوب.

وشجع نجاح هند نوفل في مجلة "الفتاة" سيدات أخريات على خوض مجال الصحافة. وقد مدحت زينب فواز المجلة وصاحبتها بقصيدة قالت في مطلعها:

عزّ الفتاة يزيّـن أرباب الأدبْ
وبها ازدهى الجنس اللطيف كما أحبْ

زيـنـب فـوّاز

كنتُ جمعت بعض المعلومات عن زينب فواز من مصادر مختلفة، غير أن مقالاً نشرته يسرى المقدم عن زينب فواز في مجلة "المنطلق الجديد" وفّر لي المزيد من المعلومات التي أتاحت لي كتابة هذا المقال عن الأديبة اللبنانية.

ولدت زينب بنت علي فواز في بلدة تبنين (جنوب لبنان) عام 1845 في أسرة رقيقة الحال. ولم تتلق نصيبا من التعليم، الذي كان امتيازا محصورا على بنات وأبناء الطبقة الإقطاعية. وأدخلها أبوها في خدمة علي بك الأسعد آل الصغير، حاكم منطقة جبل عامل آنذاك. وانتبهت زوجته فاطمة الأسعد إلى ذكاء زينب الفطري فعلمتها مباديء القراءة والكتابة. وكالعادة المتبعة آنذاك في تزويج البنات مبكرا، تم

تزويجها من أحد أفراد حاشية البك، وكان فارق السن بينهما كبيرا للغاية، ما أدى إلى وقوع الطلاق.

سافرت إلى مصر، حيث كان أخوها محمد علي فواز مقيما في الإسكندرية. وأتيحت لها فرصة تعلم اللغة العربية قراءة وكتابة على يد الشيخ محمد شلبي. ثم تعرفت على الأديب حسن حسني الطويراني، ناشر صحيفة "النيل" فتعهدها بالرعاية واهتم بتثقيفها، فقرأت كتب التراث العربي بنهم. وما لبثت قريحتها أن تفتحت، فأخذت تنشر مقالاتها في مختلف الصحف ومنها "النيل" و"المؤيد" و"الأهالي" و"اللواء". ثم انتقلت إلى دمشق بسبب زواجها من الكاتب السوري أديب نظمي. لكن الزواج لم يدم طويلا فعادت إلى مصر، وتزوجت للمرة الثالثة ـ والأخيرة ـ من ضابط مصري.

ومنذ خاضت التعبير عن نفسها بالقلم، وحتى آخر حياتها، التزمت بقضية المرأة وبضرورة إعطائها الفرصة لتلعب دورها في المجتمع. مع تسليمها بأن ذلك ينبغي أن يتم في إطار الشريعة الإسلامية. بل هي دأبت على البحث داخل النصوص الشرعية على ما يدعم حجتها. وحين كتبت "إن الإسلام ظهر في جزيرة العرب كعمود نور يستضاء به، بين قوم لا يعلمون من الحضارة شيئا، ويدفنون بناتهم أحياء..." إنما كانت تؤكد التزامها بالإسلام، وتلتقط أنه حرر المرأة وخلصها من الوأد. وانتقدت زينب فواز "تهافت الشبان والشابات على التقليد الأوروبي، دون أن يأخذوا من الإفرنج

خصلة حميدة تشتم منها رائحة المدنية الحقيقية". وأما الخصلة الحميدة فهى التعليم. وهى وجهت أول دفاع في وجه من يرفض ذلك فتساءلت "كيف يجد المرء منكم لذة الحياة، وامرأة بيته وأم أبنائه، مقيدة جاهلة". وكررت السؤال مدافعة عن حق المرأة وهى متحجبة في التعلم: "أهى العلوم لا تدخل من وراء الحجاب؟". واستنهضت الهمم مطالبة "بوجوب تعليم البنات في كل أمة شاءت أن يكون أطفالها في مقام الأبطال". وزادت تصف المرأة: "هى المدرسة الأولى لكل من دب على الأرض من جنس الرجال. ذلك ان ما يكتسبه الولد من أمه في طفولته من خير وشر، ينفطر عليه ويصبح فيه غريزيا". (ربما أوحت هذه العبارة لحافظ إبراهيم بيته الشهير: الأم مدرسة إذا أعددتها/ أعددت شعبا طيب الأعراق).

وإلى المقالات التي نشرتها في الصحف، كتبت زينب فواز في مختلف الأبواب الأدبية. والطريف أن كتابها الأول المنشور عام 1883 مسرحية من أربعة فصول بعنوان "الهوى والوفاء" قالت عنها في تقديمها "هى فوتوغراف واقعة عصرية، ممن جمعتني وإياهم نعمة الصدفة ورابطة الصداقة والمعرفة. اخترتها لرقة موضوعها وغرابة أسلوبها في مجرياتها".

كتابها الثاني "الدرّ المنثور في طبقات ربات الخدور" اصدرته عام 1895. يحتوي على 456 ترجمة "جمعت فيه

من تراجم شهيرات العرب ومتقدمات الإفرنج وملكات الشرق والغرب، من كل أديبة فاضلة وملكة عاقلة وشاعرة وخطيبة وثائرة". (وفيه ترجمة لفاطمة الأسعد). وفي صدر الكتاب نشرت بيتين من نظمها: (كتابي يبدي جنة، في قصورها تروح روح الفكر، حور التراجم/ خدمت به جنسي اللطيف، وإنه لأكرمُ ما يُهدى لغـرّ الكرائم). وفي السنة نفسها نشرت رواية "حُسْن العواقب.. أو غادة الزاهرة". شددت فيها على ضرورة تعليم المرأة. وفي الرواية تطرقت إلى الكثير من عادات جبل عامل وتحدثت عن وقائع تاريخية جرت في منتصف القرن التاسع عشر، وعن المنازعات بين زعماء الإقطاع في سعيهم إلى السلطة والنفوذ والمال. "وقد تعمدت تبديل أسماء الأشخاص والبلدان، تحاشيا لذكر الباقين منهم على قيد الحياة وحرصا على شرف البيوت الكريمة".

وفي 1905 نشرت "الرسائل الزينبية" وهو مجموعة مقالاتها وجلّها حول قضيتها الأساسية: تعليم المرأة "جمعتها حسب ترتيب تواريخ النشر في الصحف". وفي العام ذاته نشرت "الملك قورش" رواية تاريخية في بلاد الفرس "جمعت فيها الفائدة والفكاهة، وقبح العادة المجوسية، وحسن الوحدانية".

وفي كتاب "كشف الأسرار عن مخبئات الزار" ترفض المعتقدات والطقوس والتقاليد الخرافية التي تتستر بالدين وهى

ليست منه، وتصف الزار بـ "الثقل الفادح على كاهل الهيئة الاجتماعية".

وتقدمت زينب فواز باقتراح ينص على "وضع إشارات في الكتابة تدل على معان خفيّة لا تظهر في تركيب الحرف، كوضع الصفرين (:) إشارة للإيضاح، والألف والصفر (!) علامة للتعجب، ووضع علامة (؟) للاستفهام، الخ"[23].

وفي 1914 توفيت زينب فواز التي أصرت على المساواة بين المرأة والرجل "نحن جنسان مشتركان في هذه الحياة، لا ثالث بيننا، ولا يمكن لأحدنا الاستقلال دون الآخر، ولكل منهما ملهى في مرسح الحياة يلهيه عن مزاحمة الآخر".

وردة اليازجي

ابنة ناصيف اليازجي. لم تشتهر وردة اليازجي بمثل شهرة أبيها أو أخيها إبراهيم، لا لكونها إمرأة، بل لأنها لم تبلغ مرتبة أحدهما أو موهبته. على أن ميزتها أنها أتقنت اللغة العربية وكتبت شعرا ونثرا وبحثا في زمن ندرت فيه الأقلام النسائية.

---

(23) بالرغم من دعوة زينب فواز منذ ذلك التاريخ إلى احترام العلامات في الكتابة، ما زالت الدعوة مهملة عند بعض الأدباء والصحافيين العرب. ويصدم إهمالها عيون القراء.

ولدت وردة اليازجي في كفرشيما يوم 20 كانون الثاني 1838. تعلمت في مدرسة الإرسالية الأمريكية في بيروت وظهر عليها النبوغ في اللغة العربية وهى في الثانية عشرة فأخذ والدها يعلمها أصول اللغة وعلم العروض. وكانت تقرأ عليه بعض القصائد فيتولى شرحها، فلم تلبث أن ملكت ناصية النظم وكتبت شعراً. وفي 1866 تزوجت من فرنسيس شمعون، وكان مدرسا للرياضيات والفيزياء في بيروت، ومحبا للأدب العربي، فشجعها على مواصلة الشعر. وبعد زواجها بسنة جمعت قصائدها في ديوان نشرته بعنوان "حديقة الورد" أعيد طبعه بعد عشرين سنة ثم صدر في طبعة ثالثة عام 1914.

وبعد نشر الديوان ذاع صيت وردة اليازجي، وراسلها الأدباء والشعراء وخصوصا الأديبة المصرية عائشة تيمور. وكانت عائشة أثنت عليها في مقدمة ديوانها "حلية الطراز" ثم أهدت إليها نسخة منه فكتبت إليها وردة شاكرة ثم بدأ تبادل الرسائل بين الأديبتين. وبين الاثنتين أوجه شبه كثيرة، في سيرة الحياة وفي الكتابة. كلاهما نظم الشعر في الأغراض التي كانت سائدة آنذاك من رثاء ومديح وتأريخ ومجاملة. وقد قلّدتا الرجال في اختيار مثل هذه المواضيع، وبالتالي لم يكن في شعرهما تعبير عن المرأة كمرأة، وإن كان الأسلوب لا يخلو من مسحة نسائية رقيقة. وتذكر الأديبة مى زيادة التي كتبت عنهما قائلة: "لا ندري هل اجتمعت الشاعرتان بعد

المراسلات يوم جاءت وردة اليازجي مصر قبل وفاة عائشة تيمور بثلاث سنوات". وكانت وردة اليازجي قد انتقلت عام 1899 بعد وفاة زوجها للإقامة في الاسكندرية لدى ولدها البكر الطبيب أمين شمعون.

وكان شعر وردة اليازجي في إطار شعر المناسبات، وفيه تطغى الصنعة على المشاعر. لكنها حين كتبت الرثاء، خصوصا حين رثت أخاها إبراهيم، ارتفعت عن شعر المناسبة وبدا الشعور واضحاً في أبياتها. ومنها: "لم يبقَ للحزن لي صبرٌ ولا جلَدُ/ ولا دموع تفي لي حق من فُقدوا".

وإذا كانت في شعرها لم تعالج موضوع المرأة، فهي فعلت ذلك في نثرها. خصوصا في البحث الذي كتبته بعنوان "المرأة الشرقية" ونشرته في "الضياء" مجلة أخيها إبراهيم. قالت في مقدمته: "لا يخفى أن نساء البلاد الغربية قد تقدمن في الأعصر الأخيرة شوطا بعيدا في العلم والتهذيب ونفضن عنهن غبار الجهل الذي كنا عليه ونفضن معه غبار الذل والامتهان حتى أصبحت المرأة الغربية مساوية للرجل في الحقوق" وأشارت إلى أن حالة المرأة الشرقية لم ترتفع لأن "جلّ ما أدركته من التمدن هو التزيي بملابس نساء الغرب وتعلم بعض اللغات الأوروبية حتى أصبح الكثيرات يحسبن أنهن قد ساوين أخواتهن الغربيات" في حين كان من واجبهن تقليد المرأة الغربية من حيث إقبالها على التعلم والوعي بحقوقها ودورها في المجتمع.

توفيت وردة اليازجي في الاسكندرية في 26 يناير 1924.

مـي زيـادة

ذات مرة كتبت مي زيادة: "ولدت في بلد، وأبي من بلد، وأمي من بلد، وسكني في بلد. وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد". وتفسير ذلك أنها ولدت عام 1886 في مدينة الناصرة في فلسطين لأب لبناني (الياس زيادة) وأم فلسطينية (نزهة معمر). أبوها من بلدة شحتول (جبل لبنان) كان آنذاك يعمل مدرسا في فلسطين. وفي الناصرة أمضت ماري (اسمها الحقيقي) سنوات الطفولة، ثم انتقلت إلى لبنان مع الأسرة عندما اشتغل والدها مدرسا في بلدة عينطورة. وهي تعلمت في هذه المدرسة، ثم عند الراهبات اللعازريات.

وفي عام 1911 هاجر الوالد إلى مصر وانتقلت معه زوجته وابنته مى. وهى كانت الإبنة الوحيدة، إذ توفي شقيق لها وهو في عمر الطفولة. (أهدت إلى ذكراه كتابها الثالث "ابتسامات ودموع". وهو من تأليف الألماني ماكس مولر ترجمته مى زيادة إلى العربية). وبهذه الهجرة أصبحت مصر مقر إقامتها الدائمة. وفي القاهرة سيلمع اسمها كأديبة.

وكانت مى زيادة تجيد اللغة الفرنسية وعندها إلمام جيّد باللغة الإنكليزية. وذكر الأديب المصري سلامة موسى أنها

كانت تحيط إلى جانب هاتين اللغتين بأربع لغات أخرى. وفي سنة إقامتها الأولى في مصر نشرت أول كتاب لها وكان ديوان شعر باللغة الفرنسية عنوانه "أزهار الحلم". نشرته باسم مستعار: إيزيس كوبيا. ثم عكفت على تعميق معرفتها باللغة العربية حتى أخذت تجيدها. وكان أن ترجمت رواية فرنسية بعنوان "رجوع الموجة". وكان ذلك أول كتاب يصدر لها باللغة العربية. كان أبوها الياس زيادة قد اشترى لدى وصوله إلى القاهرة امتياز جريدة "المحروسة" وأخذ يصدرها وفيها اشتغلت مى كمحررة. وحدث أن تعرفت مى على كبار الأدباء المصريين واللبنانيين والعرب المقيمين في العاصمة المصرية. وفي عام 1919 توفي والدها وأصبحت مى زيادة المسؤولة عن إصدار الجريدة. ولقيت الدعم الكبير من آل تقلا أصحاب جريدة "الأهرام" وهم أصدقاء والدها. بل إنهم ضمّوها إلى أسرة تحرير "الأهرام" بعدما أغلقت جريدة "المحروسة". وبنصيحة من الأديب والسياسي أحمد لطفي السيد التحقت مى زيادة بالجامعة المصرية حيث درست الأدب والفلسفة لمدة ثلاث سنوات، وانقطعت عن الجامعة عام 1922 .

وإذا كانت مي زيادة اشتهرت كأديبة وصحافية وبأنها من الرائدات في هذا المجال، فهى قد اشتهرت أيضاً بـ "ندوة الثلاثاء" التي كانت تديرها في منزلها. ولم تكن هي مبتكرة فكرة "الصالون الأدبي". لكن "صالون مي" بحجم زواره ونوعيتهم، كان ـ وظل ـ الأهم في تاريخ الأدب العربي

المعاصر. مرة في الأسبوع تستقبل مى وجوها بارزة من سياسيين وأدباء، وتدير جلسة حوار بين الحاضرين. وكان جمال مظهرها قيمة مضافة إلى جمال أسلوبها في الكتابة والحديث. فلا عجب أن هام بحبها العديد العديد من الأدباء والصحافيين. قائمة طويلة تضم أسماء لامعة يتصدرها: أحمد لطفي السيد، عباس محمود العقاد، جبران خليل جبران (الوحيد الذي لم تره في حياتها، وعلاقتها به عبر الرسائل فقط) وأنطون الجميّل ومصطفى صادق الرافعي. وبينها وبين هؤلاء رسائل متبادلة. غير أن مى ظلت عزباء ولم تتزوج. ومن أبرز زوار صالونها إضافة إلى من ذكرتهم (وبين هؤلاء بعض العاشقين): أحمد شوقي وطه حسين واسماعيل صبري وعلي عبد الرزاق وحافظ ابراهيم وخليل مطران والأمير مصطفى الشهابي والفريق أمين معلوف ومحمد رشيد رضا وابراهيم عبد القادر المازني وشبلي الشميّل ويعقوب صروف واسماعيل مظهر وسليم سركيس وداود بركات (قيل إنه اقترح عليها التوقيع باسم مي زيادة) وسلامة موسى الذي لاحظ "أن حديث مي أذكى من مقالاتها والسبب أنها شرقية. تخاف في الكتابة أن تبوح بما تفكر فيه. لكن هذا الخوف يزول عنها في الحديث".

عن هذا الصالون كتب أحمد شوقي: (أسائل خاطري عما سباني/ أحُسْن الخلق أم حسن البيان/ رأيت تنافس الحسنين فيها/ كأنهما "لميّة" عاشقان/ إذا نطقت صبا عقلي

إليها/ وإن بسمت إلي، صبا جناني/ وما أدري: أتبسم عن حنين إليّ بقلبها، أم عن حنان/ أم أن شبابها راث لشيبي/ وما أوهى زماني من كياني). وكمثل أحمد شوقي، عبّر آخرون عن انطباعاتهم عن ندوات مي، ومنهم المازني الذي كتب مقالا وصف فيه أجواء الصالون. لكن أحدا لم ينقل إلينا فحوى تلك المسامرات. حتما سادها جزء من الأحاديث التي تدخل في باب اللياقات والاجتماعيات، وحتما تخللتها مناقشات في الأدب والفكر والسياسة، شاركت فيها تلك الكوكبة من الأعلام. وللأسف، لم تكن وسائل التسجيل الحديثة معروفة آنذاك.

نشرت مي مقالاتها في عدة صحف. في "المحروسة" و"الهلال" و"المقتطف" و"الزهور". وأشرفت لفترة على صفحة المرأة في "السياسة الأسبوعية". وظلت تكتب مقالا أسبوعيا في "الأهرام" حتى عام 1935. أما الكتب، فنشرت منها إضافة إلى ما سبق ذكره: "باحثة البادية" وهو سيرة حياة الأديبة ملك حفني ناصف، و"سوانح فتاة" مجموعة خواطر حول الحياة، و"كلمات وإشارات" ضمنته مجموعة خطب ألقتها في مواضيع شتى، و"المساواة"وهو بحث في العدالة الاجتماعية والديمقراطية، و"ظلمات وأشعة" قصائد من الشعر المنثور، و"بين الجزر والمد" مقالات في الأدب واللغة والثقافة عموما، كتب مقدمته سلامة موسى. وبعد وفاة والدتها عام 1930 أصيبت مي زيادة بصدمة نفسية، وابتعدت

عن الناس. وزاد من وقع الصدمة أن جبران توفي في العام التالي.

وكانت مى تزور لبنان في فصل الصيف. وحدث في صيف عام 1939 وكانت حالتها النفسية ما زالت مضطربة، أن احتجزها أقاربها في مستشفى الأمراض العصبية (العصفورية)، حيث ساءت حالتها الصحية وانخفض وزنها بشكل مقلق. وزارها فيلكس فارس فهاله منظرها. وكان على علم مسبق بالخلافات بينها وبين أقاربها في لبنان. فسعى إلى نقلها إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، وعاونه في ذلك أمين الريحاني. وبعدما خضعت لعلاج مكثف استعادت وزنها وشيئا من توازنها النفسي. وبعد رحلة العذاب، عادت إلى مصر محطمة نفسيا وصحيا. فهل تخلى عنها الأدباء الأصدقاء كافة؟ لا. حاول كثيرون، ومنهم خليل مطران وأنطون الجميل، مساعدتها للخروج من الأزمة، لكنها صدتهم. واستغرقت في مأساتها، وساهمت شخصيتها الرومانتيكية في تعقيد أمورها. وكان سلامة موسى من القلائل الذين اقتحموا عزلتها وأخبرنا بمقال عن حالتها النفسية التعيسة آنذاك، وهى حالة بها طرف من الهستيريا.

في 19 أكتوبر 1941 أسلمت مي زيادة الروح. وكانت قد نُقلت من منزلها إلى مستشفى المعادي قبل أيام من وفاتها، إثر تدهور حالتها الصحيّة. وفي الليلة التي سبقت وفاتها أصيبت بخفقان شديد في القلب وضيق في التنفّس.

كانت في الخامسة والخمسين من العمر. وبرغم العمر القصير نسبيا، فرضت نفسها على الأوساط الأدبية في مصر واشتهرت في عموم العالم العربي.

لبيبة هاشم

ولدت لبيبة ماضي في حي خندق الغميق في بيروت يوم 16 كانون الأول 1882. وفيها تعلمت في مدرسة الراهبات اللعازريات ثم في مدرسة المرسلات الأميركيات. وأتقنت العربية والإنكليزية والفرنسية. وفي سن مبكرة بدأت تنشر المقالات والمترجمات في الصحف اللبنانية، ورواية "الغادة الانكليزية". تزوجت من عبده هاشم وأصبحت تدعى لبيبة هاشم. وهاجرت مع الأسرة إلى القاهرة عام 1897، وعمقت معرفتها باللغة العربية على يد إبراهيم اليازجي. وتابعت الكتابة والنشر في الصحف. واشتهرت بترجمة القصص عن الإنكليزية، وكانت تنشر بعضها في مجلة "الضياء". وفي 1906 أصدرت مجلة "فتاة الشرق" التي استمرت في الصدور حتى عام 1939. وهى أطول المجلات النسائية عمرا، باستثناء ما صدر لاحقا عن دور نشر كبيرة.

لبيبة هاشم أسست مجلتها بمفردها. وكانت تنشر فيها قصصها المترجمة، وبعضها من تأليفها. لكن المجلة أنشأت بالأساس للدفاع عن قضية المرأة، وقضايا أخرى ومنها التربية

والتعليم. وكانت ملمة بهذا الموضوع. ولها موقف نقدي من المدارس الأجنبية التي اهتمت باللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية. كما كانت من أوائل اللواتي سعين إلى إنشاء جمعية علمية أدبية خاصة بالمرأة، بقصد رفع مستواها وتعزيز مكانتها.

وإبان حكم الأمير فيصل عُيّنت مفتشة في وزارة المعارف في سوريا ، وبعد احتلال الفرنسيين دمشق عام 1920 رجعت إلى القاهرة. ثم سافرت إلى الأرجنتين وهناك أصدرت مجلة "الشرق والغرب". وفي فترة غيابها كانت كريمتها أليس أسعد داغر تشرف على إصدار "فتاة الشرق".

توفيت لبيبة هاشم في القاهرة عام 1952.

أهـــل النـــضـــال

أنطون مارون

بحسب مسعود ضاهر في كتابه "هجرة الشوام إلى مصر" ولد أنطون مارون في مدينة زحلة (البقاع/لبنان) وتلقى دروسه فيها ثم في بيروت، حيث نال شهادة المحاماة. وبحسب عزيز صليبا في كتاب "العمل السرّي في الحزب الشيوعي اللبناني" فإن أنطون مارون من منطقة كسروان في جبل لبنان. على أن الأكيد أنه هاجر إلى مصر أواخر القرن التاسع عشر وأقام بالاسكندرية. كانت المحاماة مهنته والاشتراكية قضيته. كان محاميا مرموقا يترافع أمام "المحاكم المختلطة" لكنه هجرها إلى النضال السياسي. وبدلا من الدفاع عن أشخاص أمام المحكمة، تفرغ للدفاع عن حقوق الإنسان أمام السلطة والمجتمع. وكانت حقوق العمال شغله الشاغل.

وكان أول اتحاد لنقابات العمال المصريين نشأ عام 1921. وكان حسني العرابي أمينه العام، الذي كان في الوقت نفسه عضوا في الحزب الشيوعي المصري مع أنطون مارون الذي لعب دورا رئيسيا في التوعية والتعبئة والدفاع

الصريح عن حقوق العمال. شرح أنطون مارون للعمال هذه الحقوق وحرضهم على المطالبة بها، ومنها: رفع الأجور المتدنية، تحسين شروط العمل، التعويض عن إصابات العمل، توفير بعض الخدمات الطبية، وصرف مكافأة نهاية الخدمة.

أثمر التحريض، فقام عمال الكهرباء والغاز في الاسكندرية بحركة احتجاج في مطلع 1923، بلغت ذروتها في 17 فبراير حين ألقى حسني العرابي خطابا ثوريا أسفر في اليوم التالي عن بدء إضراب تحول إلى صدامات مع رجال الشرطة واعتقال بعض العمال. فدعا اتحاد نقابات العمال إلى مظاهرة استنكار نفذت في 18 مارس، وخلالها ألقت الشرطة القبض على حسني العرابي وأنطون مارون واثنين من العمال: أمين يحي وحسن حسني. وفي 20 يونيه مثل مارون والعرابي أمام المحكمة بتهمة التحريض على تنظيم مظاهرة. ثم أفرج عنهما بقصد تنفيس الاحتقان.

وكانت هذه التحركات العمالية أطلقت الشرارة التي امتد أثرها إلى مصانع وشركات أخرى، منها شركة الغزل. وفي يناير 1924 تألفت في مصر أول حكومة يرئسها زعيم حزب الوفد سعد زغلول. وهو يتمتع برصيد شعبي كبير نظرا لمواقفه الوطنية في مواجهة الاحتلال البريطاني. لكن حزب الوفد لم يهضم حركات العمال "الشيوعية" فواجهها وألّف نقابة للعمال تابعة له. وفي 3 مارس توجّه عمال "مصنع الخواجة

أبي شنب" بالاسكندرية إلى مكتب محافظ المدينة يرافقهم أنطون مارون. وإذ لم تستجب المحافظة لمطالبهم احتلوا المصنع في اليوم التالي. فردت حكومة الوفد بحملة اعتقالات في صفوف الشيوعيين ونقابة العمال.

وكانت جريدة "الأهرام" شعرت بعمق الأزمة. وبرغم تعاطفها مع حزب الوفد، كتبت محذرة من إهمال حقوق العمال والفلاحين. وفي عدد 29 سبتمبر من السنة ذاتها (1924) كتب محرر "الأهرام" تقريرا عن وقائع محاكمة أنطون مارون أمام محكمة الجنايات، أورد فيه شهادة إنغرام بك Ingram، وكان من كبار رجال الشرطة: "كان العمال يعملون بنصائح الأستاذ مارون ورفاقه. ولم يكن سهلا على البوليس إخراج العمال من المصانع. لكن إخراجهم كان من أيسر الأمور على الأستاذ مارون، كما أن كلمة واحدة منه كانت تكفي لإنهاء احتلال العمال للمصنع".

وخلال عام 1925 كانت حركات الاضراب العمالية تمتد إلى مختلف المصانع في مختلف المدن المصرية. وكان أنطون مارون في السجن مع رفاقه من قياديي العمال ومن المعتقلين السياسيين، يلقون معاملة سيئة. فأعلن أنطون مارون إضرابا عن الطعام، واصله حتى وفاته يوم الأول من أغسطس 1925. وكانت وفاته على هذا النحو، شهادة له بأنه كان اشتراكيا حتى الموت.

رفيق جبور

مناضل اشتراكي آخر حتى الموت. ولد في زحلة عام 1882. أبوه الطبيب حبيب جبور، نسيب الشاعر خليل مطران من جهة الأم. درس رفيق جبور في المدرسة الشرقية في زحلة. فأجاد اللغتين الفرنسية والعربية. وتزوج من فتاة فلسطينية تدعى فريدة خيّاط. عيّنته أسرة قاجار التي كانت تحكم إيران قنصلا لها في اسطمبول. واتهمه الباب العالي بتهريب الأمير فيصل بن الشريف الحسين من اسطمبول إلى الحجاز، وأبعد بسبب ذلك إلى مصر، فعمل في القنصلية الإيرانية في الاسكندرية، وما لبث أن انتقل إلى القاهرة قنصلا لإيران. ولم يرضَ المندوب السامي البريطاني عن أفكاره اليسارية واشتكى منها، فاستقال رفيق جبور من العمل الدبلوماسي وقرر ان يحترف الصحافة. اشتغل في جريدة "المحروسة" التي كان يصدرها الياس زيادة. وهو لبناني مثله ومتزوج من فلسطينية مثله.

ثم انتقل رفيق جبور عام 1914 للعمل كمحرر في جريدة "النظام" لصاحبها السيد أفندي علي. ووجد نفسه في المكان الملائم ليعبر عن توجهاته اليسارية. فصاحب الجريدة يساري هو الآخر، أسس حزبا عماليا عام 1909. وبعد ثورة 1919 اتخذت جريدة "النظام" موقفا مؤيدا لسعد زغلول وحزب الوفد. وهذا موقف يناسب رفيق جبور، لما فيه من رفض

للاحتلال البريطاني. وكان رفيق جبور يلتقي في مكتبه في صحيفة "النظام" ببعض الشيوعيين الأوروبيين، ومنهم إفيغدور، الناشط في مكتب الشرق الأوسط في "الكومينترن"[24] الذي عرف في مصر باسم حركي هو قسطنطين فايس، وتخفى في شخصية مراسل لصحف عمالية دولية. كما كان يلتقي بمناضلين مصريين، ومنهم طاهر العربي، وهو من "الحزب الوطني" اعتقل بتهمة محاولة اغتيال المندوب السامي البريطاني اللورد كيتشنر، ثم اشتغل في الصحافة محررا في جريدة "كوكب الشرق". وتميزت جريدة "النظام" آنذاك عن سائر الصحف الوفدية الميول، بأنها كانت تولي اهتماما خاصا بقضايا العمال والفلاحين.

وكان رفيق جبور بين المشاركين في تأسيس "الحزب الاشتراكي المصري" عام 1921. وفي ربيع 1924 ضربت حكومة سعد زغلول الوفدية الشيوعيين ضربة موجعة، وألقت القبض على عدد منهم، فقرر رفيق جبور أن يصدر مجلة،

---

(24) كومينترن Comintern كلمة مركبة من كلمتين مدمجتين: كومينيزم وانترناسيونال، يعني "الشيوعية الدولية" وقد عرفت أيضاً بـ "الدولية الثالثة". تأسس هذا المجلس في موسكو عام 1919 بقصد نشر المباديء الشيوعية في العالم. كان في البداية يضم الشيوعيين الروس والألمان فقط، ثم توسع نشاطه حتى أصبح يضم الأحزاب الشيوعية في العالم. حل ستالين الكومنينترن عام 1943 إبان الحرب العالمية الثانية لطمأنة حلفائه الأمريكيين والبريطانيين خلال الحرب ضد النازية.

لكن الحكومة رفضت منحه الترخيص اللازم. فما كان منه إلاّ أن استأجر رخصة جريدة "الحساب" من صاحبها إبراهيم الصيحي، الذي كان يصدرها أسبوعية وقد نشر منها عشرة أعداد. لكنها بدءا من العدد الحادي عشر الذي صدر في 6 مارس/آذار 1925 أصبحت تحت الاشراف التام لرفيق جبور. أسبوعية مؤقتا على أمل تحويلها إلى جريدة يومية. وكان إصدار "الحساب" لتكون المنبر الإعلامي لنشاط "لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين" التي أسسها رفيق جبور، والتي شاركت في الانتخابات النيابية التي جرت في الشهر نفسه، وحاولت تقديم مرشحين وأصدرت برنامجا وطالبت العمال والفلاحين بألاّ يعطوا أصواتهم لمن لا يقبل هذا البرنامج.

ويميل رفعت السعيد في كتاب "ثلاثة لبنانيين في القاهرة" إلى الاعتقاد بأن رفيق جبور كتب في "الحساب" بعض المقالات من دون التوقيع باسمه، قبل توليه الإشراف الكامل عليها، ويستند في ذلك إلى المضمون الثوري الذي تشي به هذه المقالات. على أن حكومة أحمد زيور التي خلفت حكومة سعد زغلول لم تتحمل مقالات "الحساب" النارية أكثر من ثلاثة أشهر، فألقت القبض على رفيق جبور وآخرين في 30 مايو 1925.

وفي أول افتتاحية كتبها رفيق جبور في أول عدد من "الحساب" منذ خضعت لإشرافه، أعلن خطابه السياسي

بصراحة تامة: "لأجل الطبقة العاملة من فلاحين وعمال أنشأنا هذه الصحيفة (...) فالطبقة العاملة في مصر هى أكثر الطبقات عددا، وأكثرها شقاء أيضاً. والفرق بينها وبين الطبقة الغنية كبير جدا (...) أما الطبقة الوسطى فعددها قليل جدا في القطر، فلا يؤثر انحيازها إلى فريق دون فريق لضعفها". وأكد أن الجريدة ستكون للعمال خير مرشد، ولن يسمع من على صفحاتها غير صوتهم.

وفي عدد الأول من مايو يرد على رسالة من قاريء، فيشرح الأسباب الموجبة لإنشاء حزب الطبقة العاملة ويقول: "تقهقرت الحركة الوطنية منذ أن خرجت من يد الطبقة العاملة وتسلمتها الطبقة الخاصة من الباشوات وأرباب الأموال والأراضي (...) للطبقة العاملة مطالب معروفة ومحدودة. وهى تريد الانضواء تحت راية الحزب الذي ينيلها مطالبها ويدافع عنها". وبعد أسبوعين، وفي آخر عدد من "الحساب" استفاض في شرح دور الحزب الجديد وبنيته "إن العمود الفقري للحزب ودماغه المفكر وقلبه النابض يجب أن يكون من العمال. وعلى قانون الحزب الاحتياط الشديد لعدم تمكين بعض أفراد الطبقات الأخرى التي تندمج في الحزب من السيطرة عليه والتلاعب بمصالحه". ووعد القراء بشرح أهداف الحزب وبرنامجه في العدد التالي، الذي لم يصدر. ففي يوم صدوره ألقي القبض على رفيق جبور وعدد من الشيوعيين.

وفي 8 سبتمبر 1925 صدر القرار الاتهامي من النيابة

العامة. وكانت التهم الموجهة إلى جبور والآخرين ومنهم طاهر العربي، أنهم "ارتكبوا جريمة تأليف عصابة من العمال والفلاحين لمهاجمة طائفة من السكان (...) وأنهم "نشروا أفكارا ثورية مغايرة للمباديء الأساسية لدستور الدولة المصرية، وحبذوا تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية في البلاد بالقوة والارهاب وبوسائل أخرى غير مشروعة". هذه الوسائل غير المشروعة في شرح النائب العام كانت الكتب والجرائد والنشرات والخطب.

حكم على المصريين بالسجن وعلى الأجانب بالإبعاد. ولم يكن رفيق جبور مصري الجنسية، لذلك أبعد إلى بيروت مطلع عام 1926. وفرض عليه عدم ممارسة أي نشاط سياسي. غير أنه ترك أسرته في زحلة، وتوجه إلى يافا حيث رئس تحرير صحيفة "فلسطين" لصاحبها عيسى العيسى. وبعد بضعة أشهر، تلقت عائلته نبأ وفاته في يافا في ظروف غامضة. وكانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، ولم تعرف أرملة رفيق جبور شيئا غن ظروف هذه الوفاة، بل لم يسمح لها بمعاينة الجثة.

فؤاد الشمالي

أحد أبرز الناشطين في الحركة النقابية والحزبية الشيوعية في لبنان، لكنه بدأ الالتزام بهذا الاتجاه أثناء إقامته في مصر.

ولد فؤاد الشمالي عام 1894 في بلدة سهيلة (جبل لبنان) وانتقل وهو طفل مع العائلة إلى بيسان في فلسطين، حيث عمل أبوه مترجما في شركة السكك الحديدية. وفي بيسان تلقى دروسه الابتدائية. وبعد وفاة والده، هاجر مع أمه إلى مصر واشتغل في مصنع للسجائر في مدينة الإسكندرية. وكانت الحركة النقابية العمالية آخذة في التطور آنذاك، فانضم فؤاد الشمالي إلى نقابة العمال عام 1916 وبدأ النضال. وفي 1921 انضم إلى الحزب الشيوعي المصري وكان حديث التأسيس. وتعرف آنذاك على أنطون مارون ورفيق جبور وتعلم منهما الكثير. وفي السنة التالية أسس "حزب العمال اللبناني" الذي ضم عددا من العمال اللبنانيين المقيمين في الإسكندرية. وبعد الاضراب العمالي الذي شهدته المدن المصرية عام 1923، ألقت الشرطة المصرية القبض على عدد من العمال ذوي الدور البارز نقابيا، ومنهم فؤاد الشمالي. أودع العمال المصريون السجن، أما فؤاد الشمالي، اللبناني، فأبعد عن الأراضي المصرية إلى بيروت.

استقر الشمالي في بكفيا حيث اشتغل في مصنع للسجائر. وكان حمل معه من مصر خبرة العمل النقابي والنشاط السياسي الشيوعي. فما لبث أن أسس "النقابة العامة لعمال الدخان في لبنان". وتعرف آنذاك على يوسف إبراهيم يزبك، المثقف اليساري، ومعا وبمساندة من بعض الناشطين في الحركة العمالية أمثال فريد طعمة والياس قشعمي، أسسا

في صيف 1924 "حزب الشعب اللبناني"، نواة "الحزب الشيوعي" الذي أعلن مولده في 24 تشرين الأول عام 1924، وانتخب يوسف إبراهيم يزبك أمينا عاما له، وكان فؤاد الشمالي أحد أبرز الناشطين في القيادة. وكان الحزب الشيوعي يشمل سوريا ولبنان، وانضمت إليه وجوه شيوعية أرمنية مثل أرتين مادويان وهايكازون بوياجيان. وبعد فترة تولى فؤاد الشمالي منصب الأمين العام للحزب.

وإثر خلاف داخلي في القيادة، استبعد فؤاد الشمالي عن الأمانة العامة وخلفه خالد بكداش. وظل الشمالي مبعدا عن القيادة من دون أن يبتعد عن النضال اليساري، بالقلم وبالنشاط. وهو أصدر بعض المؤلفات منها "نقابات العمال" (1929) و"أساس الحركات الشيوعية في سوريا ولبنان" (1935) و"الاشتراكية" (1936). وبسبب سوء التغذية الناجم عن الفقر، اشتد عليه المرض، حتى كانت وفاته يوم 19 أيلول 1939.

أضــواء المــســرح والســيـنـمـا

عـزيـز عيـــد

الرائد الأول في مجال الإخراج المسرحي. وهو أول من مارس هذه المهنة بمعناها الحِرَفي في مصر، بل وفي العالم العربي. قبله كانت المسرحيات تقدم من دون دور لمخرج. ومع عزيز عيد أخذت هذه المهنة طابعها المحدد. فهو الذي يختار النص، والممثلات والممثلين المناسبين للأدوار، وهو الذي يشرف على تدريبهم ابتداء من قراءة النص، وهو الذي يشرف على تصميم الديكورات والأزياء والإضاءة، أو ما يسمى بلغة عصرنا "السينوغرافيا"، وهو الذي يصمم الحركة المسرحية، أو ما كان يسمى في مصر آنذاك "الميزانسين" Mise-en-scene.

ولد في كفر الشيخ (الوجه البحري/مصر) في 20 مارس 1884 في أسرة لبنانية من بكفيا (جبل لبنان). تعلم في مدرسة الفرير في طنطا، ثم أرسله أهله إلى بيروت حيث تابع دروسه في مدرسة الحكمة وعاد إلى القاهرة، فاشتغل في البنك الزراعي. وكان زميله في البنك يدعى نجيب الريحاني،

الذي صار أبرز ممثلي الكوميديا في عصره. وكان الاثنان، عزيز ونجيب، من هواة المسرح، يشاهدان معا العروض المسرحية. بل وتمكنا من العمل بصفة كومبارس في دار الأوبرا، ما أتاح لهما مشاهدة عروض الفرق الأوروبية. وفي 1903 حاول عزيز عيد أن يعمل مع فرقة سليمان القرداحي[25] ففشل، ثم نجح في العمل مع فرقة اسكندر فرح. وما لبث عام 1907 أن شكل "جوق عزيز عيد" الذي ضم الريحاني أيضاً، وقدم مسرحيات من نوع الفودفيل المقتبسة عن نصوص الفرنسي جورج فيدو الشهير بهذا اللون. ولم تصمد الفرقة، كون عناصرها من المغمورين.

ثم اشتغل عزيز عيد مخرجا لفرقة أخوان عكاشة. لكن بدايته الحقيقية كمخرج كانت مع فرقة جورج أبيض عام 1912 حيث أتيحت له الفرصة ليخرج نصوصا عالمية مترجمة إلى اللغة الفصحى مثل "أوديب ملكا" و"لويس الحادي عشر" و"عطيل". وفي 1915 شكل عزيز عيد "فرقة

---

(25) من رعيل المسرحيين العرب الأوائل. من أصل لبناني. بدأ مع فرقة يوسف الخياط في الإسكندرية، إلى أن أنشأ فرقة خاصة به عام 1882، ثم انتقل إلى القاهرة، وأتيحت له الفرصة لتقديم عروض فرقته في دار الأوبرا. اشتهر كمعظم أبناء جيله بالمبالغة في الأداء. كان من أوائل الذين قاموا بجولات في البلدان العربية مع فرقته. وفي 1908 توجه إلى تونس حيث عرض مسرحياته، كما درّب مجموعة من الهواة فكانت له مساهمة في زرع نواة المسرح التونسي. توفي في تونس عام 1909.

الكوميدي العربي" ضمت نجيب الريحاني وروز اليوسف. وقدم عدة مسرحيات فودفيلية، كانت ناجحة فنيا، لكنها لم تلق الرواج الجماهيري، لأن المجتمع المحافظ لم يكن يتقبّل مسرحيات بها خيانة زوجية وما شابه، ولأن صورة المسرح المثالي كانت فيما يقدمه جورج أبيض من نصوص جادة وباللغة الفصحى. ولهذا عاد إلى فرقة جورج أبيض مخرجا عام 1917.

كان عزيز عيد عاشقا للمسرح. ولا شيء عنده في الدنيا سواه. كان وراء تأسيس العديد من الفرق المسرحية، وكان مكتشف النجوم، ومنهم على سبيل المثال: روز اليوسف وفاطمة رشدي. في عام 1920 أخرج أوبريت "العشرة الطيبة" عن نص أعده الكاتب محمد تيمور، وأغاني كتبها بديع خيري، وألحان سيد درويش، وبطولة نجيب الريحاني وروز اليوسف. وكانت "العشرة الطيبة" من روائع المسرح المصري. وحين أسس يوسف وهبي فرقة رمسيس عام 1923، كان عزيز عيد مخرج الفرقة، التي قدمت مجموعة من المسرحيات العالمية باللغة الفصحى، وبعضها بالعامية بعد تمصير النص الأوروبي، ومنها من تأليف كتاب مصريين. وقد انضم جورج أبيض إلى الفرقة التي جمعت أبرز ممثلات وممثلي المسرح المصري. وفي تلك الفترة تزوج عزيز عيد من فاطمة رشدي وأشهر إسلامه. وفي 1926 انسحب من فرقة رمسيس وعاد للعمل مع صديق العمر نجيب الريحاني،

واخرج أربع مسرحيات من بطولة الريحاني وروز اليوسف، لم تنجح لأن الريحاني أراد أن يمثل المآسي، وكان الجمهور يضحك!

بعد ذلك أدار عزيز عيد فرقة فاطمة رشدي التي جمعت كوكبة من نجوم المسرح. وأخرج لهذه الفرقة عدة عروض، تنوعت بين المسرح العالمي، وبين النصوص الممصرة، الميلودرامية والكوميدية. وكانت عروض الفرقة متميزة، حتى أن أحمد شوقي قدم لها نصوصا من تأليفه: "مجنون ليلى" و"مصرع كليوباترة" التي شارك في عروضها محمد عبد الوهاب ملحنا ومغنيا. وفي 1933 وقع الطلاق بين عزيز عيد وفاطمة رشدي، وإن استمر مخرجا لعروض الفرقة.

وحين تأسست الفرقة القومية برعاية الدولة عام 1935، انضم إليها عزيز عيد مخرجا. وأخرج بعض الأعمال، منها "الملك لير" (شكسبير) و"السيد" (كورناي) و"الشعلة المقدسة" (سومرست موم). وفي 1938 استغنى مديرالفرقة القومية خليل مطران عن خدمات عزيز عيد بسبب عدم انضباطه وكثرة مشاكله مع الممثلين. وفي 1940 سافر إلى القدس للعمل في الإذاعة الفلسطينية، وانتهز الفرصة فأخرج مسرحيات لفرقة من الهواة. وكان ذلك آخر عهده بالعمل.

وعاش أيامه الأخيرة منعزلا فقيرا، وهو في الأساس لم يجمع مالا، إذ أنفق كل ما كسبه على النشاط المسرحي. وآوته أخته جنفياف في شقتها بحيّ الفجالة، إلى حين وفاته يوم 11 أغسطس 1942. وقد كتب فتوح نشاطي المخرج

القدير (كان عزيز اكتشفه وضمه إلى فرقة رمسيس) يصف منظر جثمان عزيز عيد: "وجدته مسجّى على سرير عتيق من الحديد، وأخذت أجيل البصر في أنحاء الغرفة، فراعني ما يسودها من فقر مدقع. جلست على الكرسي الوحيد، وتطلعت إلى مرآة الخزانة المحطمة، وإلى منضدة متهالكة، فشعرت بالمرارة والأسى".

كان عزيز عيد بشهادة معاصريه مخرجا متميزا. وهو ابتكر في إخراجه بعض الأساليب الفنية، منها المسرح الدائري، بما يسمح بتغيير المناظر بسرعة. وهو في إخراجه لمسرحية يوليوس قيصر جعل الممثلين في بعض المشاهد يدخلون من قاعة المتفرجين، وأجرى في القاعة بعض مواقف العرض المسرحي. وهو في مسرحية "سميراميس" جعل الديكور من ثلاثة طوابق. وفي مسرحية "عقيلة" قسم المسرح نصفين، يجري تمثيل المشهد في النصف الأول، ثم يقدم المشهد ذاته في النصف الثاني بالموسيقى والغناء بإخراج مختلف. وكان مدركا تماما لفن الإلقاء، خصوصا لدى إخراجه للمسرحيات الشعرية، فكان يطلب من الممثلين ألا يتوقفوا عند نهاية الشطر، بل عند اكتمال المعنى[26]. كان ذلك في بداية القرن

---

(26) حين يستمع المرء حاليا إلى بعض الذين يلقون الشعر العربي العمودي، يدهش من توقفهم عند نهاية الشطر حتى لو اكتمل المعنى في عجز البيت، ويدرك أن عزيز عيد كان في زمانه تقدميا.

العشرين. ويشهد له معاصروه بأنه كان عبقريا في الأداء الكوميدي يُضحك الجمهور من دون إسفاف أو استجداء الضحك. وكانت له عيوبه أيضاً، منها أن الممثلين يؤدون الأدوار بطريقة تشبه أدائه هو. ومنها تشبثه بالتمثيل في أدوار لا تصلح له. إذ كان قصيرا، غير متناسق الوجه، كبير الأنف، أصلع، ذا حدبة خفيفة في الظهر. وهو أصر مرة على تمثيل دور قيس في "مجنون ليلى" بعدما نجح في أدائه أحمد علام، وتراجع بعد تهديد أمير الشعراء بسحب مسرحيته. ومرة أخرى أصر على أداء دور الملك لير في المسرح القومي، واضطر خليل مطران إلى القبول بالتناوب، فيؤدي جورج أبيض الدور ليلة، وفي الليلة التالية يؤديه عزيز عيد. وأشاد النقاد بأداء جورج أبيض، واستهجنوا أن يؤدي عزيز عيد الدور، وإن حفظوا له حقه بالثناء على إخراجه.

وكان خصوم عزيز عيد اتهموه بأنه ينقل أساليب الإخراج عن المسرحيات الفرنسية التي شاهدها. وكان رد فاطمة رشدي العضوي بليغا، إذ أشارت إلى أنه "أخرج مسرحيات عن نصوص لمؤلفين مصريين". هذا يعني أن عزيز عيد هو مخرج العرض الأول لها. و لم ينقل إلا عن نفسه.

جــورج أبــيــض

كان لجورج أبيض دور أساسي في النهضة المسرحية في

مصر في مطلع القرن العشرين، خصوصا وأنه ظل على امتداد أربعة عقود مؤمنا بالمسرح الجاد وعنيدا في المثابرة على قدسية المهنة. ونقل رسالته إلى الفرق التي نشأت بعده، وإلى الممثلين الذين بدأوا حياتهم المهنية في فرقته، ومعظمهم أصبح من نجوم المسرح المصري.

ولد جورج أبيض في بيروت يوم 5 أيار 1880، في أسرة تنحدر من بلدة دلبتا (جبل لبنان). تلقى علومه في مدرسة الحكمة وبدأ حبه للتمثيل وهو في مقاعد الدراسة، وشارك مع فرقة المدرسة في تقديم المسرحيات. (كان عزيز عيد من رفاقه في مدرسة الحكمة في تلك المرحلة، وشاءت الظروف أن يعملا معا في القاهرة لاحقا كمحترفين). وحين بلغ التاسعة عشرة من عمره، قرر الهجرة إلى مصر، وسافر إلى الاسكندرية التي كان عمه هاجر إليها. وهناك أتيحت له الفرصة للتعرف على المسرح المحترف، عندما كان يذهب مع عمه إلى "تياترو زيزنيا" لمشاهدة المسرحيات التي تقدمها الفرق الأوروبية، والمسرحيات المصرية الغنائية التي يقدمها الشيخ سلامة حجازي، أمير الطرب في زمانه.

اشتغل الفتى جورج أبيض ناظرا لمحطة القطارات في سيدي جابر بالاسكندرية. وحدث ذات يوم أن استقبل القطار الذي يقل خديوي مصر عباس حلمي، الذي أعجب بلباقة الشاب. وكان أن قدم له عام 1904 منحة لدراسة فن المسرح في فرنسا. وكان بذلك، أول موفد من مصر إلى أوروبا

لدراسة المسرح. أمضى ست سنوات في باريس حيث درس فن المسرح، وكان الممثل الفرنسي المعروف سيلفان بين أساتذته، وقد عمل جورج أبيض في فرقته بعد تخرجه. وأثناء إقامته في باريس، شاهد العديد من العروض المسرحية المختلفة الأساليب، وأتيحت له فرصة التعرف على نجمة المسرح في زمانها سارة برنار. وعاد إلى مصر عام 1910 مع فرقة مسرحية فرنسية قدمت عروضها في دار الأوبرا. وكان الزعيم سعد زغلول في مقدمة المشاهدين فقرر تشجيع الشاب الذي درس المسرح في فرنسا. أعطاه الفرصة ليكوّن فرقة مسرحية مصرية تقدم عروضها على خشبة الأوبرا، التي كانت حكرا على الفرق الأوروبية.

في 19 مارس 1912 افتتح جورج أبيض موسم فرقته الأول على مسرح الأوبرا بمسرحية شعرية من تأليف حافظ إبراهيم "جريح بيروت". ثم قدم "أوديب ملكا" لسوفوكليس بترجمة فرح أنطون، ثم "لويس الحادي عشر" (دولافينيي/ إلياس فياض) و"عطيل" (شكسبير/خليل مطران). وكانت عروضا تختلف عما يقدم في المسارح الأخرى، إذ هى تنتمي إلى المسرح الحقيقي.

وبعد نجاح الموسم الأول طلب وزير المعارف من جورج أبيض أن يقدم مسرحياته بالعامية المصرية لتشجيع الجمهور البسيط الثقافة على ارتياد المسرح، ولتحفيز الكتاب المصريين على التأليف للمسرح. وقد حاول جورج أبيض أن

يلبي الطلب بتقديم مسرحية "تارتوف" لموليير التي مصّرها عثمان جلال. وبرغم جودة النص وحسن الأداء، لم يتقبل الجمهور جورج أبيض ممثلا كوميديا، فأقلع عن هذا اللون. لكنه فتح الأبواب أمام الكتاب، فقدم العديد من النصوص المؤلفة بالفصحى أو بالعامية، ومنها "عنترة" لأحمد شوقي و"غروب الأندلس" لعزيز أباظة و"أولاد الشوارع" و"مصر الجديدة" و"صلاح الدين" لفرح أنطون.

وفي فرقة جورج أبيض عرف الجمهور عددا من الممثلات والممثلين في بداياتهم ومنهم: حسين رياض وروز اليوسف وعبد الوارث عسر وبشارة واكيم ودولت قصبجي التي تزوجها وأصبحت الممثلة المعروفة دولت أبيض. كما قدر لجورج أبيض أن ينشيء فرقة مسرحية مشتركة مع الشيخ سلامة حجازي، ومعا قدما عروضا مسرحية بين 1914 و1916. والأهم، أن جورج أبيض كان أول من قدم سيد درويش في المسرح الغنائي، عندما أنتج أوبريت "فيروز شاه" وكلف عبقري الموسيقى وضع موسيقاها وألحانها. وشارك جورج أبيض في مسرح "رمسيس" عندما أنشأه يوسف وهبي عام 1923. كما كان أبرز ممثلي "الفرقة القومية" التي أنشأتها الحكومة المصرية عام 1935 (نواة "المسرح القومي" العريق في مصر). وحين تأسست نقابة الممثلين في مصر عام 1943، كان جورج أبيض أول نقيب.

وبعد سنة، حين تأسس المعهد العالي للتمثيل (نواة المعهد العالي للفنون المسرحية) استدعى زكي طليمات عميد المعهد جورج أبيض ليكون أستاذ مادة الإلقاء. (طليمات تتلمذ في بداياته على يد أبيض). وكان جورج أبيض يتمتع بخامة صوتية جميلة النبرات وكان يجيد الإلقاء باللغة العربية الفصحى[27].

وكان انتاجه المسرحيات باللغة العربية الفصحى عاملا مساعدا لتقديم عروضه في عدد من الدول العربية، خصوصا في لبنان وسوريا وفلسطين والعراق. وهو ساهم في تأسيس المسرح التونسي الحديث عام 1921، حين أقام نحو سنتين في تونس.

وفي السينما كانت مساهمته ضئيلة، فهو ابن المسرح البار. لكنه قام ببطولة أول فيلم عربي غنائي "أنشودة الفؤاد" الذي نظم أغانيه خليل مطران ولحنها زكريا أحمد. وشارك عام 1943 في فيلم آخر "أرض النيل". وفي عام 1953 أشهر هو وزوجته وابنتاهما إسلامهم. وعاش السنوات الأخيرة مقلاّ بسبب تراكم السنين والمرض، إلى أن توفي يوم 21 مايو 1959 نجما كبيرا وأستاذا جليلا.

---

(27) حين كنت طالبا في المعهد العالي للسينما في القاهرة (1962 ـ 1966) كان أستاذنا في مادة الإلقاء، عبد الوارث عسر، يجلب معه أسطوانات مسجلة بصوت جورج أبيض. وأعجبنا أيما إعجاب بنبرة صوته الصافية وبإلقائه المعبّر الرائع.

أمين عطا الله

ولد في الإسكندرية لأب لبناني في 17 يوليو 1896. درس في مدرسة الفرير واتجه إلى المسرح وبدأ مع فرقة اسكندر فرح، ثم انتقل إلى فرقة أشهر مطربي عصره الشيخ سلامة حجازي، كما عمل مع المخرج عزيز عيد. أنشأ مع أخيه سليم عطا الله فرقة كانت تقدم برنامجا يشمل عروض اسكتشات مسرحية، أغلبها هزلي، وأغاني يقدمها المطربون ورقصات متنوعة. ومن المصادفات التاريخية أن الأخوين أمين وسليم عطالله هما اللذان اكتشفا عبقري الموسيقى العربية: سيد درويش! كان يغني لزملائه العمال، فاستمعا إليه وضماه إلى فرقتهما وسافر معهما في جولة في بلاد الشام عام 1908. وكانت فرقة عطا الله تقوم سنويا بجولات لعدة أشهر في سوريا ولبنان وفلسطين. ومرة ثانية سافر سيد درويش مع فرقة عطا الله إلى بلاد الشام بين عامي 1912 و1914. وكانت فرقة عطا الله تقدم عروضها في الأسكندرية عام 1918 وفي الفرقة مطربة شهيرة آنذاك هي فتحية أحمد. وحدث أن اختلفت مع أمين عطا الله حول الأجر ورفضت الظهور أمام الجمهور. وكان أمين عطا الله يلمح في الكواليس طفلة في العاشرة، أخت إحدى العاملات في فرقته، تحضر كل ليلة وتحفظ الحوارات والأغاني، فسألها "سمعتك تغنين (طلعت يا محلا نورها) .. ما رأيك في أن

تغنيها أمام الجمهور ولك عندي قطعة فاخرة من الشيكولاتة؟ قالت أريد قطعتين! وغنت.. وكانت التي صارت فيما بعد اسما كبيرا في المسرح المصري: كانت فاطمة رشدي.

وقد واظب أمين عطا الله على تقديم عروض فرقته في بيروت. تشير الوثائق إلى إعلانات عن عروضه بين 1918 و1932 في مسارح بيروتية مختلفة، منها مسرح الكريستال، والأمبير، والتياترو الكبير. وهو قدم شخصية "كشكش" التي سبقه إليها نجيب الريحاني. وحين جاء نجيب الريحاني إلى بيروت فيما بعد ظن الجمهور أنه يقلد أمين عطا الله! إلى أن اكتشفوا الأصيل والمقلد.

وكان أمين عطا الله من أوائل الذين اشتغلوا في السينما المصرية، في عهد الأفلام الصامتة. مثّل دورا في الفيلم القصير "الباشكاتب" من إخراج محمد بيومي عام 1923. وفي 1928 أنتج وألّف وقام ببطولة فيلم "البحر بيضحك" الذي أخرجه استفان روستي.

توفي أمين عطا الله في 10 يونيه 1940.

بشارة واكيم

لأنه مثّل شخصية الزحلاوي في أحد الأفلام السينمائية، اعتقد كثيرون أن أصله من زحلة في لبنان. والواقع أنه من أسرة لبنانية تنحدر من مدينة صور الجنوبية.

نزح أبوه تاجر الأقمشة خليل واكيم، إلى القاهرة، التي فيها ولد بشارة في حيّ الضاهر سنة 1889. كان رابع الأبناء وله خمسة أشقاء وشقيقتان. أمه نازلي ناصيف من طرابلس.

درس بشارة واكيم الحقوق الفرنسية، وبعد التخرج عمل مساعدا لمحام أمام المحاكم المختلطة. وفي 1912 توجه لمقابلة جورج أبيض في دار الأوبرا، وأخبره بأنه يهوى التمثيل، وقد تسلل مرارا إلى الكواليس وشاهده يمثل، وألحّ على الانضمام إلى فرقته. ولم يرد جورج أبيض أن يؤثر في مستقبله كمحام، ووعده أن يضمه إلى فرقته لاحقا. وتأخر الاستدعاء خمس سنوات. كان جورج أبيض يقدم عام 1917 عروضه في دار الأوبرا: ثلاث ليال باللغة العربية وليلتان بالفرنسية. جاءه بشارة مذكرا بالوعد القديم، فضمه إلى فرقته ممثلا باللغتين، وأظهر تفوقا في أداء الأدوار باللغة العربية الفصحى. وقد روى لي ابن اخته ألبير طبشي "عندما اشتغل خالي بالمسرح حلق شاربيه لتسهيل عملية الماكياج. كان أبوه قد توفي، فطرده أخوه الأكبر من البيت لأنه حلق الشنب ولأنه اشتغل مشخصاتي فاضطر إلى المبيت في المسرح". وبعد فرقة جورج أبيض انضم إلى فرقة عبد الرحمن رشدي.

ولم يكن بشارة واكيم مجرد ممثل، بل ترجم العديد من النصوص المسرحية العالمية، وأحيانا كان يقوم بالتمصير ايضا. هو الذي أعد النص المصري لأوبريت "شمشون ودليلة" (المقتبس عن كامي سان سانس) التي لحنها داود

حسني وقامت ببطولتها منيرة المهدية مع فرقة إخوان عكاشة. وفي 1924 عاد إلى فرقة جورج أبيض ممثلا ومترجما. قام بتعريب "انا وهو اندريه" لفكتوريان ساردو. وفي 1926 فاز بجائزة وزارة المعارف لإجادته تمثيل "أدوار الدرام". ولم يخطر ببال أحد أنه سيصبح أحد نجوم الكوميديا في المسرح والسينما. وكان تحوله إلى الكوميديا مع مسرحية "الغندورة" التي قدمتها فرقة منيرة المهدية، وكان بشارة انضم إليها ممثلا ومترجما ومديرا فنيا. في هذه المسرحية أتقن أداء دور جحا، فاعتمد ممثلا كوميديا قديرا.

وفي 1927 انضم إلى فرقة فاطمة رشدي (مخرجها عزيز عيد) ممثلا يؤدي مخنلف الأدوار المضحكة والمبكية. كما قدم بشارة للفرقة نصوصا: ترجم بالاشتراك مع خليل مطران مسرحية "بحد السيف". ووحده ترجم "الإمبراطور" و"الجبابرة". وفي 1929 وقف على خشبة دار الأوبرا مؤديا دور البطولة في المسرحية الشعرية "مصرع كليوباترة" التي صاغها أحمد شوقي. أدت فاطمة رشدي دور كليوباتره وبشارة واكيم دور مارك انطونيو. وحين حلت فاطمة رشدي فرقتها انضم بشارة إلى مسرح رمسيس، بالمهمات ذاتها.

وفي 1934 التحق بمسرح نجيب الريحاني، وظل فيه حتى وفاته بعد 15 سنة. كان مسرح الريحاني أصبح المسرح الكوميدي بامتياز. وفي هذا المسرح تفرغ بشارة واكيم لأداء الأدوار الكوميدية، وهى التي أسست شهرته. وكانت الفرقة

تضم أساتذة الكوميديا: نجيب الريحاني، محمد كمال المصري (شرفنطح) عبد الفتاح القصري، حسن فايق، استفان روستي، سراج منير، ماري منيب، ميمي شكيب وسواهم.

واجتذبت السينما بشارة واكيم إليها، وفي العديد من الأفلام أدى دور "اللبناني". ومن أبرز الأفلام التي شارك بها "رصاصة في القلب" مع محمد عبد الوهاب، و"غرام وانتقام" مع اسمهان ويوسف وهبي، و"لعبة الست" مع نجيب الريحاني وتحية كاريوكا و"طلاق سعاد هانم" مع صباح وأنور وجدي و"لبناني في الجامعة" أول فيلم مثله محمد سلمان.

وفي 1948 أصيب بشارة واكيم بشلل نصفي أثر في إحدى ذراعيه وطرف فمه. وفي يونيه 1949 توفي صديقه الحميم نجيب الريحاني، وبعد خمسة اشهر توفي بشارة واكيم.

عبد السلام النابلسي

في 8 تموز 1968 توفي الممثل السينمائي عبد السلام النابلسي في بيروت، وكان قد عاد إليها من تونس قبل أسبوع، بعدما شارك مع صباح وفريد شوقي في تمثيل فيلم "رحلة السعادة" من إخراج محمد سلمان، ولم يكتب له أن يشاهده.

وهو ينتمي إلى العائلة العريقة في منطقة عكار (شمال لبنان) التي منها الفقيه الشيخ عبد الغني النابلسي. وربما كان أصل العائلة ـ كما يدلنا الاسم ـ من مدينة نابلس في فلسطين. وكان أبوه قاضيا. وفي العشرينات أقنع عبد السلام أباه بضرورة سفره إلى مصر لدراسة الأدب العربي. وحمّله أبوه رسالة توصية إلى شاعر القطرين خليل مطران الذي كان مقيما في القاهرة آنذاك. وفي المقابلة التي تمت بينهما طلب عبد السلام من الشاعر الكبير أن يقدمه إلى الممثل المشهور جورج أبيض، واعترف بأنه من هواة التمثيل وأنه يحب العمل في المسرح. وكان جورج أبيض يقدم مسرحياته باللغة العربية الفصحى. ولما سمع عبد السلام يلقي شعراً ويقرأ نثراً دون أن يلحن، قرر أن يضمه إلى فرقته. وبعدما شارك في التمارين على مسرحية "يوليوس قيصر" (تأليف فكتوريان ساردو وتعريب حبيب جاماتي) صعد عبد السلام إلى المسرح، وكانت المفاجأة في الليلة الأولى. الدور المسند إليه تراجيدي، لكنه ما إن دخل المسرح حتى ضحك الجمهور. وما كاد ينطق بالعبارات الأولى من دوره حتى تعالت القهقهات! وأسقط في يد الممثل الشاب. ولما رجع إلى الكواليس أنّبه جورج أبيض وقد ظن أن عبد السلام هرّج على الخشبة. فأقسم بأنه أدّى الدور كما هو مطلوب منه تماما وأنه شخصيا مستاء لا يدري لماذا ضحك المتفرجون. ومن الكواليس راح جورج أبيض يراقب أداء النابلسي. ولما انتهى

العرض قال له "أنت ولدت لتكون ممثلا كوميديا. دعك من التراجيديا. اسلك خط الكوميديا وسيكون لك فيها شأن عظيم".

وصدق توقع جورج أبيض وصار عبد السلام النابلسي نجما كوميديا لامعا في السينما المصرية، واشتهر بتلك الشخصية التي ابتكرها لنفسه: شخصية المتشاوف، التي أحبها الجمهور في سائر أنحاء العالم العربي. وقبل أن يصير نجما سينمائيا، كان عبد السلام النابلسي قد اكتسب خبرة تمثيلية من خلال عمله في المسرح مع فرقتي جورج أبيض ويوسف وهبي. ومنذ ذلك الحين أقام في مصر. وكانت دائرة أصدقائه المصغرة تضم الموسيقار فريد الأطرش والممثل أنور وجدي، وكلاهما مثله من "برّ الشام". وفي الستينات عندما أنتج فيلم "طريق الدموع" الذي أخرجه حلمي حليم عن قصة حياة أنور وجدي (وقام بدوره كمال الشناوي) لم يتمكن النابلسي عاطفيا من أداء دوره الحقيقي، فأسند الدور إلى عبد المنعم إبراهيم. وعرف الذين تابعوا السيرة الذاتية خلال الفيلم، أن أنور وجدي والنابلسي في سنوات الشباب الأولى وبداية العمل، كانا ينامان في المسرح لأن مواردهما المالية لا تسمح لهما باستئجار شقة للسكن!

وما لبث عبد السلام النابلسي أن اندمج تماما بالمجتمع المصري وقال: "عاشرت أهل مصر الطيبين فصرت منهم وما

رحلت عنهم. ولما رجعت إلى لبنان بعد نيّف وثلاثين سنة، ظلت مصر في قلبي".

في مطلع الستينات استقر عبد السلام النابلسي في بيروت، وشارك في بطولة عدد من الأفلام اللبنانية والأفلام المصرية التي كانت تصور في لبنان. وأودع ثروته في بنك إنترا في لبنان، ليس كوديعة، وإنما اشترى بها أسهماً. وعندما انهار المصرف عام 1966 خسر عبد السلام النابلسي مدخرات العمر. إذ عوّضت الحكومة اللبنانية وقتها على المودعين، أما حملة الأسهم فاعتبرتهم بمثابة مالكي المصرف. وتركت هذه الحادثة أثراً سيئا في نفسية الفنان المرهف، وتالياً في صحته[28].

---

(28) تسنّي لي عام 1968 أن أعمل مساعدا ثانيا للمخرج السينمائي هنري بركات حين أخرج في بيروت فيلم "الحب الكبير" من بطولة فريد الأطرش وفاتن حمامة ويوسف وهبي وعبد السلام النابلسي. كانت مهمتي أن أساعد الممثلين في حفظ الحوار قبل التصوير. وفي أول يوم عمل لعبد السلام النابلسي، طلبت منه أن أراجع معه الحوار، فقال: أسمعني وأنا سأتصرف. ولأنني خريج معهد سينما اخبرت المخرج بركات برغبة النابلسي في الارتجال. فطلب مني أن أرجوه أن يلتزم بالحوار المكتوب. رفض النابلسي ذلك وعلّق بقوله: "الدور كما هو مكتوب، يصلح له محمود المليجي. يؤديه أفضل مني. وهيأ نفسه للذهاب والاستغناء عن العمل، برغم حاجته إليه بعد تعرضه لخسارة ثروته في مصرف انترا (1966). تدخل فريد الأطرش وفاتن حمامة

وكان عبد السلام النابلسي مثقفا يجيد اللغة الفرنسية. أما اللغة العربية فكانت عشقه وكان مفتونا بها. يحفظ الكثير من الشعر العربي ويهوى المناقشة في مصادر الكلمات وفي صرفها ونحوها، ويقرأ بشغف في هذا الموضوع، ويكتب الخواطر الأدبية. وهذه معلومة غير متداولة عنه. إذ طغت دائما صورة الممثل الهزلي على سواها. وفي ملحق جريدة "النهار" اللبنانية (31 ديسمبر 1967) قصيدة بعنوان "رسالة من السماء إلى الذين يختبئون في ثيابهم" صاغها النابلسي استطراداً لمقال كتبه في العدد السابق الشاعر أنسي الحاج بعنوان "يسوع المسيح.. إحضر حالا". كتب عبد السلام النابلسي: "سمعت الصوت يأتي إلى سمعي كأنه يذهب منه / لكنه كان ينصب في قلبي كما ينصب شلال من نور".

= ويوسف وهبي وعقدوا اجتماعا حضره بركات أيضاً في محاولة لإقناع النابلسي. توصلوا بالنتيجة إلى أن يعيد النابلسي صياغة الحوار بما يتناسب مع شخصيته الكوميدية. وبعد سنوات، التقيت بالكاتب يوسف جوهر واضع سيناريو وحوار الفيلم. وعرفت منه أنه كتب الدور أساسا ليؤديه المليجي! ولما تعذر سفره إلى بيروت بسبب ارتباطه بعمل آخر، أسند الدور إلى عبد السلام النابلسي. استخلصت من ذلك أن النابلسي كان يحترم نفسه وفنه. رفض أن يؤدي دورا لا يناسبه، برغم الحاجة المادية. بل وكان يملك حسّا فنيا صادقا، إذ رشح للدور الممثل الذي كُتب الدور له.

آسيا داغر

من الرائدات في تاريخ السينما المصرية. ولدت في بلدة تنورين (شمال لبنان) عام 1908. وشاركت بالتمثيل في فيلم لبناني صامت عام 1922 بعنوان "تحت ظلال الأرز". وفي السنة التالية هاجرت إلى مصر وبصحبتها ماري يونس ابنة أختها، وحلت في القاهرة ضيفة على ابن عمها الصحافي أسعد داغر، وكان محررا في "الأهرام".

في عام 1927 شاركت بالتمثيل في أول فيلم مصري صامت، فيلم "ليلى" من انتاج عزيزة أمير. وبعد سنة أسست آسيا داغر شركة للإنتاج السينمائي "لوتس فيلم" ستغدو واحدة من أعرق شركات الانتاج في مصر والعالم العربي. وأنتجت أول فيلم عام 1929 بعنوان "غادة الصحراء" وقامت ببطولته وكان من إخراج التركي المقيم في مصر وداد عرفي. وكان هذا الفيلم سابع فيلم في تاريخ السينما المصرية. واستحقت آسيا داغر لقب "عميدة المنتجين" لأن الذين سبقوها في هذا المجال أمثال عزيزة أمير وبهيجة حافظ والأخوين لاما اعتزلوا المهنة، فيما واصلت هى الانتاج، وبلغ مجموع ما أنتجته 49 فيلما.

الفيلم الثاني أنتجته آسيا داغر عام 1931 "وخز الضمير" كان من إخراج إبراهيم لاما. وفيه مثلت ابنة شقيقتها التي اشتهرت باسم ماري كويني. ثم تعرفت آسيا على

الصحافي والروائي والسينمائي أحمد جلال، وأنتجت من 1933 إلى 1942 اثني عشر فيلما، من إخراج أحمد جلال وبطولته مع آسيا داغر وماري كويني. وهى أفلام عرفت النجاح، ومنها "عيون ساحرة" و"بنت الباشا" و"فتش عن المرأة" و"فتاة متمردة" و"إمرأة خطيرة".

وكان أحمد جلال تزوج من ماري كويني عام 1940. وبعد سنتين انفصلا عن آسيا داغر، وأسسا "أفلام جلال" ثم "استوديو جلال". وكان فيلم "الهانم" آخر فيلم قامت آسيا داغر ببطولته عام 1944. وبعده تفرغت تماما للإنتاج. وكانت تهوى قراءة الروايات بالعربية والفرنسية ومشاهدة الأفلام، وتميزت كمنتجة بالجرأة والإقدام على إنتاج أفلام تتطلب ميزانية كبيرة، كالأفلام التاريخية. وفي سجل أفلامها: "شجرة الدر" (1935) إخراج أحمد جلال و"أمير الانتقام" (1950) إخراج بركات، و"الناصر صلاح الدين" (1962) إخراج يوسف شاهين. إضافة إلى فيلم "رد قلبي" عن قصة يوسف السباعي وإخراج عز الدين ذو الفقار، وقد ضم مجموعة من النجوم ذوي الأجور المرتفعة من بينهم: مريم فخر الدين، شكري سرحان، أحمد مظهر. وقد تكلف "الناصر صلاح الدين" 200 ألف جنيه، وهو رقم ضخم في زمانه. أول فيلم عربي بالسينما سكوب. وهو مشروع تنتجه شركة كبرى، أقدمت عليه آسيا بمفردها. ولم يحقق هذا الفيلم إيرادات

تعادل مصروفاته فأوقع آسيا داغر في خسارة موجعة، ظلت تعمل سنوات لتسديد الديون.

وكان لآسيا داغر فضل اكتشاف النجوم والمخرجين. قدمت صباح لأول مرة في فيلم "القلب له واحد" عام 1945. وهى أتاحت الفرصة لعدد من المخرجين ليقدموا أول أفلامهم: بركات في فيلم "الشريد" 1942، حسن الإمام في فيلم "اليتيمتين" 1948، يوسف معلوف في "في الهوا سوا" 1951، أحمد كامل مرسي في "ست البيت" 1951، حلمي رفلة في "على كيفك" 1952، إبراهيم عمارة في "ظلمت روحي" 1952

وعندما أنشأت وزارة الثقافة المصرية القطاع العام للانتاج السينمائي، تولت آسيا داغر مهمة المنتج لحساب المؤسسة العامة للسينما في أفلام منها "يوميات نائب في الأرياف" لتوفيق صالح عن قصة توفيق الحكيم، و"أوهام الحب" لممدوح شكري.

توفيت آسيا داغر في القاهرة في 12 يناير 1986. وفي سجلها انها رائدة الانتاج السينمائي.

ماري كويني

ابنة شقيقة آسيا داغر. ولدت أيضاً في تنورين في 13 تشرين الثاني 1916. رافقت خالتها إلى مصر عام 1923،

وأقامت في القاهرة معها في البداية. اسمها الحقيقي ماري يونس. أما كويني، فلقب أطلق عليها، تشبها بملكة بريطانيا "كوين ماري". في القاهرة درست في مدرسة راهبات فرنسيات. وكانت في الثالثة عشرة من عمرها، عندما وقفت أمام الكاميرا لأول مرة في فيلم "غادة الصحراء". ثم في الفيلم التالي "وخز الضمير" عام 1931. كما شاركت بالتمثيل في كل الأفلام التي أخرجها أحمد جلال لحساب "لوتس فيلم" شركة خالتها آسيا داغر. كما بدأت تعمل في توليف الأفلام (مونتيرة) بدءا من فيلم "عندما تحب المرأة" عام 1933. لكنها توقفت عن المونتاج وتفرغت للتمثيل.

وفي 1940 قامت بدور البطولة لأول مرة في فيلم "فتاة متمردة" الذي أخرجه أحمد جلال. وفي السنة نفسها تزوجا. وفي 1942 انفصلا عن آسيا داغر وأنشأ معا شركة "أفلام جلال" ثم استوديو جلال، وهو من أعرق الاستوديوهات المصرية. وكان فيلم "رباب" باكورة انتاج الشركة الجديدة. وقد حقق نجاحا تجاريا كبيرا شجعهما على مواصلة انتاج الأفلام.

وفي 1947 توفي أحمد جلال، فأصيبت ماري كويني بصدمة. لكنها تماسكت وواصلت المشوار. وكان فيلم "عودة الغائب" آخر أفلام أحمد جلال عرض بعد وفاته بأربعة أشهر ولقي إقبالا جماهيريا كبيرا. وكانت ماري كويني في الحادية والثلاثين من عمرها عندما أصبحت أرملة. رفضت الزواج

وهي في أوج تألقها كممثلة، وفي أوج شبابها، وتفرغت لتربية ولدها الوحيد نادر جلال، ولإدارة شركة الانتاج والاستوديو. وأكملت المسيرة بعزم وأنتجت سلسلة من الأفلام، ما جعلها في مصاف المنتجات الكبيرات. ومن أفلامها التي أنتجتها: "ظلموني الناس" (فاتن حمامة وكمال الشناوي، إخراج حسن الإمام) 1950 و"ابن النيل" (فاتن حمامة وشكري سرحان، إخراج يوسف شاهين) 1951. وكان فيلم "نساء بلا رجال" آخر فيلم مثلته ماري كويني وشاركها البطولة فيه عماد حمدي، وهو من إخراج يوسف شاهين. واعتزلت ماري كويني التمثيل عام 1953، وهى في السابعة والثلاثين. وكان مجموع الأفلام التي مثلتها 21 فيلما.

بعدها تفرغت تماما للإنتاج. واهتمت بتطوير استوديو جلال، وأنشأت فيه أول معمل للأفلام الملونة وأفلام السينما سكوب في مصر. وأقدمت على الانتاج المشترك مع اسبانيا وإيطاليا. إلى أن أممت الحكومة المصرية استوديوهات السينما فخضع استوديو جلال للتأميم. لكن ماري كويني ظلت تعمل كمنتجة أفلام. وأنتجت عام 1965 فيلم "فجر يوم جديد" للمخرج يوسف شاهين. ولم يحقق الفيلم إيرادا يوازي تكاليفه، فتريثت عن الانتاج لحساب شركتها، واشتغلت كمنتجة لحساب القطاع العام في الفترة ما بين 1967 و1971: أربعة أفلام: "عندما نحب" و"إجازة صيف" و"أنا الدكتور" و"مذكرات الآنسة منال".

ثم عادت إلى العمل كمنتجة لحسابها الخاص عام 1972. وكان فيلم "غدا يعود الحب" باكورة انتاجها الجديد، وهو أول فيلم يخرجه ولدها نادر جلال، الذي كان تخرج في المعهد العالي للسينما عام 1964 بتفوق. وكان فيلم "أرزاق يا دنيا" آخر فيلم أنتجته ماري كويني عام 1982. وهو من إخراج نادر جلال أيضاً وبطولة نور الشريف ويسرا.

تقاعدت بعدما أدت دورا مهما في الانتاج السينمائي المصري. وتوفيت بالقاهرة يوم 25 نوفمبر عام 2003.

يوسف معلوف

لبناني الأصل، من مدينة زحلة. بدأ عمله في السينما المصرية عام 1942 كمساعد إنتاج في فيلم "ليلة الفرح". وفي السنة ذاتها عمل كمساعد للمخرج بركات في فيلم "لو كنت غني". ومارس مهمة مساعد المخرج لمدة تسع سنوات. وفي 1950 اشتغل بهذه الصفة في آخر فيلمين: "معلش يا زهر" إخراج بركات، و"قسمة ونصيب" إخراج محمود ذو الفقار. بعدها أعطته المنتجة آسيا داغر الفرصة ليصبح مخرجا عام 1951. كان فيلم "في الهوا سوا" من بطولة شادية وكمال الشناوي واسماعيل يس باكورة أفلامه كمخرج. ومن بطولة الثلاثي ذاته أخرج فيلميه الثاني والثالث: "الدنيا

حلوة" و"الهوا ما لوش دوا". أما آخر أفلامه التي أخرجها في مصر فكان عام 1961 بعنوان "أعز الحبايب" وهو من بطولة سعاد حسني وشكري سرحان.

استقر به المقام في بيروت وفيها انطلقت مسيرته السينمائية الثانية عام 1964 بفيلم "الأجنحة المتكسرة" عن قصة جبران خليل جبران ومن بطولة نضال الأشقر. تلاه في العام ذاته فيلم أخرجه في دمشق بعنوان "عقد اللولو" من بطولة صباح وفهد بلان ودريد لحام ونهاد قلعي. وكان أول فيلم سينمائي للثنائي الكوميدي السوري. ثم توزع عمل يوسف معلوف بين بيروت ودمشق. وأخرج أفلاما عديدة من بطولة غوار الطوشة (دريد لحام) وحسني البورظان (نهاد قلعي): "المليونيرة".. "الصعاليك".. "أنا عنتر".. "واحد زائد واحد".. "الثعلب".. والملاحظ أن معظم أفلام يوسف معلوف التي أخرجها في مصر ولبنان وسوريا أفلام كوميدية. وكان أهل الوسط السينمائي في البلدان الثلاثة يطلقون على يوسف معلوف لقب "المبروك". والسبب أن أفلامه جميعا ـ بصرف النظر عن مستواها الفني ـ حققت إيرادات كبيرة. ولم يخسر منتج في فيلم أخرجه يوسف "مبروك" أو معلوف.

غير أن البركة خانته في آخر لحظات حياته عام 1974. سقط أرضا في شارع الحمراء وكان خارجا لتوه من مقهى "هورس شو" وظل يتلوى ويلفظ أنفاسه على الرصيف. وحين وصلت سيارة الإسعاف كان قد اسلم الروح.

عـايـدة هـــلال

اسمها الحقيقي لوريس نقولا نصر. من مواليد 22 تموز 1925 في لبنان. عملت في تصميم الأزياء قبل أن تهاجر إلى مصر وتدخل مجال التمثيل السينمائي. أول دور مثلته في فيلم "فتاة السيرك" أمام نعيمة عاكف عام 1954، إخراج حسين فوزي. وخلال عشر سنوات مثلت نحو خمس عشرة فيلما، منها "حب وإعدام" (كمال الشيخ) "شمس لا تغيب" (حسين حلمي المهندس) "سر إمرأة" (عاطف سالم) "لا تذكريني" (محمود ذو الفقار) "عنترة بن شداد" (نيازي مصطفى). على أن أشهر أدوارها كان في فيلم "شهيدة الحب الإلهي" وفيه قامت بدور رابعة العدوية وشاركها البطولة رشدي أباظة. والفيلم من إخراج عباس كامل (1961).

وبرغم أنها اكتسبت شهرة في مصر، وأسندت إليها أدوار البطولة في الأفلام، عادت إلى لبنان في منتصف الستينات (القرن العشرين) وأقامت في كفر شيما. وكانت متزوجة من الصحافي المصري عبود فودة. (زوجها الأول كان رجل أعمال لبناني). وفي لبنان ترأست عايدة هلال نقابة الممثلين. وكانت أول سيدة تتولى هذا المنصب.

في عام 1968 أنتجت فيلم "ميريام الخاطئة" وقامت ببطولته، وقد أخرجه في لبنان سيمون صالح (وكان عمل لسنوات طويلة في مصر كمساعد مخرج) عن سيناريو لعبود فودة.

كانت عايدة هلال شاركت خلال إقامتها في القاهرة في عدد من المسلسلات الإذاعية، واكتسبت خبرة في هذا المجال، استثمرتها عبر مشاركتها في دبلحة المسلسلات الأجنبية، وقامت بالبطولة "الصوتية" لغير مسلسل عرض في التلفزيونات العربية. وكانت مشاركتها في الدبلجة آخر نشاطاتها الفنية في السنوات الأخيرة.

توفيت عايدة هلال في بيروت في 5 آب 1987.

علوية جميل

اشتهرت في الآفلام المصرية بدور المرأة المتسلطة القوية. وقليل من الناس يعلم أنها من أصل لبناني، وأن اسمها الحقيقي أليصابات خليل مجدلاني. ولدت في السنبلاوين (محافظة الدقهلية) عام 1904. انضمت إلى فرقة رمسيس المسرحية لدى تأسيسها عام 1923. وصاحب الفرقة، يوسف وهبي، هو الذي أطلق عليها اسمها الفني: علوية جميل. تولى عزيز عيد تدريبها على التمثيل المسرحي. وعملت مع فرقة رمسيس نحو 90 مسرحية، منها "كرسي الاعتراف" و"راسبوتين" و "رجل الساعة". وعندما حل يوسف وهبي فرقته عام 1942، انضمت إلى المسرح القومي واستمرت في فرقته عشر سنوات مثلت خلالها عشر مسرحيات.

في السينما بدأت عام 1939 في فيلم "يوم سعيد"

بطولة محمد عبد الوهاب. وهو الفيلم الذي مثلت فيه الطفلة فاتن حمامة. وفي الإجمال مثلت في 46 فيلم، من بينها "أولاد الفقراء" و"الملاك الأبيض" و"عريس الهنا"، وآخرها "عيلة مجانين" عام 1967، وبعده اعتزلت التمثيل.

تزوجت عام 1938 من الممثل محمود المليجي. واستمر الزواج حتى وفاته عام 1983. لم ينجبا. وحدث أن تزوج محمود المليجي من زميلة له في مسرح اسماعيل يس. دام الزواج ليلة واحدة. ثم وقع الطلاق. ومن شهرة علوية جميل بأنها المرأة القوية، قالت الألسنة الساخرة في الوسط الفني المصري: لم يطلق المليجي زوجته الثانية، بل هى علوية جميل التي اتصلت بها تلفونيا وقالت لها "يا فلانة.. إنت طالق"!

أقعد المرض علوية جميل في سنوات عمرها الأخيرة. وتوفيت بالقاهرة في 14 أغسطس 1994.

روفائيل جبور

الابن البكر للمفكر والمناضل رفيق جبور. ولد في اسطمبول عام 1914. مات أبوه وهو في الثانية عشرة من عمره. وبعدما حصل على البكالوريا اشتغل محاسبا في مصنع للمواد الغذائية ثم في مصرف. لم يمتهن السياسة أو الصحافة كأبيه، لكنه كان محبا للأدب والفن.

بدأت صلته بالفن حين اشتغل عام 1933 في فيلم

"الدفاع" بطولة وإخراج يوسف وهبي. كان مساعدا ثانيا للمخرج. ثم التحق روفائيل جبور بفرقة رمسيس المسرحية التي أعاد يوسف وهبي تكوينها بعد تأسيس "الفرقة القومية" عام 1935. عمل سبع سنوات ملقنا ومديرا للانتاج وممثلا أدوار صغيرة. ولأنه كان يتقن الفرنسية، ترجم بعض النصوص التي قام يوسف وهبي بإعدادها وتمصيرها. وفي فرقة رمسيس توطدت الصداقة بينه وبين أمينة رزق. وحين أنتجت فيلم "ضحايا المدنية" أسندت إليه إدارة الانتاج. كان الفيلم من بطولتها مع يحي شاهين ومن إخراج نيازي مصطفى. ومن بعد عمل روفائيل جبور مديرا للانتاج في 101 فيلم، من أشهرها "لا أنام" عن قصة إحسان عبد القدوس، إخراج صلاح أبو سيف وبطولة فاتن حمامة وعمر الشريف وهند رستم، و"يوم من عمري" بطولة عبد الحليم حافظ وزبيدة ثروت وإخراج عاطف سالم، و"فجر يوم جديد" إخراج يوسف شاهين وبطولة سناء جميل.

وأسس مع المخرج عاطف سالم والمونتير سعيد الشيخ "شركة أفلام الشمس" وما لبث أن استقل بها. ومن الأفلام التي أنتجها "قلوب العذارى" من بطولة شادية وكمال الشناوي وإخراج حسن الإمام. و"بحبوح أفندي" بطولة إسماعيل يس وإخراج يوسف معلوف. وهو الذي قدم المخرج سعد عرفة (والد المخرج شريف عرفة) لأول مرة حين أنتج

"لقاء في الغروب" (مريم فخر الدين ورشدي أباظة).

وفي أواخر ستينيات القرن العشرين عاد إلى بيروت واستقر بها وافتتح مكتبا لتوزيع الأفلام، أغلقه عام 1978 بسبب الحرب، ثم تقاعد وسكن في صربا (قرب جونيه/ جبل لبنان). ولروفائيل جبور شقيقة اشتهرت كممثلة في المسلسلات التلفزيونية المصرية، هى نادية رفيق.

يوسف شاهين

يوسف شاهين هو نموذج لأبناء الجيل الثاني من المهاجرين اللبنانيين إلى مصر. أبوه، المحامي أديب شاهين صوايا، من زحلة في لبنان. أما يوسف، أو جبرائيل، فولد في مدينة الإسكندرية يوم 25 يناير 1926. وهو مصري ينحدر من أسرة لبنانية. وبرغم أنه أقام لفترة في لبنان، وأخرج فيلمين خلال منتصف ستينيات القرن العشرين، إلا أنه ما لبث أن عاد إلى مصر وواصل عمله كمخرج مصري. والفيلمان اللذان أخرجهما في لبنان، أنجزهما بصفة مخرج مصري. "بياع الخواتم" بطولة فيروز، عن مسرحية غنائية للأخوين رحباني، فيلم لبناني القصة والحوار والأغاني والموسيقى، لكن موضوعه يتجاوز لبنان إلى ما هو أرحب، فهو يخاطب الإنسان أينما كان، وليس تعبيرا عن موضوع محلي لبناني. وقد جاء إخراج يوسف شاهين له رائعا، حيث التقط معنى

المقدمة "رح نحكي قصة ضيعة، لا القصة صحيحة، ولا الضيعة موجودة" وصمم الإخراج على أساس أن تدور الأحداث في ضيعة خيالية لا تشبه القرية اللبنانية التقليدية. وأما الفيلم الثاني "رمال من ذهب" الذي قامت فاتن حمامة ببطولته، فهو أيضاً إنتاج مشترك مع أوروبا، ليس بالفيلم اللبناني أو المصري، من حيث الهوية، وإنما هو مجرد فيلم لا حدود له. وظل يوسف شاهين على علاقة ود مع لبنان. وفي عام 2001 كرمته بلدية مدينة زحلة، وأطلقت اسمه على أحد شوارعها.

بدأ يوسف شاهين الدراسة في مدرسة سان مارك (الفرنسية) التي تبعد خطوات عن بيت أبيه في حيّ الشاطبي في الإسكندرية. ثم انتقل إلى المدرسة الإنكليزية حتى نهاية المرحلة الثانوية. ثم سافر إلى كاليفورنيا حيث درس الإخراج المسرحي في "باسادينا بلاي هاوس". وعاد في نهاية الأربعينات ليبدأ عمله كمخرج سينمائي عام 1950، حين أخرج أول أفلامه "بابا أمين". وستبقى السينما عالمه، ولم يخرج للمسرح سوى مرة عام 1992، حين أخرج "كاليغولا" لألبير كامو في مسرح الكوميدي فرانسيز العريق في باريس.

ويمكن تقسيم أفلام يوسف شاهين إلى ثلاث مراحل: الأولى، منذ البداية وحتى أواخر الستينات. كان فيها مخرجا يعمل وفق ما تتطلبه ظروف الانتاج السائدة. يعهد إليه المنتج إخراج فيلم ما، فيحققه محاولا فرض أسلوبه قدر الإمكان.

أفلام ذات طابع تجاري، وأفلام متميزة، منها ثاني فيلم أخرجه "ابن النيل" وفيلم "صراع في الوادي" الذي أطلق فيه ممثلا جديدا ما لبث أن صار نجما هو عمر الشريف، وفيلم "باب الحديد" وقد قام شاهين ببطولته أيضاً، فأظهر موهبة خاصة في التمثيل أيضاً. ومن أفلام تلك الفترة أيضاً: "جميلة" عن المناضلة الجزائرية، و"الناصر صلاح الدين" و"فجر يوم جديد".

وبعد الهجرة إلى بيروت عام 1965 التي دامت سنتين، عاد إلى القاهرة بعد نكسة يونيو/حزيران 1967، لتبدأ المرحلة الثانية من أفلامه. وقد تميزت بتحول نحو الأفلام ذات الطابع السياسي. منها "العصفور " و"عودة الإبن الضال" و"الأرض" المقتبس عن رواية لعبد الرحمن الشرقاوي. ثم بدأ يخرج أفلاما تتناول سيرته الذاتية ممزوجة بالواقع المصري المرافق لها. ومنها "اسكندرية ليه" و"حدوته مصرية" و"اسكندرية كمان وكمان". وبدءا من هذه الأفلام، تحول يوسف شاهين إلى منتج لأفلامه، وإلى مؤلف لها. وفي "اسكندرية ليه" بالذات عرض لأسرته ذات الجذور غير المصرية، لكنها ليست غريبة تماما عن المجتمع المصري. ولأن التحول جعل أفلام يوسف شاهين تندرج في إطار ما يسمى بسينما المؤلف، أصبح يكتب سيناريوهات أفلامه بنفسه، أو أصبح يشارك مع كاتب آخر في الكتابة.

وكان يوسف شاهين أستاذا في المعهد العالي للسينما في

القاهرة منذ تأسيسه عام 1959، إلى حين تقاعده من التدريس. والعديد من المخرجين الجدد كانوا من تلاميذه. بل إنه عبر شركة الانتاج التي أسسها، ساعد العديد من الشباب ليتمكنوا من إخراج أفلامهم.

المرحلة الثالثة من أفلام يوسف شاهين، بدأت مع دخوله الانتاج السينمائي العالمي. مع فيلم "وداعا بونابرت" ثم "اليوم السادس" المأخوذ عن رواية أندريه شديد وقد قامت المطربة داليدا ببطولته، وشارك فيه يوسف شاهين كممثل أيضاً. وأفلام هذه المرحلة فيها المبدع المتميز وفيها ما جاء أقل من التوقعات، وفيها ما بين بين. ومنها أفلام: "المهاجر" و"الآخر" و"سكوت حا نصور" و"اسكندرية نيويورك".. وفيلم "المصير" الذي تناول شخصية الفيلسوف الأندلسي ابن رشد. وفي المرحلة الأولى كان يوسف شاهين قد أخرج بعض الأفلام من بطولة كبار المطربين مثل فريد الأطرش وشادية. وفي أفلام المرحلة الأخيرة، أعاد استخدام الأغنية، لكن بوظيفة درامية وفكرية.

في مسيرته الفنية المتألقة والطويلة، تمكن يوسف شاهين من تجديد اللغة السينمائية. وهو فاز بعدة جوائز عربية منها الجائزة الذهبية في مهرجان قرطاج عام 1970 عن فيلم "الأرض"، وبجائزتين كبيرتين على الصعيد العالمي: في عام 1978 فاز بجائزة "الدب الفضي" في مهرجان برلين السينمائي الدولي عن فيلم "اسكندرية ليه". وفي عام 1997

فاز بالجائزة الكبرى الخاصة في مهرجان كان السينمائي الدولي تقديرا له على مجمل أعماله.

وإذا بحثت عن الرواسب اللبنانية عند يوسف شاهين لوجدت ملامح منها في النشأة والمدرسة، وحرص الأهل على أن يتقن أبناؤهم اللغات الأجنبية. ولوجدت تفصيلا عنها في فيلم "اسكندرية.. ليه". إضافة إلى أن ابن المهاجر، يحمل في وعيه ولاوعيه ثنائية ما بسبب الموروث والمكتسب، تنعكس في تناوله للمواضيع، فلا ينحبس في إطار أحادي النظرة.

عانى في أيامه الأخيرة من المرض وتوفي في القاهرة في 27 يوليو 2008، ودفن في مدفن الأسرة في الإسكندرية.

دنـــيا الأنـــغـــام

اخوان بيضا

شركة أسطوانات "بيضا فون" سجلت قسما رئيسيا من أرشيف الغناء العربي القديم. وبصرف النظر عن أن أسطوانات بيضافون أنتجت لغرض تجاري، فهى حفظت روائع من الغناء العربي في مطلع القرن العشرين.

آل بيضا، أسرة لبنانية من حيّ المصيطبة في بيروت. كان جبران وأخوه فرج الله بيضا من عمال البناء، على قدر بسيط من التعليم، لكنهما يهويان الموسيقى والغناء. بل كان فرج الله صاحب صوت جميل، يغني في المناسبات الاجتماعية. وكان سماع الموسيقى عبر الاسطوانات بدأ ينتشر في مطلع القرن العشرين. وبحس تجاري، فكر الأخوان في دخول ميدان صناعة الأغاني. لجآ إلى إبنيْ العم: جبران وبطرس بيضا. وتفاهم الجميع على العمل شراكة. جبران وفرج الله لديهما إلمام بالموسيقى والغناء، وجبران وبطرس، المتعلمان، لديهما خبرة الإدارة. وللتمييز بين جبران وابن عمه جبران، أسمّي الأول "أبو إيليا"، وهو أبو إيليا بيضا (1979

ـ 1908) الذي اشتغل بالغناء وأصبح معروفا. وعندما اقترب المشروع من حيّز التنفيذ، دخل شريك خامس هو ميشيل بيضا، أخو جبران وبطرس. وكان ميشيل يدرس الفيزياء في جامعة برلين، وهو الذي قام بالتنسيق بينهما وبين استوديو في العاصمة الألمانية. واستدعي فرج الله إلى برلين ومعه العود، حيث سجل أول أسطوانة. وكان ميشيل بيضا جميل الخط، فرسم شعار الشركة وخط باللغة العربية اسمها واسم الاسطوانة لطبع الغلاف. وكان ذلك عام 1906. ومن التسجيلات المبكرة لفرج الله بيضا أسطوانة بها تسجيل لأغنيتين من الفولكلور، الأولى بعنوان "البدر لمــّا زار" والثانية أغنية "مرمر زماني" الشهيرة. وحين عاد آل بيضا إلى بيروت، افتتحوا محلا لبيع الأسطوانات في ساحة البرج. ثم استعانوا بمهندسي صوت أوروبيين لتسجيل المزيد من الأغاني التي كانت تطبع على أسطوانات في برلين.

ثم توجه آل بيضا إلى القاهرة عام 1910، وأسسوا فيها لاحقا شركة "بيضافون". ولم تكن هى الشركة الأولى التي احترفت تسجيل الموسيقى والأغاني العربية في أسطوانات. لكنها كانت أول مؤسسة عربية تنافس المؤسسات الأجنبية في هذا المضمار. كانت شركة غرامافون الإنكليزية بدأت عام 1903 تلتها شركة أوديون الألمانية في العام التالي. وكان الشيخ يوسف المنيلاوي سجل أغانيه عام 1905. وتنافست الشركات الأجنبية على الحصول على الأصوات العربية مذ

بدأت سوق الاسطوانات تعرف الرواج. وفي 1910 افتتحت شركة باتيه الفرنسية فرعا لها في القاهرة. وبعدما قام آل بيضا بمجهود فردي في التسجيلات، أسسوا شركتهم عام 1914. وإلى الأصوات المصرية التي استقطبوها، دعوا إلى القاهرة عددا من المطربات والمطربين من بلدان عربية مختلفة. وكانوا يطبعون الاسطوانات في برلين. ومن نماذج انتاجاتهم الأولى، أسطوانة كتب على غلافها: (تسجيلات بيضا.. بيروت، القاهرة، برلين.. عبد الحيّ حلمي.. على تخت محمد أفندي إبراهيم وسامي أفندي الشوا.. "أفراح وصالك").

وفي بداية العشرينات، كانت شركة بيضافون قد سجلت أسطوانات بأصوات سيد درويش وعبد اللطيف البنا ومنيرة المهدية. ولذلك سجلت أم كلثوم في بدايتها الاحترافية لدى شركة غرامافون. وما لبثت أن فاقت منيرة المهدية في المستوى وفي الشهرة. وفي المقابل تعاقدت بيضافون مع محمد عبد الوهاب، ثم مع أسمهان وفريد الأطرش. ووسعت بيضافون مجال نشاطها، فافتتحت فرعا في بغداد وآخر في طهران. وفي إعلان نشر في بغداد في منتصف العشرينات: " تعلن شركة بيضافون كومباني، أبو غزال، أنها اشترت أصوات أشهر المطربين العراقيين وعلى رأسهم محمد القبانجي". أما أبو غزال، فالقصد منها شعار الشركة "الغزال". وكان من الحس التجاري الفطري الذي تميّز به الأخوة بيضا، أن جعلوا "الغزال" شعارا، وهو حيوان

محبوب لدى العرب. بينما وضعت شركة أجنبية "الكلب" شعارها، وهو غير مستحب.

وتطورت أشغال بيضافون، بظهور السينما الناطقة، ودخول عنصر الصوت والغناء والموسيقى إلى الأفلام المصرية عام 1932. أول فيلم مصري ناطق "أولاد الذوات" والثاني، في العام نفسه، فيلم "أنشودة الفؤاد" وهو غنائي. وجاء إنشاء الإذاعة المصرية عام 1934 ليزيد من حجم التعامل مع الأغاني والتسجيلات. وفي منتصف الخمسينات انضم محمد عبد الوهاب شريكا وأصبحت "بيضافون" تعرف بـ "كايروفون". وانسحب منها بعد سنوات قليلة، إذ أسس "صوت الفن" بالاشتراك مع عبد الحليم حافظ. لكن أسطوانات بيضافون القديمة، ما زالت المرجع والأرشيف، هو الأقدم والأكبر.

بديعة مصابني

أول فنانة في العالم العربي نالت لقب "الفنانة الشاملة"، بمعنى أنها ترقص وتمثل وتغني في العرض المسرحي الواحد. تاريخ ميلادها ليس محددا تماما. في رواية إنه 1888 وفي رواية ثانية 1892 وفي رواية ثالثة ما بين 1890 و1895، وهو الأرجح. على أن اسمها الفني هو الحقيقي. ومكان مولدها دمشق. أبوها لبناني وأمها سورية.

كانت نشأتها تعيسة، وهى تعرضت للاغتصاب في سن الطفولة. وهاجرت مع أمها وأخوتها إلى الأرجنتين ولم تتحسن الأحوال هناك. ورجعت إلى دمشق لتكابد ظروف العيش الصعبة. وروت في مذكراتها أنها عندما بلغت عمر المراهقة "صممت في سري على السفر إلى مصر، لأنني كنت واثقة من استطاعتي على الرقص والغناء، وكنت أسمع أن مصر موطن الفن في الشرق وأن فيها مغنيات مشهورات". وهى كانت حضرت حفلا في دمشق استمعت فيه بطرب إلى الشيخ سلامة حجازي.

ونفذت مشروعها وسافرت إلى القاهرة. وحضرت عرضا مسرحيا لفرقة جورج أبيض على مسرح الأزبكية. وروت ذكرياتها قائلة "تصورت نفسي على المسرح أرقص وأغني. غبت في حلم لذيذ، وكأنني أسمع تصفيق الجمهور وهتافه". وتعلمت في القاهرة شيئا من الرقص والغناء. وعادت إلى بيروت حيث عملت في ملهى ليلي في ساحة البرج، راقصة ومغنية تؤدي أغنيات لمنيرة المهدية. ثم انضمت إلى فرقة أمين عطا الله، الذي وفد بعيد الحرب العالمية الأولى وقدمت فيها عروضا يختلط فيها التمثيل الهزلي بالغناء والرقص. إلى أن زار نجيب الريحاني لبنان مع فرقته المسرحية في خريف 1920، فتعرفت عليه بديعة مصابني وأعربت له عن رغبتها في العمل معه. أعجبه جمالها وجرأتها وضمها إلى فرقته،

وأكملت معه الجولة في سوريا ولبنان، ثم سافرت معه إلى القاهرة.

بدأ عملها كممثلة تؤدي بعض الدوار في فرقة الريحاني. وتعلمت القراءة والكتابة على يد الكاتب المسرحي فؤاد سليم. ثم أطلقها نجيب الريحاني بطلة لفرقته في أوبريت "الليالي الملاح" التي كتب نصها بديع خيري ولحنها داود حسني. وكان الافتتاح يوم 22 مارس 1923. ونجحت النجمة الجديدة، التي تمثل وترقص وتغني. فتوالت البطولات أمام نجيب الريحاني في "البرنسيس" و"أيام العز" و"الفلوس" و"مجلس الأنس". وفي 11 سبتمبر 1924 تزوجا. وقدما معا عروضا أخرى منها "قنصل الوز" و"مراتي في الجهادية". ثم وقع الانفصال بينهما في شتاء 1926 (من دون طلاق، كون الريحاني كاثوليكيا).

وبدأت بديعة مصابني مسيرتها مستقلة، وحققت حلما قديما، إذ افتتحت صالة باسمها لعروض الميوزيكهول، اشتهرت باسم "كازينو بديعة"، وموقعها حيث الآن فندق "شيراتو ن القاهرة". في هذه الصالة كانت تقدم الأغاني والاستعراضات الراقصة والرقصات الفردية (في البداية بأداء بديعة مصابني، واشتهرت برقصة الشمعدان) والاسكتشات التمثيلية الهزلية، والمونولوغات الفكاهية. ومن "صالة بديعة" انطلقت لأول مرة أسماء سيكون لها شأن في دنيا الفن في مصر. منها: فريد الأطرش، محمد فوزي، محمد عبد

المطلب، محمد الكحلاوي، اسماعيل يس، شكوكو. حتى الموزع الموسيقى علي اسماعيل، بدأ حياته الاحترافية إثر تخرجه من معهد الموسيقى عازفا في فرقة بديعة التي كان يقودها فريد غصن. وفي صالة بديعة تخرجت أبرز راقصتين في تاريخ الرقص الشرقي: تحية كاريوكا وسامية جمال. والأولى اسمها بدرية محمد كريم، أطلقت عليها بديعة اسم "تحية" ثم اشتهرت رقصة الكاريوكا البرازيلية، فأصبح اسمها تحية كاريوكا. ولأن الطابع الاستعراضي هو الطاغي على تلك العروض، لقيت إقبالا كبيرا، ليس من المصريين فقط، بل من الأجانب المقيمين في مصر والوافدين إليها أيضاً. وخلال الحرب العالمية الثانية، كان "كازينو بديعة" المكان المفضل للجنود البريطانيين.

وكان من الطبيعي، وقد أصبحت بديعة مصابني نجمة مشهورة، أن تفتح أمامها أبواب العمل في السينما. وهى قامت بأدوار رئيسية في ستة أفلام بين 1934 و1946: "إبن الشعب"، "ملكة المسارح"، "الحل الأخير"، "ليالي القاهرة"، "فتاة متمردة" و"أم السعد". ومن دخل الصالة وأجورها في السينما جمعت ثروة. ووقع خلاف بينها وبين مصلحة الضرائب حول المبالغ المستحقة عليها، فما كان منها إلا أن هربت من مصر عام 1951 وهربت ثروتها إلى بيروت.

وأقامت في لبنان بعيدة عن دنيا الفن، وافتتحت بالشراكة مع آل الريس معملا لانتاج الألبان والأجبان ومحلا تجاريا

للمواد الغذائية في بلدة شتورة. وفي عام 1971 أغراها النجم الكوميدي اللبناني شوشو (حسن علاء الدين) بالعمل في مسرحه، فشاركت بالتمثيل في مسرحية "كافيار وعدس" (نص وجيه رضوان وإخراج برج فازليان) وكانت سعيدة بالعودة إلى الخشبة بعد غياب طويل وبالاستمتاع مجددا بأضواء المسرح وبتصفيق الجمهور.

توفيت في لبنان في 23 تموز 1974. وبعد وفاتها بسنة عرض فيلم "بديعة" الذي يروي سيرة حياتها، وهو من إخراج حسن الإمام. وفيه قامت نادية لطفي بدور بديعة مصابني وفؤاد المهندس بدور نجيب الريحاني.

اسكندر الشلفون

ابن بطرس الشلفون المولود في غوسطا (جبل لبنان) عام 1849، الذي هاجر إلى مصر وأقام في القاهرة وأضحى من كبار موظفي وزارة المالية ونال لقب "البك". وكان محبا للموسيقى، ألـّف فرقة موسيقية ضمت إليه أولاده الثلاثة: اسكندر ونجيب وفريد، يعزفون على العود والقانون والكمان والناى.

ولد اسكندر الشلفون عام 1877 في القاهرة ونشأ في البيت الفني ـ الموسيقي، فبدأ يغني ويداعب الأوتار وهو في الخامسة من عمره. تلقى علومه في مدرسة الفرير في بيروت،

مثل أخوته، وعاد إلى القاهرة حيث تم تعيينه عام 1909 في وزارة الأشغال العامة، وفيها ظل موظفا حتى عام 1923 حيث استقال وتفرغ للموسيقى، عشقه الأول والأخير. وكان قبل ذلك بثلاث سنوات أسس مدرسة لتعليم الموسيقى في شارع كلوت بك بالقاهرة. وكان صاحب صوت رخيم تتلمذ على يديه بعض الذين احترفوا الموسيقى أو الغناء.

وفي 1920 أيضاً، بدأ ينشر مجلة "روضة البلابل" المتخصصة في شؤون الموسيقى. وكان يحررها بمفرده تقريبا، يوقع بعض مقالاتها باسمه وبقية المقالات بأسماء مستعارة. واشتهرت هذه المجلة بأنها ضمت العديد من الدراسات القيمة في علم الموسيقى، بعضها حرره اسكندر الشلفون وبعضها ترجمه عن الفرنسية. كما أنها تميزت بأنها من أولى المجلات التي كانت تنشر نوطة الألحان: ألحان اسكندر نفسه من أدوار وقصائد وموشحات وأناشيد، وألحان الآخرين. ومنها نوطة موشح "برزت شمس الكمال" لأبي خليل القباني.

وفي "الموسوعة العربية الميسّرة" التي أصدرتها مؤسسة فرانكلين في القاهرة عام 1958 أن اللحن الشائع من نغم الحجاز لنشيد الوداع الشهير "طلع البدر علينا من ثنيات الوداع" هو من تأليف اسكندر الشلفون.

وقيل إن اسكندر الشلفون وضع أوبرا عربية. وقيل أيضاً

إن قصائد ديوان "الألحان" للشاعر إلياس أبي شبكة صاغها الشاعر استنادا على ألحان الشلفون.

ابنته كاميليا الشلفون تزوجت في بيروت من ألبير أديب، الأديب وناشر مجلة "الأديب" وأول مدير للإذاعة اللبنانية وأحد الأعضاء المؤسسين للحزب التقدمي الاشتراكي اللبناني ووالد الشاعرة هدى أديب.

وكان اسكندر الشلفون في بيروت عام 1934 جالسا في مقهى "كوكب الشرق" في ساحة البرج حين تداعى المبنى وانهار ومات الذين وجدوا بداخله بمن فيهم اسكندر الشلفون. وقد رثاه أمين نخلة بقصيدة عنوانها "تأبين عواد" مطلعها: "هذا أوان الذكريات.. يا هَمُّ خُذْ، يا دمعُ هاتِ".

فريد غصن

حين يُذكر العزف على العود، خصوصا في مصر القرن العشرين، ترد على الذهن أسماء الأساتذة: محمد عبد الوهاب، محمد القصبجي، فريد الأطرش، رياض السنباطي، فريد غصن وجورج ميشيل.

وفريد غصن اسمه الحقيقي الياس نعمة الله شلالا. ولد في بلدة حياطة (جبل لبنان) عام 1912. كان أبوه يعزف على العود، وأراد أن يغدو ولده طبيبا، لكن حب الموسيقى انتقل إليه من أبيه، فتعلم في البداية العزف على العود، ولاحقا سيدرس النوتة وسائر فروع الموسيقى.

هاجر مع العائلة وهو طفل إلى الأرجنتين. ومكث في المهجر الأمريكي الجنوبي عشر سنوات، أصبح خلالها يتقن الاسبانية إلى جانب الفرنسية والانكليزية، كما أصبح ملما بالألحان والإيقاعات الأرجنتينية. ثم وفد إلى مصر مع العائلة وأقام في القاهرة.

كان آنذاك يجيد العزف على العود. وفي القاهرة أتيحت له الفرصة لكي يعمق معرفته بتراث العزف على هذه الآلة. وبدأ العمل كمحترف في فرقة سامي الشوا (الحلبي الأصل) الذي كان أبرع من عزف على آلة الكمان فلقب بأمير الكمان. لكن احتراف الموسيقى لم يكن يكفي لتغطية مصروفات الحياة، فاشتغل خلال النهار في مطبعة. ثم انضم إلى فرقة منيرة المهدية، وصاحبها في رحلتها إلى تونس.

لكن العصر الذهبي في مسيرة فريد غصن الموسيقية بدأ حين انضم عام 1932 إلى كازينو بديعة مصابني وأصبح رئيس الفرقة الموسيقية لديها. هناك اشتغل مع موسيقيين محترفين، ومع مطربين كانوا في بداية مسيرتهم قبل أن يصبحوا نجوما، ومنهم فريد الأطرش ومحمد فوزي. وكان فريد غصن أحد الذين دربوا فريد الأطرش على العزف على العود. كما كان أحد الذين استمعوا إلى أسمهان قبل أن تحترف الغناء. ومن ألحانه غنت "اسمع البلبل". كما لحن لأم كلثوم أغنية "وقفت أودع حبيبي" من كلمات أحمد رامي. وغنتها عام 1943 في حفل على مسرح الأزبكية، لكن

الأغنية لم تسجل. وتقول تريز منصور في مقال عن فريد غصن إن تلميذه الموسيقي جوزف البدوي يحتفظ بنسخة من هذه الأغنية في مكتبته الخاصة.

وإلى العزف على العود، وهو مجال تألقه وسبب شهرته، وضع فريد غصن ألحانا لعدد من المطربات والمطربين: "يانا يا وعدي" (نور الهدى) "إيه معنى الحب" (صباح) "كل دقة في قلبي" (نازك) "سكن الليل" (شهرزاد) والأغنية التي خلدت مطربة: "آمنت بالله" التي أنشدتها لور دكاش. وتلمس في ألحانه تنوع جذوره الثقافية الموسيقية من التراث العربي القديم إلى الألوان الغربية المختلفة.

وبمسعى من فريد غصن تأسست في مصر "جمعية المؤلفين والملحنين" التي رئسها في بدايتها محمد عبد الوهاب. وكان فريد غصن عرف وهو في باريس أن الملحنين والمؤلفين يتقاضون حقوق الأداء العلني، وأبلغ عبد الوهاب بذلك، وقام بالاتصالات مع الجمعية الأم في باريس Sacem. وبمسعاه تأسست أيضاً الجمعية اللبنانية المماثلة.

في عام 1957 عاد فريد غصن إلى بيروت، وعمل ملحنا في الإذاعة اللبنانية ومدرسا للغناء والعزف على العود في المعهد الموسيقي الوطني. وهو الذي وضع المناهج الحديثة لتدريس العزف على العود. ومن الذين درسوا على يده من أصبحوا نجوما في التلحين والغناء ومنهم جورج تابت وسمير يزبك ومارسيل خليفة. وألف ثلاثة كتب: "علم التأليف

الموسيقي" و "علم التلحين العربي" و"منهج لعزف العود الحديث".

وفي 1970 أصيب بالشلل، فلزم بيته في ضاحية "جل الديب" قرب بيروت. وتوفي يوم الأول من أيلول 1985.

جـورج ميشـيـل

كان أحد أبرز عازفي العود في مصر. ولد في عائلة لبنانية مهاجرة في مدينة طنطا في العشرين من فبراير 1915. اسمه الكامل جورج ميشيل خالو. وانتقل إلى الإسكندرية وهو طفل حين استقرت العائلة هناك. وكان في الخامسة من عمره حين أصيب بداء التيفوئيد، فمنع من مخالطة الآخرين. ولكي يخفف عنه عزلته، اشترى له أبوه لعبة في شكل آلة بيانو صغيرة. داعبت أصابع الطفل الآلة فأخرج منها أنغاما وكشف موهبة في الموسيقى. ولما شفي أهداه أبوه آلة عود، وراح الطفل جورج يمضي الساعات كل يوم عزفا. وكان أن استدعى والده مدرسة إيطالية علمته النوطة والسولفيج.

تلقى جورج ميشيل علومه في مدرسة سان مارك الشهيرة في الإسكندرية حتى نهاية المرحلة الثانوية. وبموازاة الدراسة لم ينقطع عن العود وطور مهارته في العزف، حتى بلغ مستوى الاحتراف. وتعرف في الاسكندرية على محمد البحر نجل سيد درويش فضمه إلى فرقته، وعزف معها ألحان سيد

درويش. وكانت هذه المعزوفات تبث من إذاعة الإسكندرية مباشرة على الهواء. أتاحت له هذه الفرصة أن يصبح عازفا على العود معترفا به، وأن يحفظ ألحان سيد درويش. وخلال الحرب العالمية الثانية قام بتدريس الموسيقى في نادي الموظفين، إلى جانب إحياء الأمسيات الموسيقية. وفي إحدى هذه الحفلات سمعه أحد كبار موظفي الدولة وعرض عليه الانتقال إلى القاهرة، وشجعه بأن أمن له وظيفة في شركة الغزل والنسيج في حلوان. استقر جورج ميشيل في القاهرة، وما لبث أن هجر الوظيفة إذ وجد الفرصة لإظهار موهبته في العزف عبر الإذاعة المصرية. آنذاك كان كبار العازفين يقدمون المقطوعات يوميا على الهواء. وانضم جورج ميشيل إلى القائمة كعازف منفرد، كما عمل في أوركسترا الإذاعة السمفوني، وأسس فرقة خاصة به تعزف الموسيقى البحتة وتشارك المطربات والمطربين في تسجيل الأغاني. وحين تأسست "الفرقة القومية للفنون الشعبية" كان عازف العود الرئيسي في الاوركسترا. واستمر فيها إلى حين إنشاء "فرقة الموسيقى العربية" بقيادة عبد الحليم نويرة الذي ضمه إليها وخصه بالعزف المنفرد على العود. وقام جورج ميشيل بتدوين أعمال سيد درويش للفرقة.

وإلى جانب تألقه في العزف، ألف جورج ميشيل عدة مقطوعات موسيقية، تنوعت فيها الألوان من التقاسيم إلى الموسيقى التصويرية. واشتغل في تدريس العزف على العود

في معهد الموسيقى العربية منذ 1959 وبعد التقاعد ظل على صلة بالمعهد بصفة خبير. وكانت وفاته في القاهرة في 30 نوفمبر 1996.

لــور دكــّاش

عندما توفيت لور دكاش في القاهرة يوم 11 أكتوبر 2005، كانت الأضواء انحسرت عنها منذ نحو أربعة عقود. وإذا كان الكثيرون نسوا اسمها، فلقد احتفظت ذاكرتهم بإحدى أغانيها، وأقصد أغنية "آمنت بالله".

ولدت لور دكاش في حارة حريك، الضاحية الجنوبية من بيروت، في 24 آذار 1917. كان أبوها جورج دكاش تاجر أقمشة في بيروت، يحب الموسيقى والغناء. سمع ابنته تغني وهى طفلة وأدرك أنها صاحبة موهبة في الغناء. فأحضر لها مدرسا علمها العزف على العود. وسجلت لور دكاش وهى طفلة في التاسعة من عمرها أغنية "طلوع الفجر" وساعدها أبوها في مزج الموسيقى بصوت صياح الديك. وبناء عليه، قامت شركة "بيضافون" منتجة الأسطوانة الأولى بتسجيل أسطوانة ثانية بعنوان "بدي روح" وهى أغنية خفيفة فرانكو أراب.

وكانت زيارتها الأولى إلى القاهرة عام 1933، حيث سجلت لحساب بيضافون أيضاً أغنية "يا ويل حالي" وأغنية

"سوء تفاهم". وفي زيارتها الثانية عام 1939 سجلت أغنيتها الخالدة "آمنت بالله". وقالت لور دكاش إنها صاحبة اللحن، وتنازلت عنه لفريد غصن الذي سجله باسمه، لأنه كان عضوا في جمعية المؤلفين والملحنين، وهى لم تكن منضمة إلى الجمعية. وليس من دليل يثبت هذا الزعم أو ينفيه.

وفي 1945 دعتها الإذاعة المصرية إلى القاهرة لتسجيل بعض أغانيها. ومنذ ذلك التاريخ ظلت مقيمة في القاهرة، ولم تغادرها إلا لإحياء بعض الحفلات في بعض الدول العربية. تزوجت مرتين. الأولى من لبناني، وبعد وفاته تزوجت من مصري، وحصلت على الجنسية المصرية عام 1970.

غنّت لور دكاش نحو مئة أغنية، معظمها من تلحينها. وكانت تعتز بواحدة منها "ليلة الأحد" عن قصيدة كتبها صالح جودت يقول في مطلعها "يا قضاء في مهجتي ودمي/ ذكريات اللقاء لم تنَمِ". قالت إنها ابتكرت فيها إيقاعا جديدا 17/ 8 وإن محمد عبد الوهاب أبدى إعجابه باللحن عندما سمعه. ومن أغنياتها لملحنين آخرين: "حبيبي فين" لعزت الجاهلي، "ودعت دنيا الغرام" لأحمد صدقي، "نسيتك يللي ناسيني" لحسين جنيد، و"أنا قلت لك" لمحمد الموجي. وكانت مؤدية قديرة للموشحات والأدوار القديمة، وسجلت بصوتها "ضيعت مستقبل حياتي" لسيد درويش، و"كل من يعشق جميل" لداود حسني. وقد نالت نجاحا كبيرا في تونس التي زارتها أول مرة عام 1949، بسبب ثراء الألوان الغنائية

التي قدمتها في حفلاتها، خصوصا بسبب الموشحات. وتكررت حفلاتها في تونس وكانت آخرها في عام 1973. وهى من بعد اعتزلت الغناء في حفلات عامة، وإن شاركت في مناسبات، منها تأبين المغنية التونسية الراحلة عليّا عام 1990، وفي مهرجان للموسيقى العربية أقيم في بوردو في فرنسا عام 1991. كما شاركت بالغناء في إطار ضيق في جمعيات ثقافية في القاهرة، وبالترتيل في الكنيسة المارونية في مصر الجديدة.

قامت في السينما ببطولة فيلم واحد "الموسيقار" من إخراج السيد زيادة عام 1946. كما شاركت بدور صغير عام 1994 في فيلم كوميدي مصري "يا تحب، يا تقب" وفيه غنت "آمنت بالله".

كلمة ختام

في كلمة الختام، أؤكد الحديث عن الظروف السياسية والاجتماعية التي جعلت هؤلاء اللبنانيات واللبنانيين ينشرون إبداعهم في مصر، وتحديدا من الثلث الأخير للقرن التاسع عشر. وفي مصر بالذات. كانت هناك حركة طباعة ونشر في بيروت، وكانت هناك صحافة. بل وبدأ المسرح العربي مع مارون النقاش في بيروت. لكن المناخ السياسي السائد في لبنان آنذاك، لم يكن ليسمح بنمو الحركة الثقافية والإعلامية نموا يؤسس لمشهد ثقافي وصحافي راسخ وديناميكي. وإن كانت حركة التعليم والتواصل مع الثقافة الغربية سمحتا بنشوء المواهب الفردية، التي انتقلت بمعرفتها إلى مصر.

ولو لم تكن مصر تتميّز بوضع سياسي خاص، أبرز ملامحه أنه يتمتع بشيء من الحكم الذاتي بمعزل عن الوصاية المطلقة للباب العالي العثماني، لما تمكنت من أن تؤدي دور المستقطب الذي يرحب بالمواهب الوافدة، والذي يتيح لها أن تعبر عن نفسها وأن تتفاعل مع المواهب المحلية المصرية، قبل أن تكتسب المواهب اللبنانية الصفة المصرية، فيصبح إنتاجها مصريا. وبرغم ما قيل عن الخديوي اسماعيل

وعهده، وعن الديون التي أغرق مصر بأثقالها، وعن الهدر في بلاطه، وعن انبهاره اللامحدود بالغرب، يبقى أنه هيأ لمصر مناخا سياسيا أفرز الواحة الثقافية المنفتحة التي ترعرعت فيها الصحافة والمسرح والموسيقى ووضعت فيها أسس النهضة الثقافية والصحافية في العالم العربي.

ومع هجرة الأقلام اللبنانية إلى مصر، لم تقفل ساحة بيروت الثقافية أبوابها. ظلت فيها أقلام تمارس دورها. واللبنانيون الذين استوطنوا مصر، كانوا ـ وظلوا ـ أفرادا. بمعنى أنه مع وجود جالية لبنانية، لم يتحول الأدباء والصحافيون والفنانون إلى ما يشبه الحزب والتيار. لم يشكلوا ظاهرة متجانسة. ظل كلٌ منهم معبرا عن نفسه، ووفق قناعاته الشخصية، أو مصالحه. بالرغم من التشابه في الجذور والمزاج العام والعلاقات العاطفية مع الوطن الأم، لبنان. بل إن المنافسة اشتعلت بينهم، بمعزل عن تأثير مصري ما.

كانت هناك حملات إعلامية متبادلة، منها بين "الأهرام" و"المقطم". ففي مطلع 1893 نشرت "الأهرام" أن المشتركين يردّون أعداد "المقطم" رفضا لسياستها. فعلقت "المقطم" قائلة: "إن فضلاء المصريين راضون كلهم عن المقطم". وحين نشرت "الأهرام" أن "سعادة مدير الدقهلية الفاضل حجز من راتب حضرة مفتش صحة المديرية قيمة اشتراك المقطم" ردت "المقطم" بعنف غير مسبوق "إن الأهرام يدّعي أن الحكومة تجبر الأهالي على الاشتراك في

الجرائد لخجله من تأخره وانحطاطه، وحسده على تقدمها ونجاحها". (لاحظ أن الرد يتكلم على "الأهرام" بصيغة المذكر "يدعي" والصواب أن "الأهرام" صحيفة أو جريدة "تدعي". وهو خطأ شائع وسائد إلى يومنا هذا فيتحدث صحافيو "الأهرام" عن صحيفتهم بصيغة المذكر، وكأنها "جورنال"). ولا يغيب عن البال الخلاف السياسي المبدئي بين الصحيفتين، إذ بينما كانت "المقطم" مؤيدة تماما لبريطانيا، وقفت "الأهرام" إلى جانب فرنسا.

وحين نشر شبلي الشميل مقالة في جريدة "الأخبار" عام 1908 يشرح فيها مباديء الاشتراكية، تصدى له سليم سركيس، فكتب في "المؤيد" تهديدا في شكل نصيحة. وطلب من الشميل أن يحذر حتى لا تلصق به تهمة الاشتراكية. وجاء في رد الشميل: "كأن الاشتراكية وصمة وأنا قد تلوثت بحمأتها وأنت لا تريد لي ذلك". وحين أغلق فرح أنطون مجلة "الجامعة" أرجعت "الهلال" ذلك إلى ضيق ذات اليد، فجاءها الرد من روز أنطون (شقيقة فرح) : "لم يقفل فرح الجامعة لقلة المال، لأنه لو أراد المال لكان أتاه من بابه كما فعل غيره من أهل الصنعة".

وفي مذكراتها كتبت روز اليوسف أن مجلة "المصور" نشرت صورة السيدة منيرة ثابت على الصفحة الأولى قائلة إنها أول مصرية تدخل ميدان الصحافة "وذهبت أنا إلى الزميل إميل زيدان أطلب منه نشر صورتي باعتباري سابقة لها

في دخول ميدان الصحافة، ولكنه رفض. بل ورفض نشر صورتي كإعلان للمجلة نظير أجر. ولست أدري إلى اليوم سر الموقف. إلا إذا كان الأستاذ إميل زيدان قد أراد ألا يعتبرني مصرية".

وفي المسرح، كانت هناك خلافات تنافسية مثلا بين عزيز عيد وجورج أبيض. وبرغم وجود علاقات نسب عائلية بين الإثنين (جورج عيد أخو عزيز، تزوج من ابنة خالة دولت قصبجي زوجة جورج أبيض) وقع بين الفنانين عدة خلافات، أبرزها يوم أصر عزيز عيد أن يؤدي دور الملك لير حين قدمت الفرقة القومية مسرحية شكسبير، وكان الدور لجورج وهو أليق منه لأدائه. وهدأ الخلاف بالاتفاق على أن يتناوبا على تأدية الدور نفسه، إلى أن أرغمت الصحافة ـ والزملاء ـ عزيز عيد على التنازل.

ولقد هاجر محمد رشيد رضا وفرح أنطون من لبنان إلى الاسكندرية في سفينة واحدة. وكلاهما من نواحي طرابلس. وكانا صديقين على الصعيد الشخصي. لكن حين احتدمت المعركة بسبب حماسة فرح أنطون للعلمنة، أيد محمد رشيد رضا أستاذه محمد عبده، بل قيل إن رشيد رضا هو الذي أثار الشيخ محمد عبده للرد على فرح أنطون. في مثل هذه الحالات ينتفي الرابط اللبناني والشخصي، ويفصل في الأمر الموقف العقائدي. على أنه حين أقيم حفل تأبين فرح أنطون، كان محمد رشيد رضا عريف الحفل.

وكان جرجي زيدان شريكا لنجيب متري في إنشاء مطبعة ومكتبة، ثم اختلفا وانفصل أحدهما عن الآخر. وأسس كل منهما دار نشر. ثم انتقل الخلاف إلى داخل أسرة زيدان نفسها. والذي حدث أن جرجي زيدان استدعى أخاه إبراهيم من بيروت، وأقرضه 180 جنيها لينشيء مكتبة "الهلال" في شارع الفجالة بالقاهرة لتنافس مكتبة "المعارف" (لنجيب متري). على أن يتقاضى جرجي نصف الأرباح. وظل إبراهيم يدفع نصف الأرباح من تأسيس المكتبة 1892 وحتى وفاة جرجي زيدان 1914. بل واستمر في الدفع لورثة جرجي لبضعة سنوات. إلى أن استكثر المبلغ وتدخل الوسطاء وتمت المصالحة، فدفع إبراهيم إلى أبناء جرجي 3000 جنيه وأصبح مالكا للمكتبة بمفرده.

بل إن الاختلاف في الموقف نشأ داخل أفراد الأسرة الضيقة. والمثال على ذلك: إميل وشكري زيدان، إبنا جرجي. فبعد تأميم "دار الهلال" عام 1960 عرض الرئيس جمال عبد الناصر أن يبقى الأخوان في المؤسسة وأن يتقاضى كل منهما مرتبا شهريا قدره 500 جنيه. وافق إميل وظل في الدار، ورفض شكري وسلك طريق الهجرة المعاكسة إلى لبنان. وتوفي الأول في القاهرة والثاني في بيروت.

وعلى الجانب الآخر، من المنظور المصري، تم التعامل مع اللبنانيين كأفراد، مع كامل الاستلطاف والتقدير للهجة والمطبخ والعادات اللبنانية عموما. حتى عندما انبرت بعض

الأقلام المصرية تهاجم الشوام المهاجرين بسبب مواقف بعضهم السياسية المؤيدة للإحتلال أو للخديوي، كانت هناك أقلام مصرية أخرى تدافع عن الأشقاء والحلفاء في المواقف الوطنية. أي أن التعامل لم يكن بالجملة، ولا مع اللبنانيين كجبهة واحدة، وإنما مع الأفراد، بحسب موقف كل منهم إزاء حالة بعينها. بل إن أقلاما مصرية هاجمت أقلاما مصرية أخرى للأسباب ذاتها .

ولا ننسى أيضاً، أن الانتماءات المختلفة للبنانيين جعلتهم في مواقع مختلفة في المشهد الثقافي والصحافي المصري. فأهل اليسار اللبنانيين (من شيوعيين واشتراكيين وعلمانيين) أمثال أنطون مارون ورفيق جبور وفرح أنطون وشبلي الشميل كانوا حلفاء أقرانهم من مصريين ولبنانيين، وخصوم أهل اليمين من مصريين ولبنانيين أيضاً. وبهذه المناسبة، يجدر بنا الإشارة إلى أن مقالات شبلي الشميل وفرح أنطون الحادة في دفاعها عن العلمانية والعلم وفصل الدين عن الدولة، واجهت ردودا عنيفة من مصريين ولبنانيين، ومن رجال دين مسلمين ومسيحيين. لكن المعركة ظلت محصورة في إطار الرأي والرأي المضاد، ولم يتعرض أحد للسجن أو الاعتداء من خصم اعتبر نفسه مجروحا معنويا. وهذه إيجابية تحسب لصالح ذلك العصر وأهله. لكن عندما تحول التنظير إلى التنظيم الحركي كما في حالتي أنطون مارون ورفيق جبور، دفع كلاهما حياته ثمنا.

يبقى الكلام على علاقة أبناء الجيل الأول بالوطن الأم. وقد اختلفت نوعية العلاقات باختلاف الشخصيات. منهم من ظل على ولاء للبنان إضافة إلى ولاء لمصر، ولم يجد غضاضة في ثنائية الولاء بل ورأى فيها مصدر ثراء. ومنهم من تمصر وظلت علاقته بلبنان نوستالجية عاطفية. ومنهم من انقطعت علاقته بالوطن الأم. ومنهم من ظلت علاقته بلبنان سياحية ولم يرغب في العودة إلى لبنان إلا بقصد الاصطياف. أما أبناء الجيل الثاني، فلقد تمصروا تماما، وإن كان بعضهم ظل على علاقة ما مع الموروث الثقافي.

وكلمات شكر

كان والدي من هواة الأرْشَفَة. لديه مجلدات مجلة "المصور" و"كل شيء والدنيا" ولديه أعداد من "الأهرام" و"المقطم" و"البصير" و"روز اليوسف". ومنذ شغفي بالقراءة، تصفحت هذه المجلدات. ومنذ تلك الفترة، عايشت أحداثا وعرفت أسماء معظم شخصيات هذا الكتاب. بل إن بعضهم عرفته شخصيا. إما من طريق والدي مثل جبران النحاس وشارل شميل وجورج ميشيل وروفائيل جبور (نسيب والدتي) الذي عرفني على آسيا داغر وماري كويني وحدثني عن عزيز عيد وجورج أبيض وبشارة واكيم وعن أبيه رفيق جبور. وبعض الشخصيات أتيح لي أن أعرفها مثل فؤاد صروف وبديعة مصابني ويوسف شاهين وعبد السلام النابلسي ويوسف معلوف وعلوية جميل. وشاءت الصدفة أن أتعرف في بيروت على ألبير طبشي، ابن أخت بشارة واكيم، فأمدّني بمعلومات عن خاله.

وإنني أشكر الناقد والشاعر محمد علي فرحات الذي ألحّ عليّ كثيراً لكي أنشر هذا الكتاب، وحين كان مسؤولاً عن الصفحة الثقافية في جريدة "الحياة" نشر مقالات لي عن بعض شخصيات هذا الكتاب.

كما أشكر الباحثة سلمى مرشاق سليم التي تعمّقت في موضوع "شوام مصر" وكنت خلال محادثاتي معها أفيد كثيراً من معلوماتها. ولا أنسى الصحافي العريق وديع فلسطين الذي أجابني على بعض الاستفسارات.

أخيراً أشير إلى أنني وددت الكتابة عن بعض من عرفتهم مثل المنتج السينمائي أنطون خوري وكاتب السيناريو يوسف عيسى لكن نقص بعض المعلومات حال دون إتمام المقال. كما أنني أعددت فصلاً عن المخرج السينمائي هنري بركات، سوى أنني لم أتثبت بعد من جذوره وهل هي لبنانية أم دمشقية. وأرجو أن أتمكن من ذلك لكي أنشر الفصل في الطبعة الثانية أو في الجزء الثاني من هذا الكتاب وهو مخصص للشخصيات ذات الأصل السوري.

المراجع

مسعود ضاهر: الهجرة اللبنانية إلى مصر (هجرة الشوام)، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1986.

رفعت السعيد: ثلاثة لبنانيين في القاهرة (شبلي الشميل، فرح أنطون، رفيق جبور)، دار الطليعة، بيروت، 1973، ط. أولى.

ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة (ترجمة كريم عزقول)، دار النهار للنشر، بيروت، ط. ثالثة، 1977 .

يونان لبيب رزق: "الأهرام" ديوان الحياة المعاصرة ـ الجزء الأول، الجزء الثاني. القاهرة، مركز تاريخ الأهرام. (لا ذكر لتاريخ النشر أو الطبعة).

يوسف اسعد داغر: مصادر الدراسات الأدبية ، الفكر العربي الحديث في سير أعلامه، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1972.

تيسير أبو عرجة: المقطم (جريدة الاحتلال البريطاني في مصر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997.

نعمات أحمد عثمان: تاريخ الصحافة السكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995.

رمزي ميخائيل: الصحافة المصرية والحركة الوطنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996.

فاطمة اليوسف: ذكريات ـ سلسلة "الكتاب الذهبي"، منشورات روز اليوسف، القاهرة، 1976، ط. ثالثة.

ليلى نسيم أبوسيف: نجيب الريحاني وتطور الكوميديا في مصر، دار المعارف، القاهرة (لا ذكر لتاريخ النشر أو الطبعة).

سعاد أبيض: جورج أبيض، أيام لن يسدل عليها الستار، دار المعارف، القاهرة (طبع سنة 1970).

فاطمة رشدي: كفاحي في المسرح والسينما، دار المعارف، القاهرة، 1971.

عزيز صليبا: العمل السرّي في الحزب الشيوعي اللبناني، دار الفارابي، بيروت، ط. أولى، 2002.

يوسف خطار الحلو: أوراق من تاريخنا، دار الفارابي، بيروت، ط. أولى، 1988.

إضافة إلى بعض المقالات المنشورة في الصحف والدوريات:

يسرى المقدم: زينب فواز.. أديبة ورائدة، في مجلة "المنطلق الجديد"، بيروت، العدد الرابع، ربيع ـ شتاء 2002.

لويس عوض: مقالة عن بشر فارس، في كتاب "دراسات في النقد والأدب"، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ط. أولى.

وديع فلسطين: مقالة عن حبيب جاماتي، جريدة الحياة، لندن، 15 أكتوبر 1997.
مقالة عن كريم ثابت، جريدة الحياة، لندن، 5 يوليو 1999.
علاء عزمي: مقالة عن دار المعارف، جريدة أخبار الأدب، القاهرة 7 مايو 2006 .
صفوت الشرقاوي: مقالة عن نجيب كنعان، جريدة الأهرام، القاهرة، 9 أغسطس 2001.
تيريز منصور: مقالة عن فريد غصن، مجلة الجيش (اللبناني)، أول تموز 2005.
سمير نصري: مقابلة طويلة مع لور دكاش، النهار، بيروت، 3 تشرين الأول 1988.
سليم حداد: عن فؤاد حداد، صفحة خاصة في شبكة الانترنت..
جان داية: عن جريدة "الأخبار" ـ جريدة "الأخبار" البيروتية 8 كانون الأول 2006.
عن سليم سركيس، جريدة "النهار" البيروتية، 16 تشرين الأول 2006.

المحتويات

في بلاط الصحافة

أهل القلم

أقلام نسائية

أهل النضال

أضواء المسرح والسينما

يتناول هذا الكتاب سيرة عدد من الشخصيات اللبنانية التي عاشت في مصر، وساهمت بشكل فاعل في الحياة الثقافية والإعلامية فيها، خصوصاً في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وطول القرن العشرين. ومِن هذه الشخصيات مَنْ لا يعرف البعض أنهم لبنانيون أو من أصول لبنانية. ومن الطبيعي أن يترك اللبناني في إبداعه المصري بصمات من ثقافة حملها معه في هجرته. على أن هذه الجداول اللبنانية صبّت في النهر المصري.

فارس يواكيم

- كاتب مسرحي وصحافي. لبناني من مواليد مصر.

- ساهم كمؤلف في الحركة المسرحية اللبنانية، خصوصاً في النصوص التي كتبها للفنان الكوميدي الراحل شوشو (حسن علاء الدين).

- كتب العديد من المسلسلات التلفزيونية، وعمل في الصحافة المطبوعة والمرئية والمسموعة في لبنان وفي ألمانيا.


ISBN 978-9953-71-409-7